
الهيئة العامة لقصور الثقافة
نجمة أغسطس
صنع الله إبراهيم

نجمة أغسطس

صنع الله إبراهيم

وزارة الثقافة



وزارة الثقافة



الهيئة العامة لقصور الثقافة

• نجمة أغسطس

• صنع الله إبراهيم

• تصميم الغلاف:

د.خالد سرور

الهيئة العامة لقصور الثقافة

الثقافة 2012

• رقم الإيداع: ٢١١١٣/ ٢٠١٢

• الترقيم الدولى: 978-977-718139-6

التجهيزات والطباعة:

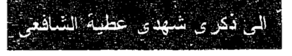
شركة الأمل للطباعة والنشر

ت: 23904096

نجمة أغسطس

لا تخطر فكرة للفنان مهما كانت
عظمته، وليس لها وجود في قشرة
الصخر، وكل ما تستطيعه اليد
التي تخدم العقل هو أن تفك سحر
الرخام ...

ميكل انجلو



مقدمة

في أمسية من شتاء سنة 59 كنا ثلاثة في زنزانة مظلمة باردة في سجن القناطر نحاول ازجاء الوقت بالحكي والغناء المتعثر. فقد كنا محرومين من الصحف والكتب والورق والقلم والراديو. وفجأة انطلق راديو السجن على غير انتظار بأغنية عبد الحليم حافظ الجديدة: قلنا حنبني وآدى احنا بنينا السد العالي.

اهتزت أعطافنا جميعاً رغم ما نعانيه. فها هو حلم وطني يتحقق. أو يشرع في التحقق. فصيغة الفعل الماضي التي أستخدمها صلاح جاهين صيغة مألوفة في الأدب الشعبي من صيغ التعبير عن المستقبل. فلم يكن في الأمر مبالغة إذ سرعان ما بدأ العمل بالفعل في بناء السد.

ومن موقع جديد في الصحراء، هو سجن "المحاريق" بالواحات الخارجة، تابعت في الصحف المهربة إلينا صورة اللوحة التي تتصدر موقع العمل في السد وتحمل هذه العبار: "باق من العمل... يوماً على تحويل مجرى النيل" الذي حدد له يوم 14 مايو 1964. وكنت أدير في رأسي هذا السؤال: كيف يمكن التعبير روائياً عن موقف معقد تقوم فيه سلطة تقدمية معادية للاستعمار بتحديث البلاد وتصنيعها ومحاولة تحقيق نوع من العدالة

الاجتماعية بينما تمارس أبشع ألوان القهر ضد من يخالفها فى الرأى أو يجرأ على محاولة المشاركة فى الفعل؟

شيئاً فشيئاً بدأ السد العالى يحتل مكان الصدارة من تفكيرى فى موضوع روائى، وشجع على ذلك أن الحديث سواء من جانب كُتاب النظام المسيطرين على الميديا أو فى صفوف المعارضة اليسارية المحتجزة وراء الأسوار، كان عن ضرورة أن يعبر الأدب عن الشئ الجديد، عن "الظواهر الجديدة" و"الإنسان الجديد". ومنذ اللحظة الأولى أحيط المشروع بحملة دعائية ضخمة صورته، عن حق، بأنه رمز لانتصار الإرادة، فقد تحقق فى ظل معركة مع الإمبريالية وصلت إلى الصدام العسكرى، وألف كُتاب الأعمدة أن ينعوا على الكُتاب الشبان سآمتهم ومللهم وسوداويتهم وعجزهم عن رؤية "الظاهرة الثورية"، وينصحونهم بالذهاب إلى السد "ليروا الأمور على حقيقتها".

فى كافة الحالات، فإنى شعرت أن لدى موضوعاً جيداً لعمل روائى يطمح إلى تجميع عناصر الواقع: الصراع الضارى بين قوى التقدم والتخلف، السلطة وعالمها وآليتها، بالإضافة إلى تجربتى الشخصية فى مواجهة التعذيب والموت، فضلاً عن أنه يسمح باختيار مجموعة من الأدوات التكنيكية الروائية وهو أمر بدا ذو أهمية قصوى وطبيعية لكاتب فى مقتبل عمله وعمره.

هكذا كنت أتابع الأيام الباقية على التاريخ المحدد لتغيير مجرى النيل، والذى يمثل نهاية المرحلة الأولى من البناء، متمنياً أن أشهد بنفسى

هذا الحدث الفذ، إذ شعرت أنه يصلح بؤرة درامية للرواية. وبالطبع لم يتحقق هذا رغم أنه تم الإفراج عنى قبل موعد التحويل بأيام فى إطار عفو شامل. فقد خضعت للرقابة القضائية المنزلية لمدة شهور، أنصرف كل همى بعدها إلى البحث عن عمل أقتات منه. ووجدته أخيراً فى مكتبة لبيع الكتب الأجنبية لكنى لم أتخل عن حلم الكتابة، وتمكنت من نشر بعض القصص القصيرة التى كتبتها فى السجن، ثم أنجزت روايتى الأولى "تلك الرائحة".

لم أتخل أيضاً عن مشروع السد العالى. وفى يوليو 1965 بعد عام من تحويل مجرى نهر النيل ومن خروجى من السجن، شددت الرحال مع اثنين من أصدقائى الكتاب، هما "كمال القلش" و "رؤوف مسعد"، وبمساعدة مراسل الأزفستيا فى مصر "كونستنتين فيشنفسكى"، إلى منطقة السد، حاملاً معى كل ما أملك من ملابس وكتب، كأنما خامرتنى فكرة الاستقرار بها (فما زال هناك أمل أن يكون الأمر كما يصورون، وإن راودتنى الشكوك فى أن الأمر لن يختلف فى الجوهر، وأن أسوان هى القاهرة وهى موسكو أيضاً).

ولمدة ثلاثة شهور كنت انقل قدمى فى تثاقل، فوق أتربة ورمال وحصى، والعرق يتصبب على وجهى وتحت ابطى، والقبعة القماش التى وضعتها فوق رأسى لا تكفى لصد أشعة الشمس الملتهبة. بينما يدى اليمنى تقبض فى رفق على دفتر سميك صغير تجعدت جلدته بسبب العرق، أحمله دائماً لأفتحه بين الحين والآخر كى أدون ما تراه عينى أو تسمعه أذنى.

بعد ثلاثة أشهر من الإقامة فى منطقة السد، عدت إلى القاهرة، وسواء بدافع من تبرئة الذمة أو "التقية" أو الوفاء بالالتزام الذى ارتبطنا به أمام عديد من المهندسين والعمال والكوادر القيادية من مصريين وسوفييت، الذين قدمنا أنفسنا إليهم كمواطنين "صالحين"، متعهدين أن نكتب عنهم و"عن الصراع الذى يخوضونه مع الطبيعة"، فقد أعددت مع صديقى على عجل كتاب رحلات عن تجربتنا، اقترحت له اسم "تاج من الصلب والصخور"، وأصرا هما على تسميته "إنسان السد العالى"، تعاملنا معه كواجب ثقيل يجب الانتهاء منه بأقرب فرصة (صدر فى مطلع عام 1967 بعد عام بالضبط من نشر "تلك الرائحة" ومصادرتها). ولم يكن هذا الكتاب يختلف، فى لغته وبنائه، كما هو واضح من العنوان، عن الخطاب الدعائي الحماسى السائد. لكنى لم أشعر أنى أكذب، لقد كنت ببساطة أقوم بما خلته واجبى، معطياً لنفسى الحق فى أن أعبر عن نفسى بعد ذلك بحرية. أن العب الفن كما أشاء.

ولعدة سنوات تالية، تنقلت بين عدة مدن فى أماكن مختلفة من العالم (منها موسكو حيث أتيح لى أن أدرس النظام السوفيتى عن كثب) أحمل معى خرائط السد العالى ونهر النيل والمذكرات التى سجلتها عن مراحل العمل ومواد البناء والآلات المستخدمة وطبيعة التربة وتاريخ النهر والمعابد المقامة على شاطئيه، وعن البشر من مقيمين وعابرين، مصريين وسوفييت، عمالاً ورؤساء، وعن الخواطر التى كانت تجول بذهنى والأحلام التى راودتنى أثناء نومى، وأشباح الماضى التى كانت تلاحقنى (الطفولة/السجن) والكتب التى

كنت أقرأها (وعلى رأسها رواية أمريكية عن حياة "مايكل أنجلو") واضعاً نصب عينى بيتا من شعر النحات العظيم يحدد فيه منهاجه فى الإبداع: "لا تخطر فكرة للفنان مهما كانت عظمته/ وليس لها وجود فى قشرة الصخر/ وكل ما تستطيعه اليد التى تخدم العقل/ هو أن تفك سحر الرخام".

كل الرخام أمامى وليس علىَّ سوى أن أفك سحره.

◉ ◉ ◉

السدود فى العالم ثلاثة أنواع. سد بنائى يقوم على عمليات هندسية دقيقة، وسد ترابى عبارة عن حاجز من التراب، وأخيراً سد ركامى -مثل السد العالى- يتألف من ركام من الصخور والرمال والتراب.

يتكون السد العالى من ثلاثة أقسام: قسمين متماثلين فى الحجم والمواد ونوع الآلات التى تعمل على جسميهما، وقسم صغير بينهما، هو النواة، يتألف من أبسط المواد وهى التراب، ويرسو فوق ستارة رأسية لا تنفذ منها المياه تمتد بعمق مائتى متر حتى صخر الأساس الجرانيتى.

بدا لى هذا التقسيم نفسه ذو دلالة هامة، فقسمت روايتى إلى أقسام ثلاثة، قسمين متماثلين فى البناء والأحداث البسيطة التافهة واللغة الباردة المحايدة التى تتجنب الإنفعالية والغنائية إلا عندما يتعلق الأمر بالحديث عن الطفولة أو السجن، وتحتفظ دائماً بمسافة من الواقع، ملقية بذلك ظلالاً من الشك على حقيقة الخطاب الدعائى، ترصد ولا تحلل، إنما تسمح بالدلالات، وتفسح المجال لتضمينات متعددة من مصادر مختلفة. وبين

القسمين قسم ثالث صغير يتألف من جملة واحدة أو انفعالية تمزج عناصر القسمين السابقين فى وحدة واحدة تحتفى بقيمة "الفعل" بينما تسعى لصياغة وإضاءة عدة تساؤلات بشان الفن والعنف والسلطة والثورة والتاريخ.

المكان إذن هو السد والزمان هو "المرحلة الثانية" من البناء. المرحلة الأولى تمت بتحويل مجرى النيل فى مايو 1964.وكانت عبارة عن عملية بسيطة من الحفر والردم احتاجت إلى جهد بشرى هائل مركز لكنه غير متخصص ولا يتطلب أساساً غير الحماس. إنها مرحلة الثورة فى بساطة أهدافها وسموها قبل أن تتعقد الأمور.

أما المرحلة الثانية فهى مرحلة أرقى تقنياً وفكرياً "تتطلب مزيداً من التفكير والمهارة والتأمل فى أخطاء المرحلة السابقة". فقد أنتقل العمل فيها إلى أخطر الأجزاء وأكثرها تعقيداً: بناء النواة الصماء فى قلب السد لتكون بمثابة الجزء المنيع من البناء. وهى للغرابة مكونة أساساً من التراب. فهذه المادة الهشة عندما تضاف إليها المياه وتحقن بمواد بعضها مستورد من الاتحاد السوفييتى تتحول إلى حاجز منيع ضد الزمن.

◉ ◉ ◉

وقادنى التأمل فيما لدى من مادة إلى اكتشاف طريف. فالمواد التى يتألف منها السد أربع هى: الصخور والرمال الخشنة والرمال الناعمة والتراب. وترتبط هذه المواد بأربع عمليات أو أربع حركات للعمل: الحفر لوضع الديناميت ثم التفجير ثم نقل الصخور نتاج التفجير إلى السد أى الردم.

وكل حركة من الحركات لها آلة خاصة بها: الحفارات، وآلات التخريم، وسائل التفجير، السيارات والقلبات وأنابيب التجريف التى تنقل الرمال بقوة دفع المياه (استخدمت هذه التقنية بعد ذلك فى هدم خط برليف سنة 73) والروافع الهوائية، وأخيراً البلدوزر والهراس لعملية الردم. ولدى أربع شخصيات أساسية هى: "شهدى عطية" و "مايكل أنجلو" و "رمسيس الثانى" و"الراوية نفسه" وهى شخصيات متقابلة يمكن أن تتلاقى مصائرها وفقاً لعديد من التباديل والتوافيق.

إنه إذن نظام رباعى الأبعاد يمكن البناء على أساسه، لتصبح النتيجة على شكل هرم مدرج:

القسم الثانى "النواة"	
4	4
3	3
2	2
1 "القسم الأول"	"القسم الثالث" 1

ما هى مادة البناء الرئيسية؟ إنها الصخور. كيف نصفها؟ صلبة مصمتة لا يمكن مناقشتها من أى زاوية كما لاحظ "مايكل أنجلو". هى أيضاً الشئ اليقينى الوحيد فى عالم تسوده الفوضى كما أكتشف أيضاً بعد تجربته مع السلطة.

إنها أساس القارات، أساس الرواية: الحركة الخارجية المحددة التى يمكن الامساك بها.

هذه الصخور عندما تتعرض لعوامل التعرية، تتفكك على مر الزمن، وتترسب على صورة رمال... تصبح ذكريات.

والرمال نواعان: خشن وناعم، نوعان إذن من الإحالة إلى الماضى يسمحان بتقديم شخصيتين هامتين: "شهدى عطية" و "أنجلو"

ثم أن هذه الرمال تستخدم أيضاً فى تلبيس الصخور ذاتها. أليست الأحلام ترسبات الوعى؟

نحن إذن أمام أربع لغات: لغة أولى لا تفسر شئ ولا تؤوله بل تحاول أن تعرضه من خارجه. إنها اللغة السلوكية، على أن التأويل يتحقق من هذا العرض بمساندة أبعاد أخرى عميقة غير خارجية.

"فما اقل ما يبدى الراوى رأياً، ما أقل ما يتكلم، ما اقل ما يعلق: إنه يبصر"، إنه كاتب يتلمس طريقه فى حذر شديد مبتعداً عن الأحكام المسبقة محاولاً الاقتراب أقصى ما يمكن من الواقع واصفاً الأشياء بأسمائها، رافضاً الزعيق الانفعالى والميلودرامية. إنه يبحث عن "صخور" يمكن الاستناد

إليها من أجل مزيد من التقدم. الصخور التى لا تناقش من أي زاوية. لماذا؟ لأنها حقائق صلبة.

هذا هو أسلوب السرد الرئيسى.

وكما ترسبت الصخور على مر الزمن ثم تفتت وتحولت إلى رمال تذروها الرياح كما تقول العرب القدامى، فإن ذلك الأسلوب البارد اللامبالى يرق وتتسلل إليه شحنات عاطفية وتعليلات فكرية متنوعة: الذكريات وتأملات الإبداع الفنى عند "مايكل انجلو". درجتان من الغنائية فى معارضة انفعالية للسرد الرئيسى الصارم: الدرجة الأولى فيها قدر كبير من الموضوعية: مايكل أنجلو، الرمال الخشنة. الدرجة الثانية فيها قدر أكبر من الانفعالية والذاتية. تتقارب الجمل أكثر فتختفى النقاط لتحل محلها الفواصل. الرمال الناعمة.

وتتجه الحركة العامة لكافة العناصر فى القسم الأول إلى ذروة موعدها، ارتفاع الفيضان الذى يأتى فى أغسطس. فلابد من فتح الأنفاق لاستقبال المياه الزائدة وإلا غرقت أساسات محطة الكهرباء. ويتحول يوم فتح الأنفاق إلى مشهد هائل. يوحد كل عناصر اللحظة: الآلات والصخور، المعابد والسجن، شهدى ومايكل أنجلو، المسيح ورمسيس الثانى، ستالين وعبد الناصر، العمال الأميون والعمال المهرة، يوم التحويل وفعل الحب، الطفولة والمستقبل، كل ذلك فى بؤرة حية، لحظة فعل متوترة تتداعى فيها الكلمات والصور فى جملة وحيدة لا تعترضها نقطة أو فاصلة. لحظة يقظة كاملة.

تحقق واع. هنا تصبح التفاصيل الدقيقة العلمية والآلية ذات أبعاد إنسانية، وتكف عن كونها مجرد تفصيلات عابرة.

☯ ☯ ☯

أصبح الهاجس المسيطر عليّ إذن هو تحقيق أقصى وحدة ممكنة بين الشكل والمضمون. ودفعني هذا الهاجس إلى استكشاف الإمكانيات الطباعية. وكان من السهل التوصل إلى استخدام أنماط مختلفة للحرف تناسب كل لغة من اللغات الأربع. ثم انتقلت إلى محاولة تشكيل الصفحات والفقرات والعبارات وفقاً لهذه اللغات. وقضيت عدة شهور من عام 1976 فى تجربة أشكال مختلفة لصفحات معدودة ثم أقلعت عنها عندما وجدت أن الأمر قد يستغرق عدة سنوات، وأعتقد أنه لو كان الكمبيوتر وقتها فى متناول اليد لتحققت هذه التجربة.

☯ ☯ ☯

وقد كان "بطرس الحلاق" ("الدائرة فى نجمة أغسطس"، مجلة شئون فلسطينية أكتوبر 1978) أول من ألتقط مغزى التطابق بين عالم السد والرواية، فقال إنها لا تحيل إلى واقع مستقل بنفسه خارجا عنها وتحاول أن تقترب منه ما أمكن، فهي نفسها الواقع.

ففى الرواية التقليدية تحاول الكلمة بمدلولها المباشر أو الايحائى أو الرمزى أن تدخلك فى واقع تحاول هى الاقتراب منه، إنها دلالة على مدلول، ويأتى التركيب الروائى ليدعم هذه الدلالة. فأنت لا تستقر فى الكلمة أو التركيب بل تجتازهما معاً شطر المدلول.

أما فى "نجمة أغسطس" فمدلول الكلمة بالمعنى اللغوى لا يحيل إلى شئ أو إلى شئ ذى بال. الواقع المحال إليه هو تركيب الكلمة. التركيب هو الواقع لا تنفذ منه إلى شئ. لا تنفذ منه إلا إلى نفسه. الكلمة الفعل.

الرواية هى الواقع. إننا أمام السد – الرواية.

لكنه يضيف أن الرواية فشلت لأنها فى مأزق هو مأزق المجتمع نفسه. هو مجتمع مزقته الآلة فتفتت، وبدلاً من أن تعبر الرواية عن هذا التفتت تطل علينا ببنية روائية متناقضة: أحكام هندسى صارم: دائرة محكمة. لقد أخضعت الذهنية الروائية لمنطق غير منطقها.

يقول "الحلاق": ما هو مأزق المجتمع العربى الذى تصوره الرواية؟ منذ مطلع النهضة والمشكلة تتوالد فيه. تجلب إليه الأدوية فيتورم فتجلب إليه الأدوية من جديد. وبدلاً من أن تتبطن الرواية هذا المأزق، تسقط عليه نفسها من الخارج اسقاطاً متلبسة بلباس العلمية والحداثة، فتزيد من تفتته. إنها رواية المجتمع بعد التصنيع لا الآن. الإرادة الفنية مقتبسة من مجتمع يعانى من أزمة التصنيع لا الحداثة أى مجتمع الغرب.

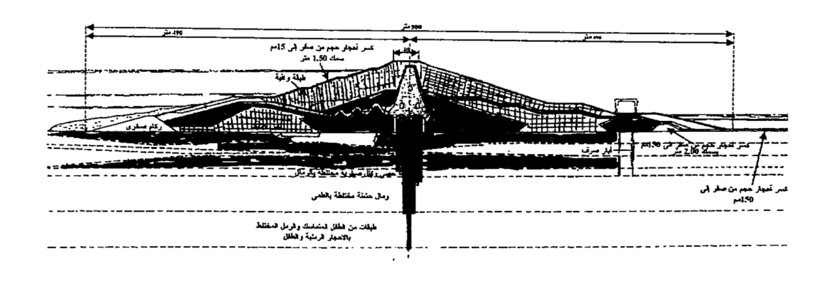
وركز الحلاق على ما وصفه بـ"التشيؤ والتسطيح" فى السرد، وتوصل إلى النتيجة الآتية: الشبه الكبير بين التقنية فى "نجمة أغسطس" وبينها فى رواية "التحور" للكاتب الفرنسى "ميشيل بوتور" من ناحية وعند "آلان روب جرييه"، أحد منظرى "الرواية الجديدة" الذى تحتفظ الأشياء لديه بحضورها المستقل بعيداً عن الشخصيات، من ناحية أخرى.

لكن "محمود أمين العالم" فى "ثلاثية الرفض والهزيمة" يرفض هذا القول ويقول: "إننا لا نجد فى "نجمة أغسطس" سيادة النظرة والتناول الخارجى المسطح المجزء الذى نجده فى "التحور". فالأسلوب الثانى الغنائى أو التفجيرى فى "نجمة أغسطس" يقاطع دائماً الأسلوب الأول ويفجر دلالاته ويعمقها".

صنع الله إبراهيم

مصر الجديدة – ديسمبر 2003

قطاع عرضي في السد العالي



كان

[illegible]

[illegible]

[illegible] المغرب في النوافذ [illegible]

[illegible] نظرة إلى

امرأة [illegible] . وفي العربة الثالثة [illegible]

الركاب [illegible] النوافذ وكانت [illegible]

من [illegible]

[illegible]

[illegible] وكانت العربة الثالثة [illegible]

بجوار النافذة [illegible]

زجاجة [illegible] الزجاجة [illegible]

[illegible] الزجاجة [illegible] ١٤ [illegible]

[illegible] الحقول الخضراء [illegible] النافذة [illegible]

٢

[illegible]

[illegible]

ثم [illegible]

[illegible]

[illegible]

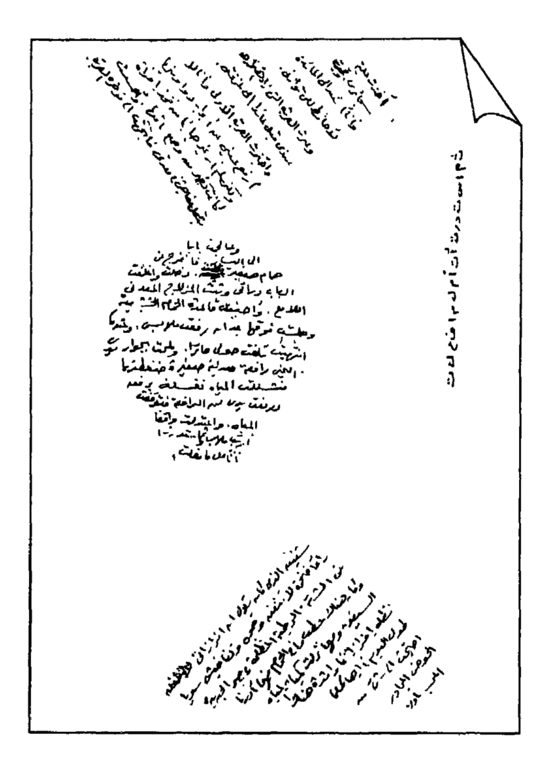
[illegible]

[illegible]

[illegible]

[illegible] ١٢

صورة من محاولة تشكيل الصفحات



صورة من محاولة تشكيل الصفحات

صورة من محاولة تشكيل الصفحات

القسم الأول

[1]

وضعت حقيبتي فوق الرَّف، ووقفت أتأمل الديوان الخالى. وخلفي في الممر الضيق كان الركاب يهرعون إلى أماكنهم. وفي الخارج كان الناس يتزاحمون أمام نوافذ القطار .

تقدمت من النافذة فألفيت مصراعها الزجاجي محكم الإغلاق. ورأيت من خلاله زحام المودعين أمام نافذة الديوان التالى. كانت شفاههم تتحرك بسرعة وقد مالت رؤوسهم إلى الأمام وانتفخت رقابهم. ولا بد أنهم كانوا يصيحون حتى يسمعهم المسافرون من أقارب وأصدقاء. لكن الزجاج كان سميكاً لا ينفذ منه الصوت. فقد كان القطار واحداً من تلك القطارات الحديثة المكيفة الهواء وهي لذلك محكمة الإغلاق.

جلست إلى جوار النافذة. وبعد لحظة شعرت بوطأة الحر. وتجمع العرق على وجهي ففككت أزرار قميصي. وعندئذ تحرك القطار دون أن ينضم أحد إلى قمرتي. وبدأ جهاز التكييف يعمل، فتسللت إلى الديوان برودة خفيفة.

مددت ساقي أمامي مستسلماً للمقعد. وكنا قد خلفنا شوارع القاهرة. ومرّ القطار بمجموعة من المساكن الشعبية بلونها الأصفر الباهت، وزواياها البارزة المتجاورة، وزحام الغسيل في شُرفاتها، وأكوام القاذورات أسفلها. وجاءت بعدها

العشش، ثم ظهرت بعض الحقول فجأة. وملت على النافذة لأرى محطة الجيزة. ومررنا بها فى لمحة. ثم انطلقنا وسط خضرة كاملة على الجانبين.

أحسست بحركة على باب الديوان، فالتفت لأرى رجلاً فى سترة صفراء. نهضت واقفاً. اقترب الرجل منى ثم انحنى على المقعد دون أن يفوه بكلمة. وفى ثانية تحول إلى فراش من طابقين.

قال مشيراً إلى باب صغير فى الحائط: الغطاء هنا.

وأعتدل باسطاً قامته ثم قال: لو عزت حاجة اندهلى.

قلت: حاضر يا فندم.

- تطلع إلىَّ مندهشاً قبل أن يغادر الديوان ويغلق الباب من خلفه.

اقتربت من الباب وأدرت مقبضه المعدنى، ولدهشتى دار فى يدى وتحرك مصراع الباب نحوى. أعدتُ إغلاقه وثبته بالسلسلة المعدنية المدلاة منه. وعدت إلى مكانى بجوار النافذة.

كان هناك رف صغير إلى جوارها، فوقه كوب وتحته صنبور مياه ولوحة معدنية. جذبتها نحوى فتحولت إلى حوض. ملأت الكوب ورفعته إلى فمى. كانت المياه ساخنة، فاكتفيت برشفة واحدة. وتركت ماء الصنبور يتجمع فى الحوض حتى امتلأ، فدفعته إلى مكانه. وسمعت صوت المياه وهى تنصرف إلى الخارج.

أعدت الكوب إلى مكانه وجلست على حافة الفراش. أشعلت سيجارة وأنا أتطلع من النافذة دون أن أتبين شيئاً محدداً. ربما لأن القطار كان يسير بسرعة فائقة.

نهضت واقفاً وغادرت الديوان. كان الممر هادئاً يضيئه نور الغروب فى النوافذ. مررت بدواوين مغلقة وأخرى مفتوحة تنطلق منها ثرثرة رتيبة، وأمام أحدها جلس شاب على مقعد صغير من القماش يتحدث إلى الجالسين فى الداخل. اختلست النظر إلى السيدة التى كان يتحدث معها، فرمقنى بنظرة عدائية وأنا أمر من خلفه.

انتقلت إلى العربة التالية التى تناثر ركابها أمام نوافذ ممرها. كان بينهم عدد من الأجانب. اصطدمت وأنا أمر بفتاة أوربية شقراء ترتدى سروالاً أسود. أحسست على ساقى بملمس جسمها اللين. وظللت أحس به وأنا أتقدم إلى نهاية العربة وأعبرها إلى عربة الطعام.

اخترت مائدة إلى جوار النافذة. وطلبت من الجرسون النوبى زجاجة بيرة، احتسيتها وأنا أتأمل الحقول الخضراء الخالية من أى إنسان. أضيء نور العربة. وأصبحت النافذة مرآة سوداء لا تعكس غير وجهى.

احتل المائدة المجاورة لى عجوز من أوروبا، وزوجته المزوقة فى رصانة، وولدان أحدهما بلحية طويلة. ثم دخلت فتاة البنطلون الأسود الشقراء فى حركة مندفعة وتوقفت برهة تتلفت حولها. كان وجهها ضاحكاً. نظرتُ أنا إلى المقعد الخالى فى مواجهتى، ولكنها أعطتنى ظهرها، وانضمت إلى مجموعة أوربية أخرى تتألف من شابين وفتاة.

طلب شاب أسمر فى الركن زجاجة بيرة جديدة. كان يبدو أنه من العاملين فى السد العالى، وأوحت ملابسه بأنه عامل ترقى إلى مرتبة ملاحظ.

طلبت زجاجة أخرى بدورى، لكن الجرسون أعتذر بأن البيرة نفذت. فغادرت العربة عائداً إلى قمرتى. كان القطار يهتز بشدة، فاعتمدت بيدى على جدران الممر دون أن أرفع عينى عن أبواب الدواوين. لكننى لم أرى غير جانب من فخذ امرأة كانت تغير من وضع ساقيها.

أضأت نور قمرتى. وأخرجت منامة ومنشفة. وأحسست بثقل مفاجئ فى معدتى فغادرت الديوان إلى التواليت.

أنزلتُ قاعدة الحمام الخشبية، وجلست فوقها بعد أن رفعت ملابسى. وعندما انتهيت، ضغطت رافعة معدنية صغيرة إلى جوار يدى اليمنى فتسللت المياه تغسلنى برفق. واعتدلت واقفاً أرتب ملابسى، ثم استدرت أتأمل ما فعلت.

تذكرتُ شقة مصر الجديدة الرطبة التى أقمت فيها عدة شهور. لم تكن الشمس تدخلها إلا لماماً. وكان حمامها معطوباً تعجز مياهه عن إزالة الإفرازات مهما جُذب السيفون. وكانت إفرازاتى تظل فى مكانها ساعات طويلة، تطالعنى كلما احتجت إلى الحوض المجاور.

ضغطتُ رافعة معدنية بجوار المقعد، فانفصل قاعه. وسالت المياه على جوانبه. واختفت إفرازاتى بثانية، ثم عاد القاع إلى وضعه نظيفاً لامعاً.

تحولتُ إلى الحوض. فتحت الصنبور، ورأيت كرة معدنية بجواره لها طرف دقيق بارز فى أسفلها. تحسسته بطرف إصبعى، فانسابت منه دفقه خفيفة من الصابون السائل.

عدتُ إلى ديوانى، فاستبدلت ملابسى بالمنامة. وشعرت بالبرد، فأخرجت الغطاء. وأخذت من حقيبتى كتاباً مصوراً عن "مايكل انجلو" ثم تمددت على الفراش.

أحسست بجفاف فى حلقى، وتقت إلى زجاجة كوكا كولا، فضغطت الزر المخصص لاستدعاء الفراش. انتظرت مدة لكن أحد لم يأت فضغطت الغطاء حول أطرافى وأطفأت النور ثم أشعلت سيجارة، جذبت أنفاسها بلذة فى الظلام الذى رطبه جهاز التكييف.

كان الظلام شاملاً، يقتحمه أحياناً نور مصباح وحيد على الخط الحديدى، أو أنوار بلدة صغيرة نمر بها بسرعة. وتخيلت أنى أمر من جديد فى الممر، وأن الزحام شديد. وعندما أصبحت خلف الشقراء ذات السروال الأسود لم أتمكن من الحركة. وانحنت هى إلى الأمام تتأمل شيئاً فى الطريق، فانحنيت فوقها لأرى ما جذب اهتمامها.

أشعلتُ سيجارة ثانية وأنا أحدق إلى النافذة، ومررت بيدى على ساقى. وفجأة انغمر الديوان بالضوء. وألفيتنى أحدق إلى رجل يتأملنى من النافذة، فجذبت يدى بسرعة من فوق ساقى. وأدركت بعد لحظة أن قطارنا توقف بجوار قطار آخر.

تحرك الرجل مبتعداً، وتبينت أن الحركة من قطارنا الذى أستأنف سيره، فالتففت بالغطاء جيداً، وتكومت على نفسى.

❋

أيقظتنى أشعة الشمس فى الصباح، وظللت ممدداً، أتطلع إلى فضاء موحش تلون بلون الرمال. غادرت الديوان إلى قاعة الطعام، وبحثت بعينى عن فتاة الأمس الشقراء فلم أجدها. ولم أر أيضاً العجوز الأوربى وامرأته والولدين، ولا بد أن يكونوا قد غادروا القطار فى الأقصر.

شربت الشاى وأنا أتطلع من النافذة. وبدأت المرتفعات المجاورة تصطبغ

باللون الأحمر بتأثير مناجم الحديد ولا شك. ومن ملامح المسافرين وحركاتهم، أدركت إننا أشرفنا على أسوان.

ذهبت إلى ديوانى، وحملت حقيبتى إلى باب العربة. كان القطار قد توقف فى المحطة وفتحت أبوابه، وعند الباب شعرت لأول مرة منذ أربع عشرة ساعة بحرارة الصيف والجو الخانق المترب.

ساعدنى شيال فى إنزال حقيبتى، وحملها إلى خارج المحطة حيث اصطف طابور من سيارات التاكسى يرتدى سائقوها الجلابيب. أعطيته أجره، وحملت الحقيبة، وعبرت الميدان الذى تجمعت فى أنحائه سيارات ركاب كبيرة.

مشيت ببطء أنوء بحمل الحقيبة. وأجبرتنى أشعة الشمس القوية على أن أطبق جفونى بعض الشيء.

انحرفت إلى اليسار فى طريق ضيق محاذ للنيل، ومزدحم بحركة المرور. بحثت عن تليفون حتى وجدت واحداً فى دكان على الشارع، تبين أنه مكتب محام. أعطانى المحامى رقم هيئة السد العالى. لكنهم قالوا لى أن لمعمل الأبحاث الجيولوجية رقماً منفصلاً.

طلبتُ الرقم الجديد، فجاءنى صوت صبرى، وعندما اكتشف أننى أكلمه من أسوان لم يصدق، وطلب منى أن أركب الأتوبيس على الفور إلى منطقة تدعى "صحارى" وأسأل عن مسكنه جوار الجامع.

تركت حقيبتى فى مكتب المحامى، ومضيت إلى ميدان المحطة. أرشدنى الناظر إلى سيارة "صحارى" التى تحركت بعد نصف ساعة. سرنا بمحاذاة النيل الذى برزت فى منتصفه صخور سوداء ضخمة. وبعد قليل عبرنا خزان أسوان القديم. بعدها امتدت الصحراء أمامنا تعترضها بين الحين والآخر سيارات مثقلة بأحمال من الصخور والرمال.

أشرفنا فجأة على مجموعة من المجمعات السكنية الحديثة المتوازية، تشقها شوارع فسيحة مرصوفة. ووقفت السيارة ففادرها الركاب، وتبعتهم عندما أبصرت الجامع.

بحثت عن عنوان المنزل الذى وصفه لى صبرى، فوجدته فى آخر صف من المجمعات. وفتح لى الباب نوبى قصير القامة عريضها، باسم الوجه، تنحى عن الباب بحركة عسكرية قائلاً: تفضل.

ولجت صالة قصيرة بها مائدة معدنية، وعدة مقاعد تفتح عليها حجرتين إحداهما مغلقة استقر جهاز التكييف فى حائطها فوق الباب. أما الثانية فكانت مفتوحة وقد بدا مكان جهاز التكييف فارغاً احتله لوح من الكرتون.

قال لى النوبى أنه يدعى "البرديسى"، وأن "الباشمهندس" يريد منى الذهاب إلى النادى الروسى ومقابلة شخص يدعى "سليم".

دلفت إلى الحجرة المفتوحة وقفت أتأمل وجهى فى المرآة. وناديت على البرديسى قائلاً إنى أريد أن أحلق ذقنى. ثم تحولت أتأمل الحجرة ، ورأيت أعداداً من مجلة "الكواكب" مصفوفة بعناية على طاولة إلى جوار الفراش. وفوق الفراش استقرت إحداها مفتوحة على صورة لسعاد حسنى كشفت عن جانب كبير من ثدييها.

أحضر لى البرديسى ماكينة حلاقة، وموسى، وأنبوبة معجون. وضعت المعجون على وجهى فأحسست بلسعة غريبة. تأملت الأنبوبة فاكتشفت أنها تحتوى على معجون أسنان. ناديت على البرديسى، فأحضر لى واحدة أخرى ألفيتها للأسنان أيضاً.

ذهبتُ إلى الحمام، ودعكت الفرشاة فى صابونة الحوض، وحلقت ثم خلعت ملابسى ووقفت تحت الدش. واستحممت بماء أقرب إلى الغليان. ثم وقفت حائراً لا أدرى كيف أجفف جسمى. وأخيراً أخرجت منديلاً من ملابسى مسحت به جسمى. وبقيت برهة وسط الحمام. وما لبث جسدى أن جف تماماً، فارتديت ملابسى، وخرجت إلى الصالة. شربت كوب الشاى الذى أعده لى البرديسى ثم غادرت المنزل.

بحثتُ عن النادى الروسى كما وصفه لى البرديسى، فألفيته مبنى أنيقاً أقيم فى مدخله كشك امتلأ بالمجلات والكتب الروسية. كان المطعم فى الجزء الخلفى من المبنى. وكان واسعاً نظيفاً امتلأ بالآكلين، وجلهم من المصريين. وتبين أن سليم هو مدير المطعم. وقال لى إن صبرى حجز لى طعام الغداء.

جلستُ إلى مائدة. وسرعان ما جاءنى الطعام. وكان يتألف من ربع دجاجة

بالخضار والأرز، تبعتها شريحة من البطيخ المثلج.

أتيت على محتويات المائدة، وغادرت المطعم إلى مسكن صبرى. فتح لى البرديسى بحركته العسكرية. وألفيت صبرى فى الصالة يتناول الطعام مع شخص آخر قدمه لى على أنه مهندس كبير وزميله في المسكن.

جلست في حجرة صبرى أنتظره حتى جاء بجسمه المترهل وشعره الذى امتلأ بالبياض.

قال: لم أتوقع أبداً أن تفعلها وتأتى.

قلت: ظننت أنى أمزح؟

قال وهو يجلس بجانبى إلى الفراش: لكن أين ستقيم؟

أشعلت سيجارة وأجبت: لم أقرر بعد. أنا فى انتظار نصيحتك.

قال إنه لا يستطيع أن يأخذنى إلى مسكنه، لأن لزميله طباعاً صعبة مما جعله يدعونى إلى المطعم. كما أنه من الممنوع استضافة أحد فى مساكن الهيئة.

قلت إنى سأجد طريقة ما.

مال على وهمس: أكل شئ على ما يرام؟

قلت: أجل. لماذا؟

قال: لا شئ. فقط هنا مكان حساس وأنا فى الخمسين ولا أريد متاعب. لست أدرى ما تريده بالضبط.

قلت: لا أكثر من الفرجة.

قال: وماذا تنوى الآن؟

قلت: معى بعض النقود وعنوان شخص آخر ربما تمكنت من الإقامة معه.

قال: وإن لم تتمكن؟

قلت: بحثت عن فندق رخيص.

قال إن أسعار الفنادق الآن رخيصة، فلا أحد يفد إلى أسوان فى أغسطس.

أخرج علبة سجائره وقدم لى واحدة، فاعتذرت بأنى لا أشرب السجائر ذات الفلتر. شعرت بحرارة الغرفة وجوها الخانق. وقال صبرى إنه رفع جهاز التكييف

لأنه لا يحتمل برودته.

قلت: آن لك أن تتزوج يا صبرى. ماذا تفعل؟

تنهد: كما يفعل الجميع. وأشار إلى صورة سعاد حسنى.

قلت: والروسيات؟

قال: هذا آخر ما يجب أن تفكر فيه وإلا وجدت نفسك فى القاهرة، ووضعت هى على الطائرة الذاهبة إلى موسكو.

أحضر البرديسى أكواب الشاى. ورويت لصبرى قصة المعجون، فضحك قائلاً: إنه رغم ذلك يتميز بالأمانة الشديدة ككل النوبيين. وروى لى كيف عمل مرة فى منزل كبير الخبراء السوفيات، وعندما كسر هذا لوحاً من الزجاج فى المنزل، ذهب البرديسى إلى الهيئة وقدم بلاغاً ضده.

استفسرت منه عن أسعار الطعام فى النادى الروسى، فقال إن سعر الوجبة الممتازة لا يتجاوز ثلاثة قروش. وقال إن المطعم مخصص للمهندسين فقط، ولكنه يستطيع أن يدبر لى الأمر بحيث أتناول فيه بعض وجباتى. أما فى أسوان نفسها فليس أمامى غير نادى التجديف.

فرغنا من الشاى، فعرض على أن أصحبه إلى مكتبه. واستقبلنا الهواء قوياً ولطيفاً فى ظل المبنى، لكن الحرارة ما لبثت أن حاصرتنا عندما تحولنا إلى اليسار وعبرنا الطريق.

سألنى ونحن نقف أمام شجرة فى انتظار السيارة التى تقله عادة: كيف حال الناس فى القاهرة؟

أجبت: كما هى.

ثم ضحكت، وأردفت أنى ذهبت أول أمس لزيارة "الرحمانى" فى منزله. وجدته بمفرده، وأمامه طبق به سمكة. وعندما أخبرته بسفرى قال إن الأمور ستتحسن عند عودتى.

- وبماذا أجبته؟

- قلت إنى لا أعتقد.

- وحسنين؟
- لا يجد اللقمة.
- وسامى؟
- يكتب فى الصحف.
- لا اقرأ مقالاته.

قلت: ولا أنا.

لمحتُ عدداً من النوبيين بالجلاليب والعمائم بينهم صعيدى فى "أوفرول" الميكانيكيين الأزرق أسفل الشجرة التالية حيث محطة السيارات. كان أمامهم أتوبيس أنيق فارغ قال صبرى إنه مخصص للروس. وإنهم فى البداية كانوا يركبون مع المصريين ثم طلبوا أن تخصص لهم سيارات مستقلة.

سألته عن السبب، فقال: ألا تعرف أبناء بلدنا؟ الواحد منهم يفقد السيطرة على نفسه إذا ما أصطدم باللحم الأبيض فى الزحام.

راقبتُ سيدة روسية ممتلئة تقترب من الأتوبيس، ثم ترفع قدمها وتضعها على درجه فينبعج ردفها. وأقبلت علينا سيارة ركاب مسرعة خلت بعض نوافذها من الزجاج. تمهلت أمامنا فجرى نحوها المنتظرون الذين تضاعفت أعدادهم. لكن السائق تجاوزهم مواصلاً السير. ثم توقف ودار بسيارته عائداً إلى المحطة. فتدافعوا خلفه من جديد وتزاحموا على بابى العربة.

توقفت أمامنا جيب روسية تقل عدداً من المصريين. فركبنا إلى جوار السائق وانطلقنا إلى طريق مرصوف حتى بلغنا شاطئ النيل. غادرنا العربة أمام مبنى قديم أبيض اللون تحيط به الخضرة من كل جانب. وقال صبرى أن السائق سينزل أسوان بعد ساعة ويمكن أن يأخذنى معه، فاتفقت معه على أن ينتظرنى.

قادنى صبرى إلى مكتب يطل على النيل. ووقفت أتأمل المياه التى بدت ساكنة. أشار إلى خط من التراب ناحية اليمين تنتهى عنده المياه وقال: هذا هو السد.

كان التراب تتخلله قطع من الصخور الرمادية والزرقاء المختلفة الأحجام. وكان يرتفع إلى مستوى منبسط من الرمال تعمل فوقه عدة آلات متحركة، وينتهى

بخط من البراميل المتجاورة، يبدأ خلفها مستوى جديد مرتفع من الصخور.

لحظ صبرى دهشتى فقال: السد ليس أكثر من قطاعات من الصخور والرمال المختلفة الأحجام، المرتبة بنظام خاص. والناحية التى نراها الآن هى الجزء الخلفى الذى يواجه القاهرة.

لم تكن ثمة حركة أمامى فوق السد فيما عدا الآلات المعدودة التى كانت تتحرك ببطء شديد فوق الرمال.

قلت: كنت أتصور أنى سأجد السد يموج بآلاف العمال والمكن.

قال: هذا كان فى المرحلة الأولى. أما الآن فالعمل كله مركز فى قلب السد.

تحولنا عن النافذة وبدأنا جولة فى أنحاء المعمل. ورأيت جهاز الجس الصوتى الذى يقيس أعماق النيل بالموجات الصوتية. ثم وقفنا أمام رف من الخشب، صفت فوقه قطع من الصخور المختلفة الألوان، تمثل عينات من صخور المنطقة ومعادنها.

سألته عن أنواع الصخور، فقال إنها جميعاً من الجرانيت الذى يتكون دائماً من عدة معادن مختلفة الألوان، ويتأثر لونه باختلاف نسبها. وقادنى إلى ميكروسكوب على مائدة مجاورة، وقال وهو يضع شريحة رمادية اللون من الصخر أسفله: يمكنك أن ترى بنفسك.

انحنيتُ على المنظار، فرأيت عدداً لا يحصى من المساحات الدقيقة المتداخلة المتباينة اللون. كان بعضها أسود اللون وبعضها الآخر وردياً، وكان لأغلبها شكل هندسى محدد. وبدت شريحة الصخر أشبه بلوحة تجريدية.

انتقلنا إلى عدد من الصناديق الصغيرة، صُفت بجوار الحائط. كانت تضم أحجاماً مختلفة من الرمال، تبدأ من الزلط والحصى وتتدرج منتهية بالتراب. وقال صبرى أن قطاعات كاملة من الرمال الخشنة تستخدم فى بناء السد، وتستخدم الرمال الناعمة فى تلبيس الصخور. أما التراب أو الطمى فيصنع منه قلب السد الذى يطلق عليه اسم النواة الصماء.

قلت ونحن نعود إلى مكتبه: يبدو أنك وجدت أخيراً عملاً مهماً.

قال: أنت تمزح، لكن هذه هي الحقيقة، فأعمال الحفر والتفجير تجرى فى غابة من المكونات المتباينة، وأى خطأ فى التكوين قد يؤدى إلى كارثة.

وضرب مثلاً بمستشفى شرق أسوان الذى أقيم خطأ فوق نوع خطير من الطمى يمتص الماء بشراهة وينتفخ حجمه. ولم يلبث المبنى أن تشقق وانهار بعد أشهر قليلة من بنائه.

حان موعدى مع السائق فودعت صبرى واعداً بالاتصال فيما بعد. نزلتُ إلى حيث كان السائق فى انتظارى، وركبت إلى جواره. سألنى وهو يدير المحرك عما إذا كنت رأيت السد، فأجبت بالنفى. قال إنى سأراه الآن لأنه سيذهب إلى أسوان عن طريقه.

انطلقنا فى طريق مرصوف بين صفين من التلال الترابية والسفوح الجبلية.وبدأ الطريق يضيق، ثم كشف عن انحناءة إلى اليسار. أدار السائق مقود السيارة فى اتجاهها. وظهر أمامنا بغتة أحد جنود البوليس الحربى يشير لنا بالوقوف.

صاح فينا عندما توقفت السيارة أن المرور ممنوع الآن بسبب إجراء تفجير فى المنطقة. فتحول السائق إلى جانب مبتعداً عن الطريق الرئيسى الذى كانت شاحنات الصخور والرمال لا تكف عن عبوره، وأوقف محرك السيارة.

قدَّمتُ إليه سيجارة، وأشعلت واحدة. ومضيت أراقب عدداً من العمال أحاطوا بحامل فوق عجلات تعلوها بكرة. كانت هناك ماسورة عمودية تتدلى من البكرة وتنتهى بعمود يعمل فى حركة متتالية صعوداً وهبوطاً وهو يتقدم إلى أسفل، ينطلق منه صوت أشبه بالحشرجة. وما لبثت أن سرت فى الآلة كلها عدة اهتزازات سريعة، ثم ارتعش العمود وتوقف عن الحركة تماماً. وظهر شئ من البلل عند نقطة التقاء العامود بالماسورة.

سألتُ السائق عن الآلة فقال أنها من آلات التخريم التى تصنع خروماً عميقة فى الصخور توضع فيها أصابع الديناميت.

أخرج العمال العمود. ورأيته ينتهى بقضيب كبير مدبب الطرف. واستبدلوا العمود بآخر أكثر سمكاً تنتهى فوهته السفلى بكرة. وأدلوا العمود الجديد فى

الحفرة. وما لبثت الآلة أن استأنفت العمل ثم توقفت. وارتفع العامود من باطن الأرض، وما إن وصل إلى السطح حتى ابتعد سريعاً عن الحفرة والمياه المشبعة بالطين تسيل من الكرة المثبتة فى نهايته.

لاحظتُ بين العمال وجهاً أجنبياً أدركت انه لا بد وأن يكون روسياً. كان ضخم الجثة مثل الصور المعهودة فى السينما. ويبدو انه كان يرأس المصريين. ورأيت هؤلاء يستعدون للانصراف. وسمعت أحدهم يطلب منهم البقاء. فرد الآخرون بأن موعد ورديتهم قد انتهى. وأنصرف الجميع فيما عدا الروسى الذى واصل العمل بمفرده.

ألقى السائق بعقب سيجارته من النافذة وأدار المحرك قائلاً أنه لا يطيق الانتظار أكثر من ذلك وسيذهب فى الطريق الآخر عبر الخزان القديم. وتراجع بالسيارة مستديراً بمؤخرتها ناحية اليمين حتى أصبحنا على الطريق الرئيسى فانطلقنا من حيث جئنا.

سالت السائق عما إذا كان يقيم فى الموقع . فأجاب بالايجاب.

قلت: ومستريح هناك؟

هز كتفه: أهو أحسن من حتت تانية كتير. بس لو مكنش الحر .. تصور يا بيه بنرش المراتب بالمية علشان نرطب الجو.

سألته كم يدفع إيجاراً لمسكنه فقال إنهم يقيمون فى عنابر مجانية.

وصلنا الخزان فعبرناه إلى الضفة الشرقية. وبعد قليل أصبحنا فى أسوان. كانت المدينة مازالت تستمتع بقيلولة الظهر رغم أن الساعة أشرفت على السادسة. ولحظت لأول مرة الفنادق الضخمة الجديدة فى كل مكان. وكانت كلها مغلقة بسبب الصيف.

انطلقنا فى الشارع الذى يمتد موازياً للنيل حتى ظهر صف من المبانى الحديثة تفصل بينه وبين النهر. وأنزلنى السائق فى ميدان المحطة الهادئ الذى تجمعت أمامه سيارات الأجرة وعربات الحنطور. وتقدمت من كشك فاشتريت علبة سجائر، ثم اتجهت إلى مقهى بجوار المحطة فجلست خارجه، وطلبت من الجرسون فنجاناً من القهوة.

أشعلت سيجارة، وبدأت أرتشف قهوتى عندما التقت عيناى بعينى رجل

طويل القامة يجلس على مقربة. كان يرتدى قميصاً داكن اللون وبنطلوناً رمادياً، وخيل إلى أنه يحدق إلى بدقة. تطلعت إليه بعد برهة فالتقت عينانا مرة أخرى.

تناولت رشفة من قهوتى وأنا أتطلع إلى السماء. ولمحته من ركن عينى يغادر مقعده ويقترب من مكانى. اهتز فنجان القهوة فى يدى. وطارت منه نقطة استقرت على قميصى. ووضعت الفنجان على المائدة.

أصبح الرجل بجانبى وتجاوزنى وواصل السير على الإفريز. جذبت نفساً عميقاً من سيجارتى، ثم أنهيت قهوتى ودفعت حسابى، ثم سرت على مهل فى اتجاه شارع النيل.

لمحتُ ممراً وسط صف من المبانى الحديثة، فاتجهت إليه. توقفت فى مدخله لحظة ريثما تطلعت خلفى، لكنى لم أر أثراً لرفيق المقهى.

اجتزتُ الممر إلى الشارع المطل على النيل. وجلست على مقعد فى مواجهة النهر. كانت الشمس قد غربت لكن الضوء كان ما يزال منتشراً. وتطلعت إلى فندق حديث يجرى بناؤه فوق جزيرة وسط النهر، ظهرت إلى جواره مجموعة من الصخور السوداء الضخمة تتخللها فجوات واسعة.

اقترب منى شاب وفتاة أجنبيان حافيا القدمين، تهالكا بجوارى. وجلسا بصمت يتطلعان إلى النهر.

نهضتُ واقفاً وعدت إلى الميدان. وفى هذه المرة التزمت الجانب الآخر البعيد عن المقهى حتى بلغت كشك السيارات. سألت الناظر عن مكان بيت الشباب، وإذا به فى نهاية شارع صغير إلى جوار المحطة مباشرة.

ألفيت البيت منزلاً صغيراً. قرعت جرس الباب عدة مرات قبل أن يفتح لى صبى صغير، ودون أن يوجه إلى أى كلمة قادنى إلى صالة خافتة الضوء جلس بها رجل ذو عوينات أمام مائدة.

قدمتُ للرجل سيجارة وقلت إنى أريد الاشتراك، فطلب منى أن أدفع جنيهاً.

قلت: والمبيت؟

قال: عشرة قروش فى الليلة على ألا تزيد على ثلاث ليال.

قلت: ثلاث فقط؟ هل يمكن أن أبيت الليلة؟

مال إلى الأمام محدقاً إلى: هذا ليس فندقاً.

قلت: أعرف، وأنا دائماً كنت أريد أن أشترك لكن الظروف لم تسنح لى.

سألنى عن عملى فقلت أنى أشتغل بالصحافة.

قال: لا يمكن أن تبيت قبل أن أعد لك بطاقة الاشتراك، وهذا يستغرق وقتاً.

قلت إنى أريد أن أبيت الليلة.

سألنى: هل معك صورة؟

قلت: كلا . بوسعى أن أحصل عليها غداً.

هز رأسه وتأملنى برهة ثم قال: بيوت الشباب لها رسالة وليست فندقاً.

تجاوزته ببصرى إلى باب بدت منه أسرة خالية متجاورة.

قلت: أعرف، وأنا أطلب منك خدمة.

قال: أعطنى قيمة الاشتراك الآن، وأترك لى بطاقتك، ويمكنك أن تبيت.

وقام إلى خزانة خشبية، فأحضر منها مجموعة من النشرات، وبدأ يحدثنى عن رسالة بيوت الشباب. وأخرجت جنيهاً وبطاقتى وأعطيتهما له.

تأمل صورتى بدقة وقارن بينها وبين وجهى. ثم قرأ البيانات المدونة فى البطاقة. وتوقف عند خانة المهنة الخالية: أنت قلت إنك تعمل ... ؟

قلت: صحفى، لم أكن أعمل عند إخراج هذه البطاقة.

سألنى عن المجلة التى أعمل بها، فذكرت له اسم واحدة، فهز رأسه ببطء وهو يتأملنى من جديد بنظرة فاحصة.

نهضتُ واقفاً وأنا أقول: اتفقنا إذاً. سأذهب لإحضار حقيبتى.

– أين هى؟

قلت: تركتها فى دكان.

سألنى عن السبب فقلت إنها كبيرة الحجم. ومددت إليه يدى مصافحاً وأنا أطلب منه بطاقتى.

قال: اتركها معى. ألست عائداً؟ ونظر إلى نظرة غريبة.

قلت: أجل. وانطلقت إلى الخارج.

كان الظلام قد حل أخيراً. سرت بضع خطوات ثم توقفت. واستدرت عائداً. ثم توقفت مرة أخرى وبعد لحظة تقدمت من باب المنزل وطرقته ففتح لى بنفسه.

قلت: لقد غيرت رأيي. سأبيت فى مكان آخر عند أصدقاء وسأشترك فيما بعد.

قال: ولماذا لم تذهب إلى أصدقائك منذ البداية؟ ما الذى جعلك تغير رأيك؟

قلت: لم أكن أريد أن أثقل عليهم.

أعطانى الجنيه والبطاقة وهو يضحك، ثم أغلق الباب. وقطعت الطريق المظلم بخطوات سريعة وأنا أتطلع خلفى. وعندما بلغت الميدان اتجهت إلى الطريق الذى قدمت منه متحاشياً المقهى. كان حلقى جافاً، والعرق متجمداً على وجهى. وشعرت برغبة جارفة فى حمام بارد وكوب من الشاى.

بحثتُ عن مكتب المحامى الذى تركت به حقيبتى، فأخذتها. وسألته عن فندق رخيص، فدلنى على واحد يحمل اسم "ماجستيك".

تركت شارع النيل وانحرفت فى شارع جانبى إلى اليسار. وتوقفت ريثما نقلت الحقيبة إلى يدى الأخرى. ثم استأنفت السير وبعد خطوات ألفيت نفسى فى سوق مزدحم.

تجاوزتُ سينما متواضعة من دور الدرجة الثالثة. وعثرت على الفندق الذى وصفه لى المحامى. قال لى صاحبه أن السرير فى الليلة بثلاثين قرشاً. وضعت حقيبتى على الأرض وقلت إنى لن أدفع سوى عشرين. واتفقنا فى النهاية على خمسة وعشرين.

نادى صاحب الفندق شخصاً يدعى محموداً. فأقبل علينا شاب أسمر يرتدى جلباباً حمل حقيبتى. تبعته إلى درج متآكل عبر ثلاثة طوابق شبه خالية. وولجنا شقة فى الطابق الرابع كان بابها مفتوحاً على مصراعيه.

عبرنا صالة بها مائدة وكنبة إلى حجرة تضم سريرين ومائدة معدنية ودولاباً صغيراً بمرآة. كانت أغطية الفراش قذرة فطلبت من محمود تغييرها. وفتحت حقيبتى وأخرجت منها منامة وملابس داخلية نظيفة ومنشفة. ثم ذهبت إلى الحمام، وعندما عدت إلى الحجرة وجدت محموداً يغير الملاءات، فطلبت منه أن يحضر لى شاياً.

جلستُ على حافة الفراش. كان جو الحجرة خانقاً. واكتشفت أن الدولاب وضع في مدخل شرفة صغيرة. فقمت إليها وفتحت بابها بصعوبة.

جاء محمود بالشاى، فارتشفته على مهل. وأشعلت سيجارة ثم أطفأت النور واستلقيت على الفراش.

❋

نهضت في الصباح ينتابني شعور قديم بعدم الرغبة في الاستيقاظ. اغتسلت وارتديت قميصاً وبنطلوناً. وانتعلت صندلاً ثم وضعت قبعة من القماش على رأسي، وغادرت الفندق حاملاً كتاب "مايكل انجلو" في يدى.

سرت في حذر بين أكوام التراب والقاذورات حتى بلغت شارع النيل. ابتعت الصحف، واخترت مقهى ظهر به ركن للساندوتشات، فجلست في مدخله.

أحضر لى جرسون غاضب ساندوتشاً رديئاً من الفول، وكوباً من الشاى لا طعم له. أشعلت سيجارة، وطلبت فنجاناً من القهوة. وأخذت نفساً عميقاً من سيجارتى، أحسست بعده بشيء من الدوار.

ناديت على الجرسون ليأخذ حسابه. أعطيته عشرة قروش فرد لى أثنين. سألته عن السبب فقال أن ثمن القهوة ثلاثة قروش. أعطيته قرشاً هبة، فأحتفظ به في يده وهو يتطلع إليه في استهانة، ورفع بصره إلى وقد ازداد وجهه غضباً. أعطيته قرشاً ثانياً وغادرت المقهى.

مشيتُ بتثاقل أبحث عن تليفون في مكان غير مكتب المحامى. وأرشدنى أحد الباعة إلى مكتب التلغراف. طلبت من الموظف أن يصلنى بشركة المقاولات التى تشترك في المشروع. وسألت عن "نبيل"، فرد على شخص قال إنه صديقه وإن نبيلاً غير موجود الآن. قلت له إنى أحمل له رسالة من أمه، وأعطيته عنوان فندقى ليتصل بى.

حاولتُ عبثاً عبور الطريق إلى الرصيف الآخر المطل على النيل. فلم تكن حركة المرور تهدأ لحظة واحدة. وتتابعت أمامى السيارات المختلفة، من عربات الركاب الضخمة إلى الشاحنات، وسيارات الركوب الخاصة. وكانت جميعاً تحمل لافتات القطاع العام أو السد العالى.

تمكنت أخيراً من العبور. وتمهلتُ بجوار فتاة أوربية فى بلوجين أزرق وبلوفر أخضر بلا أكمام، أبرز استدارة كتفيها وضغط على صدرها البارز القوى. كانت قدماها متسختين فى صندل أبيض، تبرز منه أظافر مطلية فى عناية بلون قرمزى لامع. وكانت تضع نظارة سوداء كبيرة، أحاطت بها بشرة خوخية. وإلى جوارها وقف رجل بدين ملتح يرتدى شورتاً ويحمل كاميرا. وكانا مستغرقين فى تأمل الشاطئ المقابل الذى لم يكن يبدو منه سوى الجبال والرمال.

لمحت الفتاة طابوراً من الجمال تتحرك بعيداً بين هضبتين فصاحت بالفرنسية: "فوالا رينيه .. شامو!"

وألتفت "رينيه" على الفور وقد أستعد بالكاميرا ليصور المعجزة المصرية.

بحثت عن النادى الذى حدثنى عنه صبرى، فوجدته بناءً دائرياً من طابقين، يمتد داخل النهر. اجتزت معبراً خشبياً أوصلنى إلى مدخل الطابق الأول. وصعدت درجاً حلزونياً إلى الطابق الثانى الذى انتشرت به الموائد، وأحاطت به أبواب زجاجية عريضة تؤدى إلى شرفة دائرية.

وجدتُ جانباً من الظل فى الشرفة تهب عليه نسمة خفيفه من الهواء. وأحضر لى صبى ممشوق القوام زجاجة بيرة. ملأت كوباً ارتشفته وأنا أتأمل قارباً يتقدم على مهل فوق المياه وقد انتصب شراعه ناصع البياض معترضاً الهواء بقوة.

أعدتُ ملء كوبى وأنا أتابع الصبى يتحرك بين الموائد الخالية يسوى أغطيتها ومقاعدها. لم يكن يتجاوز الخامسة عشرة، وبدا وجهه شاحب البياض تحمل عيناه نظرة متعبة سأمانة.

استرخيت فى مقعدى الواطئ الذى صنع من القش. وأسندت قدمى إلى الحاجز الحديدى المطل على النيل. وفتحت الكتاب الذى تجعد غلافه بتأثير العرق الناتج عن ضغط يدى.

❋

الرغبة الملتهبة فى رسم الجسم العارى. ألا يكون القديسون عراة عندما يصلبون؟ وقالوا إن أجسادنا قبيحة مليئة بالبثور والإفرازات. وقال إنه يحب أن

يجسدها بالصورة التى خلق بها الرب آدم.

❋

لم يكن الجانب المواجه لى يضم شيئاً آخر غير المرتفعات الصخرية التى غطتها الرمال، ولكنى تبينت ما يشبه درجاً ضيقاً يصعد فى الجبل إلى فوهة مظلمة قرب القمة.

أشعلت سيجارة وأنا أطلب من الصبى زجاجة أخرى من البيرة. واحتسيت كوبى وأنا أصعد بعينى المرة بعد الأخرى فوق درجات السلم الرملى حتى الفوهة المظلمة.

❋

شق بسكينه صدر الجثة التى التفت من رأسها إلى قدمها فى ملاءة الدفن. فلا غنى عن معرفة جسم الإنسان من الداخل. والكائنات البشرية يجب ألا تُخترع. وكل قطعة جديدة من النحت يجب أن تتخطى التقاليد القائمة. وأدرك أن الأمر سيكلفه حياته كلها.

❋

تناولتُ طعام الغذاء فى الشرفة. وتلاشى الظل، فانتقلت إلى الداخل. وأحضر لى الصبى مزيداً من المياه المثلجة، وفنجاناً من القهوة. ثم دفعت حسابى وغادرت النادى.

كانت أرض الطريق ملتهبة، تسللت حرارتها إلى قدمى من خلال الصندل. ومشيت بجوار الشاطئ. كان الرصيف الآخر يمتد بحذاء مسجد حديث ارتفعت شجرة فى فنائه. وتطلع نحوى رجل فى قميص وبنطلون وقف مرتكزاً إلى جدار المسجد. لم يكن هناك من إنسان غيره على مرمى البصر. وبدت المدينة هاجعة.

مررتُ بمربع صغير من العشب الأخضر، أرتمى فوقه فتى وفتاة أجنبيان وقد بسطا سواعدهما على مداها. وانحرفتُ فى أحد الشوارع الجانبية المؤدية إلى البلدة القديمة. تطلعتُ خلفى لكنى لم أر أحداً.

مضيتُ من أمام عشرات المحلات الصغيرة التى تبيع كل شئ سوية من

الورق إلى الملاءات والطعمية. لمحتُ مبنى جمعية تعاونية بواجهته الخضراء التقليدية *المؤلفة من عدة أبواب، فولجته. ودفعت عند المدخل ثمن أربع قطع من الصابون، وأخذت* إيصالاً، قدمته إلى أحد الباعة، فأحضر كيساً رص فيه الصابون. ورأيته يسقط قطعة منه على الأرض فى الفراغ الفاصل بينه وبين طاولة البيع. ظننتها زائدة. وعندما وصلت إلى الفندق اكتشفت أنى عدت بثلاث قطع فقط.

أخذتُ حماماً ثم تمددت على الفراش بملابسى الداخلية وأشعلت سيجارة. كان جو الحجرة خانقاً رغم أنى فتحت النافذة، ورحت فى النوم ثم استيقظت على صوت محمود ينادينى. فتحت عينى لأجد شاباً طويلاً أسمر ذا شارب كث يقف فى وسط الحجرة.

اعتدلت جالساً وقال الشاب إن اسمه "عويس" وإنه صديق نبيل.

غادرتُ الفراش وأنا أشعر بدوار. وطلبت منه أن يجلس، فجلس على حافة الفراش دون أن يرفع بصره عن ساعدى وساقى العاريتين.

جذبت منشفتى وملابسى، وانطلقت إلى الحمام. والتقيت بمحمود فى الصالة فطلبت منه أن يحضر لنا شاياً.

قال لى عويس عندما عدت إلى الحجرة إنه حضر ليأخذنى إلى نبيل. سألته عن الوسيلة التى سنذهب بها، فأجاب سيراً على الأقدام.

قلت: إلى السد سيراً على الأقدام؟

قال: كلا. لن نذهب إلى السد، فالمنزل قريب من هنا.

قلت: كنت أظن نبيلاً يسكن فى موقع العمل.

قال: كان فى الأول. ثم أنتقل إلى أسوان من شهرين.

شربنا الشاى ثم غادرنا الفندق. ومضينا فى حوارى ضيقة قذرة. ثم ولجنا منزلاً حديث البناء أقيم على طراز البيوت القديمة.

طرقنا باباً فى الطابق الثانى والأخير. وفتح لنا شاب ممتلئ وسيم أبيض البشرة قدرت أنه نبيل.

قادنا نبيل إلى صالون أنيق تزينه ديكورات خشبية وشلت شرقية. وأستأذن

منا عويس وغادر المسكن. وقال نبيل وهو يجلس أمامى إن عويس يسكن فى المنزل المجاور وهو الذى أقنعه بالانتقال إلى هنا لأن المسكن من أملاك عمه.

أعطيته خطاب أمه وقلت له إننى التقيت بها عند جيران لها من أقاربى. سألنى إن كنت التقيت بزوج أمه فأجبت بالنفى.

فض الخطاب واستغرق فى قراءته. ورحت أتأمل رفاً مزدحماً بالكتب يحمل معظمها اسم عويس بحروف ذهبية . علق نبيل بعد أن فرغ من الخطاب بأن عويس سيأخذ الليسانس بعد سنتين. أما هو فقد فشل فى الحصول على التوجيهية لكنه يذاكر الآن من جديد.

عاد عويس يحمل مروحة كهربائية ولمحت ثلاث قطط صغيرة بيضاء تحاول اقتحام ثلاجة وضعت بجوار الباب. فتح عويس الثلاجة وأخرج إناء من اللبن للقطط وهو يقول: عذبتنا هذه القطط فهى لا تتركنا عندما نريد أن ننام.

قال نبيل: فى السد لا يمكن أن ترى قطة واحدة. وقد كنت أجن من الوحشة فى البداية وهذا ما جعلنى أترك عنابر الموظفين إلى أسوان.

قال عويس إن السد ساعد الكثيرين على بناء حياتهم. وإن ابن عمه كان طالباً فى الكلية الحربية وفصل فجاء للعمل هنا.

لم تصنع المروحة شيئاً للحر الشديد. فاقترح نبيل أن نخرج إلى مكان على النيل. واخترقنا الأزقة إلى الشارع الرئيسى.

رأيت امرأة زنجية اقتعدت الأرض أمام كوم من الفول السودانى فى إناء من الصاج الأبيض. كانت تحيط رأسها بطرحة بيضاء، ويتدلى من أنفها حلق نحاسى. أعطيتها قرشاً فملأت كوزا صغيراً من الصفيح، أفرغته فى كفى، فاشتريت منها بقرشين آخرين لنبيل وعويس.

صادفنا واحدة مثلها بعد خطوات وأمامها إناء الصاج الأبيض الممتلئ بالفول وقال نبيل إنهن يهجرن نيجيريا سيراً على الأقدام ووجهتهن الكعبة. ثم يتساقطن فى الطريق عاجزات عن الاستمرار.

مررنا بمحطة أتوبيس تجمع عندها عدد كبير من السيدات الروسيات.

قلت : حتى الآن لم أرى مصرية واحدة.

قال نبيل: المصريات لا يظهرن إلا فى الشتاء عندما تأتى المدرسات.

قال عويس: هناك بنت أو بنتان فى المحلات الجديدة.

تحولنا إلى اليسار فى طريق صاعد. وولجنا مكاناً مؤلفاً من عدة مدرجات من الخضرة. جلسنا إلى مائدة على حافة إحدى هذه المدرجات. وأصبحنا نشرف على المدينة. وكانت الشمس قد اختفت مخلفة غيمة حمراء فوق الجبل.

أحضر لنا الجرسون زجاجات البيرة. وولج المحل شابان انتحيا ركناً بعيداً. شممت رائحة الحشيش النفاذة تتصاعد من سيجارة فى يد أحدهم. وقال عويس إن الشاب يعمل ملاحظاً بالشركة. وقال نبيل إنه رأى الحشيش أول مرة فى حياته هنا.

قلت: والبنات؟

قال: لا توجد لأحد منا فرصة. هناك كلام عن زوجات بعض السائقين فى حى يسمى السيل لكنه مجرد كلام.

قال عويس بفخر: نبيل ليس ممن يعبثون.

قال نبيل: الفراغ الآن مشكلة لم تكن موجودة فى المرحلة الأولى من العمل.

قلت: لكنك تستطيع النزول إلى القاهرة عندما تريد.

ظهرت فى عينيه نظرة قاسية لم ألمحها من قبل، وقال: فى أول السنة نزلت إلى القاهرة ووصلت إلى المنزل فى الثانية صباحاً، ولم يفتح لى أحد. وفيما بعد قالت لى ماما إنهم جميعاً كانوا قد تناولوا حبوباً منومة. ولم أنزل من يومها.

قلت: كانت والدتك تظن أنى أستطيع الإقامة معك.

رد عويس على الفور: هذا صعب الآن. فالشقة ضيقة، وكان الأمر يختلف لو كان مازال فى الموقع.

قال نبيل: هناك استراحات فى الموقع مخصصة للزوار والصحفيين فلماذا لا تجربها.

قلت إنى سأحاول.

غادرنا المحل في منتصف الليل. وكان طريق النيل هادئاً خالياً من المارة. وفوق شريط من الخضرة يمتد بطوله في الوسط استلقى عشرات من عمال التراحيل الذين يعملون في بناء الكورنيش.

مشينا على حافة الإفريز عند أقدامهم. كانت أجسادهم متلاصقة تعرى بعضها فتبدت أجزاؤها الحميمة للعيان.

افترقنا بالقرب من فندقي. وصعدت إلى حجرتي فأخذت حماماً، ثم أخرجت قلماً وورقة وكتبت قليلاً. قرأت ما كتبته ثم مزقت الورقة.

❋

مشى بين الصخور يطرقها بمطرقته بحثاً عن الشقوق والعيوب والفقاعات. كانت القطع الصلبة تعطى صوتاً كرنين الأجراس، أما المعيبة فكان رجعها بارداً. وكانت هناك صخرة تعرضت للجو فترة طويلة، فتكون لها جلد سميك. وبالمطرقة والأزميل أزال الغلاف ليصل إلى المادة النقية من تحته.

❋

شعرتُ بحركة عند باب الحجرة والتفت، فرأيت محمود يراقبني. سألني إن كنت احتاج إلى شئ فأجبت بالنفي. قمت، فأغلقت الباب وأطفأت النور. واستلقيت على الفراش أدخن في الظلام.

استيقظت متأخراً في الصباح. ورأيت وجهي في المرآة ممتلئاً بالبثور من أثر البعوض. وعندما جاءني محمود بالشاي سألته عن وسيلة لغسل ملابسي. فقال إن هناك غسالة تأتي إلى الفندق كل يوم. جمعت ملابسي القذرة على الفراش وانطلقت إلى الخارج.

سرت إلى ميدان المحطة فلم أجد أتوبيساً واحداً. وقال لي الناظر في تجهم أنه لا توجد سيارات الآن إلى الموقع. سألته عن سيارات الشركة، فقال إنه مسئول فقط عن التابعة للهيئة. أما الشركة فسياراتها تقف عند الجمعية.

عبرت الميدان إلى شارع السوق وسرت حتى الجمعية. وجدت أمامها عدداً من السيارات الكبيرة الخالية من السائقين. وعثرت على أحدهم في مقهى قريب، فقال لي أنهم لا يتحركون قبل ثلاث ساعات. واقترح على أن أذهب إلى كشك الشركة

فى الناحية الأخرى من الميدان.

عدتُ أدراجى وأنا أمسح العرق عن وجهى. عبرت ميدان المحطة مرة أخرى. سرت مسافة بحذاء النيل حتى بلغت كشك الشركة المطلى باللون الأصفر، كان به موظف شاب يقرأ فى أحد كتب الجامعة، وقال لى إنه لا توجد أى سيارات ذاهبة إلى الموقع الآن. ونصحنى بالعودة إلى موقف الميدان.

درتُ عائداً بتثاقل والعرق يسيل من مرفقى. وألفيت الميدان خالياً من السيارات تماماً. ومرت بى عربة حنطور اضطجعت فتاتان أوربيتان فى مقعدها الخلفى. كان وجهاهما شديدى الاحمرار أو هكذا خيل لى، فقد كان كل شئ أمامى مصطبغاً بهذا اللون.

شعرتُ بدوار وجفاف فى حلقى، ولجأت إلى بقعة من الظل تكونت أمام محل حديث لبيع الملابس. ولمحت من الزجاج إحدى البائعات، فولجت المحل. ووقفت أمام فتاة سمراء ذات عينين واسعتين. تأملت عينيها، فابتسمت لى بحذر.

قالت: أى خدمة؟

تطلعتُ حولى، فوجدتها تبيع قمصاناً. اشتريت واحداً وغادرت المحل. ثم ابتعت عدة سندوتشات من الجبن والبسطرمة. وعدت إلى الفندق بصداع حاد.

صعدتُ الدرج بجهد. وبدأت أخلع قميصى على باب الحجرة. ورأيت فوق المائدة ورقة مثبتة بكوب زجاجى سُطر عليها بخط رديء: "الغسالة لم حضرة اليوم".

تمددتُ فوق الفراش بالبنطلون وعينى على الشرفة.

❋

ضربة الأزميل العشواء فى الصخر تحطم بلوراته. والبلورة الميتة تدمر النحت. وتعلم كيف ينحت قطعاً ضخمة دون أن يسحق البلورات، فالصخر هو السيد وليس الرجل. القوة والمتانة فى المادة الصماء لا فى الذراعين والأدوات. وإذا ما ضرب بعنف وجهل، فقدت المادة الغنية الدافئة توهجها وماتت. وأمام التعنيف والهرولة تلتف الصخرة بنقاب حجرى صلب. من الممكن تحطيمها بالعنف، ولكن يستحيل إرغامها على أن تعطى. فهى تستسلم للحنان وتزداد تحت

تأثيره إشعاعا ولمعاناً.

❋

استيقظتُ على لدغات البعوض والعرق والصداع. تناولت الساندوتشات، وبدأت آكل. وخلعت ساعتى التى بللها العرق ولم تكن عقاربها قد تجاوزت الخامسة.

قمتُ إلى الشرفة متلمساً شيئاً من الهواء. لكن رائحة خانقة عفنة كانت تهب من خارجها. انحنيت فوق السياج فرأيت فضلات المجارى تغطى فناء المنزل الخلفى.

خرجتُ إلى بهو السلم، وناديت على محمود ليحضر لى الشاى. ودخلت الحمام. ووقفت تحت الدش عشر دقائق، ثم عدت إلى الحجرة وتناولت مفكرتى. كان العرق قد بللها وأتلف بعض صفحاتها، فجلست فى الصالة وبدأت أنقل ما تلف فى صفحة نظيفة.

أحضر لى صبى القهوة والشاى. وشعرت بدوار من أثر الحر، فقمت أتمشى بين الصالة والغرفة. ثم عدت إلى مقعدى وواصلت الكتابة. وطفق العرق يسيل على ساعدى فيبلل الورق. وأخيراً قمت فاستحممت مرة ثانية. وعندما عدت إلى الصلة وجدت محموداً قد سكب كوباً من الماء على الصفحة الجديدة التى نسختها، فقررت الخروج.

انطلقتُ إلى نادى التجديف. كان به بعض الشبان الذين تمددوا فى خمول على مقاعد الشرفة. اخترت مقعداً فى مواجهة الشاطئ المقابل، واضطجعت فوقه مسنداً قدمى إلى قضبان السياج.

أحضر لى الصبى زجاجة بيرة. وملأت كوباً ارتشفته وأنا أتأمل الفجوة المظلمة فى الجبل والدرجات الضيقة المؤدية إليها وسط الرمال.

❋

كانت محطة الجيزة قد أُخليت لنا تماماً، وهبط عليها سكون شامل لا يقطعه غير صليل السلسلة الوحيدة التى تقيدنا جميعاً، وفحيح القاطرة التى تنتظرنا، وفى مدخل البناء الذى تضيئه مصابيح باهتة، كانت بضع رؤوس تتطلع بفضول ولا تجسر على الاقتراب، وعندما حانت اللحظة، أخذوا يدفعوننا بعنف والقيود تحز فى أيدينا، وصعدنا العربة المظلمة بلا مصابيح أو مقاعد، وظللنا وقوفاً طوال الليل إذا

أراد أحدنا أن يجلس جر الآخرين معه ووقعوا على وجـــوههم، وإذا أراد أن يتبــول سحبهم معه إلى الركن حيث يحفون به عن يمين وعن يسار، والقطار يترك القــاهرة وينطلق إلى الصعيد فى خط مستقيم، ومصر تمتد من أدناها إلى أقصاها من فتحـــات صغيرة، تعترضها القضبان كما فى عربات الكلاب، والشـــريط الأخضـــر يضـــيق باستمرار، وتزحف عليه الرمال، وفى الفجر يرتفع قرص الشمس الأحمر كبيراً فـــوق خضرة نائمة، والمنظر يتكرر دائماً، المبانى الطينية والأنوار الخافتة، ثم المحطـــة بمبـــان متقاربة حولها، ومقهى يحتسى فيه الناس الشاى بهدوء ودعة، يتابعون فى غير مبالاة القطار المظلم الذى لا يتوقف، ثم السجن فى كل مدينة، كتلة صفراء من الظلام بعيون متقاربة صغيرة، يقوم فى نفس الاتجاه دائماً، وتدخله الشمس من نفس المكان فى كـــل مدينة، وتقع على جدران الزنازين فى نفس الموعد، دون أن تفلح فى تبديد البرد الجاثم،

❋

[2]

بدلاً من أن ينطلق الأتوبيس فى الطريق المؤدى إلى الخزان، اتجه يساراً. مررنا بمجموعة من المجمعات الصفراء فى حى ذى طابع شعبى. ثم انطلقنا فى الصحراء بين صفين من أعمدة النور والتليفون.

ظهرت مجموعة من المساكن الحديثة فى الأفق. وأبطأ السائق متسائلاً عما إذا كان أحد يريد النزول فى "كيما" وعندما لم يرد أحد ضاعف من سرعة السيارة. ومررنا بين عشرات من المجمعات الأنيقة، البنية اللون، التى ظهرت أجهزة التكييف فى واجهاتها. كانت مصفوفة جميعاً بصورة متوازية فى زاوية مائلة بالنسبة للطريق.

تلاشت هذه العمارات فجأة كما ظهرت. وامتدت الصحراء أمامنا إلى ما لا نهاية. وتتابعت هياكل الصلب العالية لأبراج الكهرباء على مسافات متقاربة.

أشرفنا بعد ربع ساعة على أفنية مسورة، تضم صفوفاً من الشاحنات الجديدة. كان لونها الأخضر يلمع بقوة فى الشمس. ودرنا برابية صغيرة عليها لافتة تعلن عن موقع للرمال الخشنة. كانت الرمال مكومة خلف اللافتة فى تلال عالية.

برزت تلال من الصخور على جانبى الطريق. كانت متباعدة فى البداية. وما لبثت أن تقاربت، وازدادت ارتفاعاً. وأصبحنا نسير فيما يشبه الممر. وبدا أننا نجتاز

منطقة صلبة صمدت لأعمال الحفر والتفجير.

أبطأت سيارتنا عندما أنتهى الممر، فقد اعترضتنا شاحنة فارغة كانت تمضى ببطء. وانتقلت سيارتنا إلى يسار الطريق لتتجاوزها. وعندما مررنا بجوارها رأيت جانبها محطماً ومقدمتها منزوعة الغطاء.

استوقفنا أحد رجال البوليس الحربى، ثم تركنا نمر. وبرزت أمامنا مئذنة جامع وتحتها جموع من البشر لا حصر لها. وأبصرت اللوحة الشهيرة التى كانت تحدد يوماً بيوم ما تبقى على التاريخ المحدد لانتهاء المرحلة الأولى. كانت اللوحة تحمل عبارات الشكر للعاملين، والدعاء لهم بالتوفيق فى المرحلة الثانية. وكانت الكتابة باللغتين العربية والروسية بتوقيع كل من "عبد الناصر" و"خروشوف".

❋ ❋

الصحف تصل خلسة وتقرأ خلسة، والصورة تخاطب بناة السد، بقى 375 يوماً على تحويل مجرى النيل، بقى 300، بقى 260، وخلف السور الحجرى والأسلاك الشائكة كانت الصحراء محيطة من كل الجهات، لكن قامته الفارعة كانت تتراءى عندها كل صباح، مادّاً البصر إلى أقصاه، كأنما بوسعه أن يسرى، وقال إنه يتمنى أن يشهد ذلك اليوم، لكنه لم يتمكن،

❋ ❋

جاوزت سيارتنا مبنى حديثاً مكوناً من طابق واحد أشبه بمستشفى. وانحنت فى شارع جانبى، وتقدمت بين صفين من الأبنية الحجرية، أقيمت على قاعدة من صخور مرتفعة عن الأرض بمقدار قامة الانسان. كانت جميعها تتألف من طابق واحد يغطيه سقف خشبى فبدت أشبه بالثكنات.

أوقف السائق السيارة وغادرها، فتبعه الركاب. وضعت قبعتى على رأسى وانطلقت خلفهم.

عدتُ أدراجى إلى الطريق الرئيسى الذى تراكم التراب على جانبيه. سرت على اليمين. ومررت بمبنى صغير من طابق واحد، سُويت الأرض أمامه، ورُشت بالمياه، وزُينت ببضع أصص من الزهور. كانت هناك لافتة تعلو المبنى تعلن عن مكتب

المباحث العامة.

ابتعدتُ بقدمى إلى وسط الطريق لأتجنب التراب المتراكم على الجانبين. لكن سيارة مسرعة خلفى أجبرتنى على العودة وسط الأتربة.

توقفتُ عن المسير وتطلعت خلفى. كان هناك طابور من الشاحنات يقترب منى تتقدمه واحدة برتقالية اللون، ترتفع مدخنتها من أمامها كالعلم. وعندما مرت بى ألفيت إطاراتها تتجاوز قامتى ارتفاعاً.

انتقلت إلى الجانب الأيسر من الطريق، لأسير فى مواجهة السيارات. وسرت بحذاء فناء مزدحم بصناديق خشبية كبيرة، تحمل حروفاً باللغة الروسية. انتهى الفناء ببائع طعمية وباذنجان اقتعد الأرض، ووقف بجانبه بائع آخر أمام إناء يتصاعد منه البخار لمحت به حبات البليلة.

شعرت بجفاف شديد فى حلقى. ولمحت منصة صغيرة من الخشب على بعد خطوات بها ألواح من الصفيح. وحولها تجمع عدد من العمال الذين يرتدون القمصان والسراويل، وآخرون من الصعايدة فى الجلاليب والعمائم. وكان بعضهم يشرب الشاى الأسود فى أكواب صغيرة، والآخرون يشدون أنفاس الجوزة وقد اتكأوا على ماسورة سوداء من الصلب.

انضممتُ إليهم، وأعطانى البائع كوباً من الشاى حملته إلى الماسورة، فاستندت إلى جدارها. كان قطر الماسورة يرتفع إلى مستوى خصرى تصدر عنه خشخشة خافتة متصلة. واضطررت بعد لحظة إلى الابتعاد عنها بسبب سخونتها.

انتهيت من كوب الشاى، فأعدته إلى البائع وأعطيته قرشاً. أشعلت سيجارة وجذبت منها أنفاساً بلا مذاق لأنها كانت شديدة الجفاف. وتتبعت الماسورة بعينى فرأيتها تمتد بعيداً وتختفى أحيناً وسط أكوام التراب والصخور ثم تظهر من جديد فى مكان آخر.

نفضتُ صندلى من التراب، وواصلت السير مقتفياً أثر الماسورة. وتوقفت لحظة حتى مرت سيارة جيب ذات طلاء أصفر. ثم اتجهت إلى سياج حديدى تجمع عنده عدد من الناس يوحى شكلهم بأنهم زوار. كانت بينهم سائحة أجنبية، وضعت على رأسها

غطاء مضحكاً، وأسندت الكاميرا إلى عينيها، ومال عليها شاب نوبى يشرح لها شيئاً وهو يشير إلى أسفل.

اقتربتُ من السياج، فوجدته يطل على مساحة واسعة على عمق بعيد. وظهر فى قاعها عدد من الهياكل الحديدية على شكل دوائر، ترتفع منها سلالم حلزونية ضيقة إلى مستوانا. وحول الهياكل وفوق السلالم، كانت حبات كبيرة من الرمال دائبة الحركة. وإلى يمين المساحة، امتدت قناة هادئة المياه، وإلى اليسار كان هناك مبنى مرتفع فى قمته هيكل أحمر اللون على شكل جواد مستقيم الخطوط.

انتبهتُ إلى شخص أنيق ذى ملابس كاملة وقف إلى جوارى مباشرة. كان يغطى حذاءه بغطاء من الجلد يصعد إلى ركبتيه فيحميه من التراب. وإلى جواره وقف شاب فى قميص وبنطلون يتحدث مشيراً إلى المعالم المختلفة حولنا وهو يردد كل برهة: "شوف سيادتك". وفهمت من حديثه أننا نطل على محطة الكهرباء، وأن الدوائر الحديدية ستحتوى التوربينات. وكانت القناة هى المجرى الجديد للنيل، أما المبنى المرتفع فهو بوابات الأنفاق التى تعترضه.

أمسكتُ حافة السياج بيدى، وانحنيت إلى أسفل. كان هناك طريق مرصوف يتلوى صاعداً من قاع المحطة ويختفى وراء مرتفع على يمينى. وتحت قدمى مباشرة انحدر حائط من الأسمنت المستوى السطح إلى قاع المحطة بصورة شبه عمودية.

شعرتُ بشخص يدنو منى. والتفت لأجده صعيدياً باللفافة التقليدية حول رأسه يرفع طرف جلبابه الأبيض ويدسه فى سرواله. ثم مرق من تحت السياج واستدار يواجهنى وقد أصبحت قدماه على حافة الهوة. تلمس بقدميه ماسورة عمودية تمتد مع الحائط إلى القاع. ثم انحنى وأمسك بها بكلتا يديه، وبدا يهبط وهو يتطلع إلى باسماً.

تابعته ببصرى وهو يبتعد ويتضاءل. ولم أعد أتبين ملامح وجهه، وإن كنت مازلت أرى جسمه حتى صار نقطة بيضاء نائية. واستقرت النقطة أخيراً فى القاع وسرعان ما تلاشت بين مئات النقاط الأخرى.

ابتعدتُ عن السياج، وسرت إلى جواره حتى أصبحت هوة المحطة على

يمينى، وبوابات الأنفاق على يسارى. وأشرفت فجأة على حافة منخفض امتلأ بالصخور المبعثرة، وتجمعت فيه عدة شاحنات فارغة. كانت هناك حفارة ضخمة احتمى بظلها عدد من العمال. وكانت ذراعها الطويلة مدلاة، واستقرت كباشتها الكبيرة على الأرض. وفوق الكباشة وقف أحد العمال يعالج شيئاً فى طرف الذراع الذى ينتهى ببكرة.

كانت الناحية المواجهة لى من المنخفض مفتوحة تتجه إليها مقدمات الشاحنات، ووراءها امتدت سلسلة من التلال الصخرية التى لم يمسها أحد بعد. أما جوانب المنخفض الأخرى، فكانت تحمل آثار المرحلة الأولى بوضوح.

بحثتُ عن الماسورة التى كنت أقتفى أثرها فوجدتها قد اختفت من جديد. تلفت حولى أتأمل الأرض بعناية، وسمعت صوتاً يقول: ماذا ضاع منك؟

التفت خلفى فرأيت "سعيداً" يصوب إلى كاميرا، ويضغط عليها بإصبعه، ثم ينحيها عن وجهه، ويدير الفيلم. تقدم منى فاتحاً ذراعيه لنتعانق. وكنت قد مددت يدى إليه فتصافحنا.

هز يدى بقوة وهو يعجب للمصادفة التى جمعتنا بعد سنوات طوال. وسألنى عما جاء بى فقلت: ما الذى جاء بك أنت؟

دفع صدره إلى الوراء قائلاً: أنا أمرى مفهوم. السد العالى يستقبل الفيضان. تقرير مصور من موقع العمل. قضى سعيد عبد الرحمن أياماً طويلة، شارك فيها العاملين حرارة الصيف ومتاعبه. فهمت الآن؟

تطلع إلىّ فجأة وقد بدأ كأنه تذكر شيئاً، ثم صوب إصبعه إلى صدرى قائلا: أنت كنت. . .

وأومأت برأسى .

هز رأسه فى وجوم، ثم أستعاد مرحه وقال: أما أنا فقد أصبحت أصغر مدير تحرير فى الصحافة المصرية. وتزوجت وأنجبت ولدين. وصار عندى سيارة نصر 1300 سأدفع آخر أقساطها الشهر القادم.

دقق النظر إلى مرة أخرى ثم قال: مازلت كما أنت لم تتغير.

قلت: أما أنت فقد امتلأ وجهك وترهلت. وشبكت ساعدى فى ساعده مضيفاً: تعال نبحث عن الماسورة.

– أى ماسورة؟

– ماسورة ضخمة هنا ممتدة إلى كل مكان، لا أدرى هل هى عدة مواسير أم ماسورة واحدة .

قال: آه هذه غالباً مواسير التجريف التى تنقل الرمال إلى السد، وهى عدة مواسير متصلة ببعضها، ولا تنقل سوى الرمال الناعمة.

سرنا ونحن نتبادل الذكريات. ومررنا بجندى بوليس حربى ذكرنا بحرس الجامعة.

قلت: هل تذكر الليلة التى قضيناها فى قسم البوليس؟

انفجر ضاحكاً وقال: وجعلنا ندق الجدران ونقول إننا محتجزون بلا قانون وإننا نريد النيابة، تصور.

تذكرنا أستاذ القانون الدستورى الذى كان مُصراً على الاحتفاظ بطربوشه رغم أن الثورة ألغت الطرابيش، وكان يحاضر بلهجة فخمة ضاغطاً على مخارج الألفاظ ونهايات الجمل كأنه يتكلم في البرلمان.

قال سعيد: لقد رأيته أخيراً بلا طربوش ثملاً مهدماً.

بلغنا مساحة واسعة من الأرض تتدرج فى مستويات على الجانبين. وكان بعض هذه المستويات يتألف من أكوام من الصخور، وبعضها الآخر من الرمال. وفوقها انتشرت عشرات الشاحنات والآلات المتحركة الأخرى.

توقف سعيد بعد قليل، ودق الأرض بقدمه قائلاً: نحن الآن فوق جسم السد. طوال آلاف السنين كان النيل يجرى هنا.

سرنا مسافة على جسم السد وكانت السيارات المحملة بالأتربة والرمال تأتى فى اتجاهنا، ثم تنحرف إلى اليسار وتهبط إلى أحد المستويات الجانبية. وأعلن سعيد بعد فترة من الوقت أننا أصبحنا على الشاطئ الغربى للنيل، وأشار إلى مبنى بعيد من عدة طوابق قائلاً إنه مقر الهيئة حيث يوجد الوزير المصرى وكبير الخبراء السوفييت.

كنا نشرف على طريق مرصوف يمتد أفقياً إلى مبنى الهيئة. وأدركت أننا نقف فى نفس المكان الذى بلغته بالسيارة منذ يومين، وعاقنى التفجير عن اجتيازه.

تحولنا يساراً وانطلقنا وسط الأتربة والصخور. وتكاثرت الأخيرة فجعلت المسير صعباً. لمحت الماسورة السوداء الضخمة فاعتليتها واقتدى بى سعيد. ومشينا فوقها، يأتينا صوت ارتطام الرمال بجدرانها.

بدأت أشعر بدوار من شدة الشمس. وتوقفت أجفف عرقى، ومر بنا روسى يرتدى خوذة معدنية، ويتدلى من كتفه ترموس كبير الحجم.

قلت: يا سلام لو كان لدينا الآن كوب من الشاى أو زجاجة كازوزة.

قال سعيد: كل شئ سيأتى فى وقته. لا تتعجل. وألقى نظرة على ساعته ثم أضاف: هناك تفجير بعد نصف ساعة وسألتقط بعض الصور .. هل تأتى معى؟

قلت: لا بأس، مادمت سأشرب شيئاً.

قفزنا على الأرض عندما أوشكت الماسورة على الاختفاء خلف كوم من الأتربة. ومررنا بمجموعة من العمال انحنوا بأجهزة اللحام أمام شبكة من الأسلاك المعدنية. ثم اتجهنا صوب كشك خشبى يعلو مرتفعاً قريباً.

سألنى سعيد عن المدة التى أزمع قضائها فى المنطقة.

أجبت: إلى أن تنتهى نقودى.

قال إنه لا يتكلف شيئاً لأنه يقيم فى استراحة تابعة للشركة. ولكنه سيعود للقاهرة فوراً بعد أن يسجل استقبال السد لمياه الفيضان.

رأينا علماً أحمر صغيراً يرتفع عن الأرض بشبر، وقد ثُبت إليها بعمود تسنده ثلاثة قضبان مائلة ودائرة من الأحجار الصغيرة. كان العلم يحمل رسماً يتألف من جمجمة وعظمتين متقاطعتين. وكان ثمة أعلام مماثلة حولنا تمتد منها خراطيم زاهية الألوان.

بلغنا المستوى الذى يعلوه الكشك. وكان يقف خارجه شاب أسمر مدكوك البنية، كشف قميصه المفتوح عن صدر كثيف الشعر. كان يتطلع إلى منخفض هائل فى الناحية الأخرى بدت فى قاعه شاحنات وحفارة وعدد من العمال.

أدار الشاب بصره فرآنا. وتأملنا في غير اهتمام حتى لمح الكاميرا المعلقة في كتف سعيد.

ابتدرنا عندما دنونا منه: الأساتذة صحفيون؟

أومأ سعيد بالإيجاب. فقال إن اسمه "فوزي"، وإنه مهندس تفجير. ورآني أتطلع إلى داخل الكشك فدعانا إلى الدخول.

بدا داخل الكشك الذي كان بمنأى عن الشمس مشبعاً بالرطوبة المنعشة. جلسنا على مقعدين يواجهان المكتب الذي استوى الشاب خلفه. وصاح منادياً على شخص يدعى حسين وهو يسألنا عما نحب أن نشرب.

نظر سعيد إلى وابتسم. وقلت إني أفضل شيئاً مثلجاً.

جاءتنا الليمونادة على الفور. وقال فوزي ونحن نحتسيها: الصحافة لا تهتم بنا أبداً رغم أن عملية التفجير هي الأساس الذي قام عليه السد.

قال سعيد: ولهذا جئنا. وخلع كاميرته عن كتفه وأخرجها من علبتها، ثم جعل يعبث بعدستها. وتابع فوزي باهتمام حركة أصابعه، ثم ألقى نظرة على ساعته ووقف قائلاً: حان الوقت.

تبعناه إلى خارج الكشك. واعتمدنا على حاجز حديدي يطل على المنخفض. وهناك كان العمال ينزعون أعمدة النور بسرعة، بينما الشاحنات تقوم بمناورات معقدة لتغادر المكان، وتبعتها الحفارة.

دوت صفارات إنذار فجأة. وبدأ المنخفض يخلو من الناس. وجرى البعض، وقفز غيرهم في سيارات مسرعة. دوت صفارة جديدة. واعتمد سعيد على الحاجز بمرفقيه، ورفع الكاميرا إلى عينيه. والتقط صورة الرجل الوحيد الذي ظل مكان التفجير. كان يلوح بيديه للآخرين، ثم قفز في سيارة كبيرة مرت من أمامه دون أن تتوقف. ولحقت السيارة بعدد من الرجال الذين كانوا يجرون فقفزوا إليها وتعلقوا بجانبيها. وما لبث الموقع أن خلا تماماً. ولم يعد به رجل واحد أو آلة واحدة. ثم دوت ثلاثة انفجارات صغيرة متعاقبة. وأخيراً انفجر الجبل.

ارتجت الأرض من حولنا. وأمسكت بالحاجز في قوة. طارت بضع صخور

فى الهواء. وتصاعد الغبار فى سرعة فحجب المكان كله. وعندما طاولت ألسنته السماء شرع يزحف نحونا منتشراً فى كل اتجاه.

التقط سعيد عدة صور متعاقبة للغبار وسفح الجبل المتلئ بالشقوق والبروزات من أثر التفجيرات السابقة. وتابع فوزى حركة الكاميرا فى يده. وعندما اتجهت نحوه اعتدل فى مكانه، وتحركت عيناه بسرعة، وابتسم ابتسامة عريضة. ولكن سعيد تجاوزه بالكاميرا والتقط صورة مبنى الهيئة الذى كان يبدو صندوقاً صغيراً على مبعدة. وتابع فوزى الكاميرا ببصره ويده تسوى حافة قميصه. وإذا بسعيد يخفض الكاميرا فجأة شاكياً من قوة الشمس. واتجه إلى الكشك يتبعه فوزى.

كانت سحابة الغبار التى أثارها التفجير قد بدأت تخف. وانقسمت أولاً إلى عدة مساحات متفرقة. ثم جعلت تتمدد، وكثافتها تخف نتيجة لذلك حتى أوشكت أن تتلاشى. وتجلى الموقع من جديد وقد انتشرت فى أرجائه فتات الصخور المختلفة الأحجام.

لمحتُ الحفارة تتقدم عائدة إلى موقعها فى قاع المنخفض. وخلفها جاء طابور من الشاحنات الفارغة وسيارة أخرى تحمل عدداً من العاملين.

رأيتُ شبه طريق على يمينى يهبط إلى أسفل. فانحدرت فوقه مسافة حتى انتهى بلسان مدبب من الصخر. جلست فوق اللسان، فأصبحت أشرف مباشرة على موقع التفجير.

راقبتُ الجنزير الحديدى للحفارة وهو ينزلق فى صعوبة حتى توقفت أمام سفح المنخفض الذى تناثرت فوقه الصخور. وأحاط بها عدد من العمال بدت أحجامهم ضئيلة أسفل ذراعها. واختفى أحدهم داخل صندوقها. وما لبث هذا أن دار على محوره فوق الجنازير ودارت معه الذراع الطويلة التى تنتهى بكباشة كبيرة الحجم.

صدر عن الحفارة صوت أشبه بالزمجرة. وصرت تروسها. ثم توقف صندوقها عن الحركة. واحتكت الكباشة بالأرض فارتدت إلى الوراء، واهتزت الآلة كلها تبعاً لذلك.

تراجعت الكباشة إلى الخلف حتى أوشك قاعها أن يلتصق بالصندوق، بينما اتجهت حافة أسنانها إلى الأرض، وهجمت الكباشة لكنها أخطأت الهدف، فارتدت

إلى الوراء لتعاود الهجوم. وفى هذه المرة أصابت كوم الصخور، وصعدت فيه. واستقرت فيها بعض قطع الصخور، بينما تدحرجت على جانبيها قطع أخرى كبيرة الحجم.

دار صندوق الحفارة فجأة إلى اليسار دورة سريعة حملت الكباشة فى الهواء حتى صارت تطل على مؤخرة شاحنة. وتبدت فى الصندوق فتحة جلس خلفها السائق يحرك المقابض. وتقدمت الشاحنة بمؤخرتها فى حذر حتى أصبحت فى متناول الكباشة.

تحركت الكباشة حركة بسيطة حتى أصبحت فوق الشاحنة مباشرة. وتوقفت لحظة فى الهواء تتأرجح قليلاً، ثم انفرج فكها السفلى وسقطت الصخور مرتطمة بقاع السيارة فى ضجة، واهتزت الشاحنة الروسية الضخمة فى عنف.

❋ ❋

رفع "أفاريوس" لوحاً من الصخر أُنتزع من جانب الجبل. بيت "أوفيد" الذى أثار انفعال "مايكل انجلو". معركة "السنتور". الكائنات الأسطورية التى نصفها إنسان ونصفها جواد. لكنه لم يكن بعبأ بالأساطير. كان الواقع هو الذى يجتذبه. أقصى ما يمكن إدراكه من الواقع. وعندما شرع ينحت، كان قد ترك موضوع المعركة الأصلية وأصبح الصخر هو موضوعه. لقد عاش الإنسان ومات بالحجر. وتحول عشرون رجلاً وامرأة وسنتوراً إلى جسم واحد، يعبر عن الطبيعة البشرية المتعددة الجوانب. حيوانية وإنسانية، أنثوية وذكرية. وكل جزء يحاول أن يدمر الأجزاء الأخرى.

❋ ❋

سمعتُ صوت سعيد ينادى. التفت، فرأيته يدنو منى بحذر فوق الصخور. وجلس بجوارى فوق اللسان الصخرى، وبدأ يلتقط بعض الصور.

كانت الكباشة رائحة غادية بين كوم الصخور والشاحنات المتتابعة. كلما تم تحميل أحدها. صدرت زمارة قوية عن الحفارة، دار صندوقها على أثرها حول نفسه. وعادت الكباشة خفيفة سريعة لمكانها وسط الصخور، بينما تنطلق السيارة بتثاقل إلى خارج المنخفض. وتأخذ شاحنة أخرى مكانها على الفور. كانت الكباشة تنفصل أحيانا عن الجبل دون أن تمتلئ جيداً، أو بعد أن تسقط منها حمولتها، فتعود

من جديد بإصرار. وأحياناً أخرى كانت تعجز عن تفريغ حمولتها فوق السيارة، فتعود إلى الجبل وتسقطها هناك لتحمل غيرها.

توقفت الكباشة فجأة عن الحركة. وتدلى فكها يروح ويجيء في حركة متتابعة، ولمحت السائق يرفع زجاجة إلى شفتيه. وشرع عدد من العمال يكومون الصخور بفؤوسهم المعدنية أمام الحفارة.

هب سعيد واقفاً مقترحاً الذهاب، فقمت وراءه. وسألني ونحن نشق طريقنا بين الصخور: أين ستذهب الآن؟

قلت: سأعود إلى فندقي.

– وتأتى هنا كل يوم؟ هذا مريع.

قلت: وما العمل؟

فكر قليلاً ثم قال: ربما أمكننى أن آخذك معى في الاستراحة.

قلت: أين؟

– هنا في الموقع. غرفتي واسعة وبها ثلاثة أسرة. اسمع .. سأنزل معك الآن إلى أسوان وبالليل نرتب كل شئ.

جعلنا نتلفت حولنا بحثاً عن وسيلة ركوب. وأقبلنا عند منحنى على أتوبيس كبير خال من الركاب. كان محركه دائراً، وقد وقف السائق بجواره. وعندما أردنا الركوب منعنا قائلاً أن هذه السيارة مخصصة لمهندسي الشركة.

لمح سعيد بوكساً رمادى اللون من طراز فورد تغطيه خيمة من القماش، كما هو شأن سيارات الشرطة. كانت السيارة تهم بالمسير فهتف بى وجرينا إليها. وعندما أردنا أن نقفز إلى مؤخرتها، منعنا رُكابها، وصاحوا بالسائق أن ينطلق. لكن الأمر التبس على السائق، فأوقف المحرك، ودار بيننا وبينه جدل طويل انتهى بأن وافق على أن يأخذنا معه.

قفزنا فوق حافة السيارة. ولم نجد مكاناً شاغراً على المقعدين الطويلين المتقابلين الذين احتلهما عدد من العمال، فاقتعدنا الأرض.

❋❋

أمرونا أن نقتعد القرفصاء، ونحني رؤوسنا حتى لا يرانا أحد في الطرقات، وفي هيم الليل انطلق موكب اللوريات إلى قلب القاهرة القديم، وهواء يناير القارص يضرب آذاننا، وبدأ الطريق يصعد إلى أعلى، وفي الظلام ظهرت مباني القلعة شامخة تشرف علينا كما تشرف على المدينة كلها، وقال أحد ذوي التجربة إن في القلعة معتقلاً أنشأه الإنجليز ولم يستخدم من أيامها، ودخلنا واحداً بعد الآخر من فتحة صغيرة في بوابة خشبية ضخمة، ولأن المكان من مخلفات الاستعمار كانت فيه أسرة مريحة، وأنبأ الهواء بأننا على ارتفاع كبير، وقال حسين إنهم أخذوه من حفل زواجه، فقال آخر إنه كان سيتزوج الأسبوع القادم، ورقدنا في صفين متقابلين نتطلع إلى الجدران العالية والكوات المسورة في أعلاها، ولعلها كانت القاعة التي شهدت مذبحة المماليك، عندما أتوا بالملابس الرسمية لشرب القهوة، وعندما استعدوا للخروج ليسيروا في موكب السلطان، أغلقت الأبواب، وذبحوا جميعاً عن بكرة أبيهم، وفوق ممشى يشرف على ميدان المذبحة جلس "محمد علي" يدخن النرجيلة ، وقبلها كان يتبادل الزيارات العائلية مع زعيمهم شاهين بك،

**

بلغنا أسوان، فغادرنا السيارة أمام فندق "جراند أوتيل". وافترقنا على أن نلتقي بالليل، فولج سعيد الفندق بينما مضيت أنا إلى السوق.

اشتريت عدة ساندويتشات واتجهت إلى فندقي. ونادى عليّ صاحبه وأنا أصعد قائلاً إن شخصاً سأل عني.

توقفت عن الصعود سائلاً: مين؟

قال: ما رضي يقول اسمه.

قلت: طب مقالش عاوز أيه؟

– هو سأل امتى جيت ونازل في أي أوده، وهل معاك حد.

سألت: طيب شكله أيه؟

قال: أفندي بقميص وبنطلون وله شنب تخين.

استأنفت الصعود حتى بلغت حجرتي. استحممت وأكلت الساندويتشات دون شهية حقيقية. ونمت على الفور.

استيقظت فى السادسة، واستحممت مرة أخرى. ناديت على محمود فأحضر لى الشاى. جمعت ملابسى المتناثرة ورتبتها فى حقيبتى، ثم ارتديت القميص والبنطلون ومشطت شعرى ثم وضعت المشط فى الحقيبة. وأصبحت جاهزاً للانتقال إلى الاستراحة فيما لو نجحت مساعى سعيد.

❋❋

قال له أساتذة القصر إن موضوعه الأول يجب أن يكون إغريقياً من أساطير اليونان. لكنه كان يعرف عن يقين أن موضوعه الأول لا يمكن أن يأتى من أثينا أو مصر أو روما أو حتى بلدته فلورانسا، وإنما من داخله هو. شيئاً ما يعرفه ويشعر به ويفهمه. واختار "المادونا والطفل". فى كل اللوحات التى رآها من قبل، كانت العذراء تبدى الدهشة التامة عندما ابلغها جبريل بنبأ الحمل. فهل يعقل أنها لم تكن تعرف، وأنها لم تكن تملك حرية الخيار لترفض؟ وقرر أن ينحتها وهى ترضع طفلها مدركة المصير الذى ينتظرهما.

❋❋

أشرفت الساعة على الثامنة عندما بلغت فندق جراند أوتيل، دفعت بابه الدوار. وتجمدت بين إحدى الفجوات الفاصلة بين مصاريعه حتى قذف بى إلى الداخل. ورأيت سعيداً مضطجعاً على مقعد فى صدر البهو بالقرب من مروحة كهربائية مثبتة على عمود.

قال وأنا استقر إلى مقعد بجواره: جاءك الفرج يا عم. يمكنك أن تنقل حاجياتك الآن إلى قصرى. فراش وغسيل وثلاث وجبات يومياً دون مقابل.

أحضر لى الجرسون زجاجة بيرة. وقال سعيد إنه التقى فى الظهر بوكيل الوزارة وحدثه عنى فقام إلى التليفون واتصل بالشركة. ورحبت باستضافتى لأنها تريد تحسين العلاقات مع الهيئة، كما أنها تهتم بالدعاية لنفسها أكثر من بقية الشركات الأخرى المشتركة فى المشروع.

سألته عن السبب فقال أنها تدخل معركة حياتها ليستمر إعفاؤها من التأميم بعد انتهاء السد، ولذلك تقوم ببناء فيلات فخمة لكبار رجال الحكومة بأسعار بخسة لا يتصورها عقل.

قلت إن الانتقال إلى الاستراحة مشكلة الآن، لأن سيارات التاكسي تتقاضى أكثر من جنيهين في هذه الرحلة.

قال: صبرك. سنجد حلاً.

تأملت الجدران التي وشت بقدم المبنى. وكانت هناك بضع مراوح كهربائية تتدلى من السقف، وأخرى فوق أعمدة من الصلب في الأركان.

قال سعيد: كان بودي أنزل في فندق "كتاراكت" الذي كان ينزل فيه الملك. لكنه للأسف مغلق الآن.

وتطلع حوله ثم أضاف: الجو اليوم هادئ فلا أثر لبنت.

لم يكن عدانا في البهو سوى عجوز أوربي جلس في الركن. وكانت هناك قاعة مجاورة مضاءة بدت خالية. ومع ذلك كان صوت التليفزيون يصدر عنها. وخيل إلى أنه يدور على الفراغ. لكني ما لبثت أن سمعت صوت تصفيق. وظهر مهندس التفجير على بابها. وجعل ينادي بغضب على الجرسون طالباً زجاجة بيرة.

لمحنا فتطلع برهة دون أن يبدو عليه أنه عرفنا، ثم حيانا. وهمس لي سعيد: أخشى أن يكون قد رأى الكاميرا.

اختفى فوزي في القاعة الداخلية. ثم ظهر من جديد حاملاً زجاجة بيرة في يد وكوباً في الأخرى. واقترب منا سائلاً إن كان يستطيع الجلوس معنا. قربت مقعداً تهالك فيه وهو يضع الزجاجة على مائدة مجاورة. وأدركت من حركاته إنها ليست أول زجاجة يشربها الليلة.

أفرغ كوب البيرة في فمه وقال: لقد ضقت ببرامج المحطة السخيفة. أتعرفان أن شخصاً واحداً هو الذي يعمل فيها؟ ينزل من بيته كل ليلة بالقبقاب ليدير الأشرطة التي تأتيه من القاهرة.

وملأ كوباً جديداً: ولكن ماذا نفعل. ليس هناك وسيلة أخرى لقضاء الوقت.

سمعنا دقات متلاحقة فوق الدرج، فتحولنا نرقب فتاة أوربية تهبط فى رشاقة، وفستانها الواسع القصير يحلق حولها فى كل درجة، فيكشف عن فخذيها. جعلت تنقل بصرها بين وجوهنا ودرجات السلم وهى تبتسم لنفسها حتى بلغت نهايته. وتهادت أمامنا تتبعها عيوننا حتى اختفت بين مصاريع الباب الخارجى.

قال سعيد وعيناه حائرتان بين مدخل الفندق والدرج المؤدى إلى الطريق العليا: أروع شئ هو اكتشاف نفق جديد.

أنفجر فوزى ضاحكاً، ثم سألنا إن كانت هذه أول زيارة نقوم بها للسد.

قال سعيد إنها الرابعة. وقلت إنها الأولى.

-لم تشهد المرحلة الأولى إذن؟

هززت رأسى نافياً.

**

الحارس الملول فى سترته الصفراء، يقرع القضبان الحديدية بمفتاحه، وننطلق فى طابور ينوء بحمل جرادل البول لتفريغها، ثم نعود بجرادل المياه لملئها، والتفتيش الدقيق بحثاً عن ورقة أو قلم أو جريدة، ثم يتتابع صوت المفتاح وهو يدور فى أقفال الزنازين، يحبس فى كل زنزانة جانباً من ضجة العنبر حتى يسود الهدوء التام، ونجلس على الأرض مستندين بظهورنا إلى الجدران المثلجة، نتابع من قضبان الكوة الصغيرة ضوء الغروب وهو يتلاشى بسرعة، والليل طويل طويل، لكنه مهرب من نهار ملىء بالمفاجآت،

**

سمعت فوزى يقول: ليس ما يحدث الآن شيئاً. السد كان فى المرحلة الأولى.

مسح أثار من رغوة البيرة البيضاء ظهرت على فمه وقال: كنا نخرج فى الصباح دون أن نعرف إذا ما كنا سنعود فى نهاية اليوم، فكثير ما كان الجبل ينهار فجأة ويدفن تحته العشرات. أما الآن فقد ألفنا الجبل ولم تعد هناك أخطار المرحلة الأولى.

ظهرت فتاة الدرج عند الباب، ودلفت إلى البهو، ثم توقفت أمام طاولة قريبة، وجعلت تقلب ما عليها من مجلات مصورة، ثم اتجهت إلى البار.

مال على فوزى وهو يهز إصبعه فى وجهى: لا تظن أننا لم نكن سعداء فى المرحلة الأولى. لم نكن نملك وقتاً للتفكير، لا فى عائلاتنا أو فى المستقبل أو النساء. كان لدينا عمل واضح محدد هو هدم الصخور، ثم نقلها وإلقاؤها فى النهر حتى تعترض مجراه. وكان هناك هدف محدد هو سد النيل وفتح القناة الجديدة فى آن واحد. كان النهر يعج بالحركة والحماسة طول الوقت. الجميع يتسابقون للحاق بيوم 14 مايو 1964، وجميعهم على استعداد للتضحية بحياتهم ببساطة.

❋❋

ساعات الظلام الطويلة نلوك فيها حكايات معادة، ومحاولة تسرداد تشسيد قلتم تثير الضحك، لأن كل شئ تغير، وفى الماضى كانت الجدران تهتز من الإيقاع، ويعتلى نزلاء الطوابق الأخرى أبواب زنازينهم ليوجهوا تحية المساء إلى زهرة شباب الحركة الوطنية، أما اليوم فبلادنا أصبحت حرة، وليس هناك غير صيحات استنجاد بالحارس من إحدى زنازين الطابق الأرضى التى حشد بها صغار النشالين واللصوص، ويأتى صوت الحارس من أقصى العنبر مطالباً بالهدوء وبأن يستسلم كل صبى لما يراد به، لكن الصيحات تستمر، وتدور معركة تنتهى بالنهاية المحتومة،

❋❋

كان فوزى يواصل الحديث: يوم التحويل مثلاً كان يوماً هائلاً. كنا سنجن من الحماسة. وكان هناك سدان مؤقتان من الرمال فى طريق القناة الجديدة. كان لابد من نسفهما أولاً حتى تنطلق المياه من القناة، وعندئذ تغلق آخر ثغرة فى السد. وانفجر السد الأمامى، ولكن الخلفى لم ينفجر، وأصبح كل شئ مهدداً فى دقائق. فقد كان بوسع المياه أن تجتاح أساس محطة الكهرباء وتدمر السد الرئيسى.

ملأ كوباً جديداً من البيرة، أفرغه عن آخره. ومسح فمه بظهر يده.

– كنت أنا المسئول عن تفجير السد الخلفى. وأدركت أنه لابد من الغوص فوراً، لمعرفة السبب بالرغم من أن الديناميت قد ينفجر فى أى لحظة، فخلعت ملابسى وغصت. ووجدت الأسلاك مقطوعة فربطتها.

ظهرت فتاة الدرج من جديد عند البار وهى تثرثر مع مصرى أنيق صحبها

إلى الخارج. ودار باب الفندق قاذفاً فتاة أخرى متوردة الوجه ترتدى شورتاً قصيراً. تهالكت على مقعد أمامنا مادة ساقيها. واستقرت نظراتنا على فخذيها المتلئتين. كان بياضهما مشرباً بحمرة الشمس يمر بتلك المرحلة السابقة على السمرة.

لم يبد على فوزى أنه رأى شيئاً من هذا كله. وتركزت نظراته على زجاجات البيرة كأنما كان يعدها. وأوشك أن يغضب عندما جاء الجرسون يجمع الزجاجات الفارغة. وتبدت عيناه شديدتي الاحتقان.

قال: لا أظن أن فى إمكانى أن أفعل شيئاً كهذا الآن. لا اعرف لماذا. ربما لأن العمل تغير فى المرحلة الثانية. أصبح فى أماكن متباعدة. ولم نعد نتركز فى مجموعات كبيرة، فنوقد حماسة بعضنا بعضاً.

ولج البهو أربعة شبان صاخبين انضم أحدهم إلينا. وقدمه فوزى إلينا على أنه من مهندسى الشركة الأخرى التى تتولى أعمال الخرسانة. ثم استطرد: ربما كان السبب أننا تبينا الكثير من أخطائنا فى المرحلة الأولى، وأدركنا أنه كان بوسعنا تلافيها، وتلافي كثير من الضحايا والخسائر.

استفسر مهندس الخرسانة عن موضوع الحديث. وقلت إننا نعقد مقارنة بين المرحلتين.

قال: العمل الآن أصبح فنياً أكثر ويحتاج إلى دقة متناهية. لم تعد المشكلة من هو أسرع فى النقل أو من ينقل أكثر من غيره.

قال فوزى: هذا صحيح. نحن الآن نقوم بتوسيع مدخل القناة، لتستقبل مياه الفيضان. وهذه العملية تستلزم تفجير الصخور على جانبى القناة بدقة متناهية حتى لا تسقط فى المجرى وتسده، فيرتفع الفيضان مرة واحدة.

قال مهندس الخرسانة: لكن العمل الآن فقد لذته.

قال فوزى: الآن لدينا وقت أكثر للتفكير.

سألته: فى ماذا؟

أجاب: فى أشياء كثيرة. مثلاً هل كانت كل ضحايا المرحلة الأولى ضرورية؟ ألم تكن هناك من وسيلة لتلافيها؟

قال مهندس الخرسانة: اليوم أوشك محول المحطة أن يصعق عاملاً روسياً.

قال فوزى: العمال الروس مُدهشين. رأيت مرة واحد منهم عندما انهار النفق الثانى. كلنا جرينا وتركنا آلاتنا خلفنا. أما هو فرفض أن يتحرك بدون الحفارة التى كان يسوقها. وظل يعافر بجنون، ليخرجها. تعرف ماذا فعل؟ دق الكباشة فى الأرض وجعل يقفز بالحفارة إلى الخلف حتى أخرجها من النفق.

وتحول إلى سعيد وهو يهز إصبعه: هذا لمعلوماتك فقط وليس للنشر. فنحن لا نريد أن نعطى صورة سيئة لعمالنا ونبالغ فى تقدير الروس.

قال سعيد: لا تخشى شيئاً، فلست أريد أن يقال أنى شيوعى، أو أنى مصاب بعقدة الأجنبى، وعاجز عن رؤية المعجزة المصرية.

وضعت فتاة الشورت ساقاً على ساق، فقال سعيد: كل شئ أصبح الآن ظاهراً للعيان.

قال مهندس الخرسانة: أتعرفون أن الوقت الذى يستغرقه تعليق امرأة فى فنلندا أقل من ذلك الذى يتطلبه إخراج المنديل من الجيب.

سألته كيف عرف، فأجاب بأنه كان هناك منذ شهرين فى بعثة تدريبية.

قال له سعيد: عبيط، لماذا لم تبق هناك؟

هز رأسه: معك حق. الحياة هنا كالسجن، ولولا النقود ما بقيت لحظة واحدة.

أقترب منا أحد زملائه قائلاً إن السيارة التى ستقلهم إلى الموقع قد وصلت. تطلعت إلى ساعتى، فوجدتها قد تجاوزت الحادية عشرة. وعرض علينا مهندس الخرسانة أن يوصلنا إلى الموقع، فقلت إنى أريد أن انقل حاجياتى إلى الاستراحة. وأبدى استعداده لمعاونتى.

أقلتنا السيارة الجيب إلى فندقى. وحمل محمود حقيبتى إليها، فأعطيته عشرة قروش ودفعت حسابى. وأبدى سعيد تعجبه من ضخامة حقيبتى قائلاً إنها تجعلنى أبدو كالمهاجرين.

انطلقنا فى طريق الكورنيش، ثم انحرفنا إلى اليسار. وتابعتُ الطريق المظلم الذى مضينا فيه وسط الصحراء، بينما كان مهندس الخرسانة يحكى عن زميل لهم

كان يعمل مدرساً فى مدرسة البنات ولم يكن يدع بنتاً دون أن يقبلها، ويجعلها تلمسه بين ساقيه.

تردد فجأة غطيط مرتفع فى المقعد الخلفى. وقال المهندس إن فوزى لن يستيقظ أبداً، وعليهم أن يحملوه إلى فراشه حملاً.

قال زميله: أو نستخدم معه إحدى الصفائح.

ضحك مهندس الخرسانة، وقال لنا أنا وسعيد: إذا جئتما فى الصباح أريناكما مشهداً لا ينسى.

سأل سعيد: ما هى الحكاية؟

قال زميل المهندس: الحكاية حكاية ثأر.. على رأى عبد الحليم.

قال سعيد: من اعتدى على شرف من؟

قال المهندس: ثأر ليس من أجل الشرف .. إنه ثأر مياه.

قال زميله: عنابرنا ليست بها ثلاجات ولهذا نقوم بتبريد المياه فى أزيار. وتتبادل العنابر سرقة المياه الباردة، والثأر لمياهها المسروقة.

قال المهندس: ولكن ثأر الغد لم يقع مثله من قبل.

ضحك زميله. وسألت: كيف؟

قال: فى كل عنبر يوجد عمدة مسئول عنه. وغداً صباحاً يصل عمدة العنبر المدين لنا بالثأر من أجازته بالطائرة. وسنذهب لاستقباله بالمطار بخمس صفائح من المياه المثلجة ونسكبها على رأسه.

انحدر الطريق بعد ارتفاع وتجلت أمامنا مئات المصابيح الكهربائية المتناثرة. وبدا موقع العمل أشبه بحفل ساهر كبير. وبعد برهة ميزت مئذنة الجامع ومكتب المباحث. اتجهت السيارة يميناً وارتقت ما يشبه هضبة صغيرة ثم توقفت أمام مبنى صغير من طابق واحد.

عاوننى سعيد فى إنزال حقيبتى. وسألنا مهندس الخرسانة إن كنا نحب أن نشهد عملية المياه فى الغد. فاعتذر سعيد بأن لديه ارتباطات عدة. قال المهندس إنه يعمل فى الخلاطة ونستطيع أن نزوره هناك.

انصرفت السيارة. حملتُ حقيبتى، وتبعت سعيداً إلى الداخل. مررنا بباب انتشرت خلفه الموائد والمقاعد، ثم مضينا فى ردهة إلى باب فى أقصاها فتحه سعيد وأضاء النور.

ظهرت أمامنا حجرة واسعة يتصدرها جهاز التكييف وبها ثلاثة أسرة متفرقة فى أركانها. اتجه سعيد إلى نافذة تغطيها شبكة من السلك فأغلقها، وأدار جهاز التكييف فجعل يطن بصوت واضح. وما لبثت البرودة المنعشة أن بدأت تنتشر فى الغرفة.

وضعتُ حقيبتى أمام أحد الأسرة، وجلست على حافته، ثم فتحتها وأخرجت كتاب "مايكل انجلو"، فوضعته على مقعد بجوار الفراش. ورتبت حاجياتى الأخرى فى أدراج صوان صغير مجاور.

كان سعيد قد أنطلق إلى الحمام، وعندما عاد ذهبت بدورى، وعدت إلى الغرفة، فأشعلت سيجارة واستلقيت على الفراش.

استلقى سعيد على فراشه يدخن. وقال إنه سيجرب حظه غداً مع فتاة الشورت.

سألته كيف يغلق جهاز التكييف فقال إننا سنتركه دائراً لأن الحر بدونه لا يطاق. وقام، فأطفأ سيجارته فى المنفضة وحملها إلى جوار فراشه. ثم أغلق الباب بالمفتاح وأطفأ النور. والتجأ إلى فراشه مُشعلاً سيجارة جديدة.

قال بعد لحظات أنه يريد أن يكتب شيئاً يعبر به عن الإنسان الجديد الذى ولد مع السد العالى. وأنه فكر أمس فى سيناريو للسينما. مهندس يأتى إلى السد ويترك فتاته الثرية فى القاهرة على مضض، ويوشك أن يعود إليها بعد أن عجز عن احتمال الحر والإرهاق والوحشة، لكن العمل ما يلبث أن يغيره، فيترك الفتاة ويستقر فى أسوان السد.

قلت: ويتزوج ابنة رئيس العمال.

ضحك، وقال: ويعيشان فى التبات والنبات. كلا، إنى أتكلم جاداً.

قلت: أذكر أنك كنت تتحدث دائماً عن الكتابة للمسرح.

قال: كلنا بدأنا بأحلام عريضة، ثم ما لبث كل شئ أن جف. أقول لك الحق؟ لم أعد أرغب فى كتابة شئ على الإطلاق. أصبح كل ما أكتبه ممسوخاً مائعاً بلا روح. مقالات تتوه فى سراديبها، ولا هدف لها إلا تبرير كل شئ.

قلت: لا تقل لى أنك لم تكن مقتنعاً بكل ما تكتبه.

قال: كنت اقنع نفسى. لقد كانت هناك أشياء ضخمة. وكنا جميعاً نتجاهل الجوانب الأخرى عن عمد. ألم تكن السجون حاشدة؟ وكنا أيضاً نجنى شيئاً من الثمار.

قلت دون اقتناع قوى: المراحل الأولى دائماً هكذا.

قال: ولكن الأمر يصور وكأننا حققنا كل شئ. هل أقول لك شيئاً؟ ستسمع هنا بالتأكيد من يقول لك إننا نستطيع بناء السد بمفردنا دون مساعدة الروس.

رأيت شعلة سيجارته تتحرك فى الظلام إلى أسفل حيث وضع المنفضة على الأرض، ثم ترتفع من جديد بعد أن ازدادت توهجاً.

أستطرد: أنا آت إلى هنا بأمل وحيد. أن أعيش بضعة أيام خارج كل ما ترمز إليه القاهرة. أظنك رأيت تلك النشوة المتشنجة التى تظهر على وجوه بعضهم عندما يرد ذكر السد العالى؟ كأنما جفت أرواحنا ولم تعد قادرة على الوقوف بمفردها ولا بد من تعليقها على شئ.

❋❋

وجه حليق منتعش كأنما أستيقظ تواً من نوم عميق، أو كأنما كنا فى عصر يوم من أيام الصيف بعد قيلولة طويلة، وكنا فى الفجر، والشهر يناير،

- رأيك فى الحكومة؟

كأنما يمكن أن تخاطب بالمنطق رأساً جُنّت بالسلطة،

- هل تنوى استخدام العنف؟

الكتب بينى وبينه هى الدليل الوحيد،

❋❋

عادت السيجارة مرة أخرى إلى أسفل، وفى هذه المرة ضغطها فى المنفضة معلناً أنه يريد أن ينام.

قال: تصبح على خير.

قلت: وأنت من أهله.

[3]

في الصباح ظهر على باب حجرتنا نوبى عجوز.
قال سعيد إنه المسئول عن تنظيف الحجرة. ورحب بي العجوز قائلاً إنه يدعى "فقير". سألته عن مصير الملابس المتسخة، فطلب منى أن أتركها على الفراش ليأخذها إلى المغسلة.

كانت الساعة قد تجاوزت التاسعة، ولهذا ألفينا المطعم خالياً. وأحضر لنا نوبى آخر إفطاراً قوياً من الزبد والمربى والفول المدمس.

أشعل سعيد سيجارة وقال: عندى موعد بعد ساعتين مع كبير الخبراء السوفييت. تأتى معى؟

هززت رأسى موافقاً، فقال: اليوم هنا يبدأ بالبحث عن وسيلة ركوب.

قلت: كنت أتصور أن هذه المشكلة محلوله بالنسبة لك.

قال: فى البداية أعطونى سيارة وسائقاً، ثم سحبوهما لاحتياجات العمل. لم يبق إلا أن نعتمد على أنفسنا.

قلت: نمشى؟

قال: لابد لنا من سيارة. فالمسافة كبيرة، فضلاً عن أن معالم المكان تتغير كل يوم.

دفع مقعده إلى الوراء، ونهض واقفاً وهو يقول: تعال نبذل محاولة.

أخذنا قبعتينا من الحجرة، وغادرنا الاستراحة بعد أن علق سعيد كاميرته

على كتفه. مشيت بتثاقل من أثر الطعام والحرارة. وتوقفنا أمام كشك للصحف، وابتعنا الجرائد التي وصلت من القاهرة تواً.

ألقيت نظرة على العناوين الرئيسية، ثم طويت الصحيفة وتبعت سعيداً إلى داخل مبنى مستطيل من طابق واحد. وقال سعيد ونحن نتقدم فى ممر رطب اصطفت على جانبيه الأبواب المغلقة: سنجرب حظنا مع صديق من أيام المدرسة.

طرق سعيد أحد الأبواب وأدار مقبضه ثم دفعه، ودلفت وراءه إلى الحجرة التى تصدرها مكتب خشبى كبير، جلس خلفه شاب على شئ من الوسامة. ويبدو أنه كان عل بينة من هذه الوسامة فقد مشط شعره بعناية وجعل فى جانبه الأيسر فاصلاً واضحاً.

عرفنى سعيد بصديقه الذى كان يدعى "عباس"، وقال ونحن نجلس فى مقعدين متقابلين أمام المكتب إنهما كانا معاً فى مدرسة القرية، وغادراها إلى القاهرة فى يوم واحد.

سألنى عباس عن موعد قدومى وعما إذا كان هناك جديد فى السياسة. ثم قال إنه سمع اليوم أنهم يعتقلون الأخوان المسلمين فى القاهرة.

قال سعيد: نحن لم نأت للتحدث فى السياسة. نريد سيارة.

قال عباس إنه ترك سيارته الخاصة فى أسوان مع زوجته. أما سيارة الشركة المخصصة له فهى معطوبة، وبوسعه أن يرسلها إلينا فى الغد.

قال سعيد: إذن نذهب الآن ونلتقى فيما بعد.

قال ونحن نعود إلى الطريق المشتعل من الحرارة إنه لن يستطيع النوم الليلة.

قلت: لماذا؟

قال: بسبب إشاعة الاعتقالات، فعندما كان فى المدرسة كان متصلاً بالإخوان. ورغم أنه قطع صلته بهم منذ زمن بعيد، إلا أنه يرتجف من الرعب عندما تتردد أنباء اعتقالهم.

انطلقنا فى التراب نحو الموقع. وعندما تجاوزنا الجاراج، تحولنا إلى اليسار، وعبرنا خطاً حديدياً. وقال سعيد إن الخط ينقل الأسمنت إلى خلاطة الخرسانة. وأشار إلى مبنى حديدى ضخم من عدة طوابق يصطف أمامه طابور من القلابات

الروسية الخضراء. كانت طوابق المبنى عارية بلا جدران، وتتألف من شبكة من المواسير والأقماع والمعدات. وحول المبنى انتشرت عدة خزانات وقواديس وأكوام من الرمال، أمامها شريط طويل من المطاط فوق قوائم حديدية تجرى عليه الأحجار الصغيرة.

كنا نمر بجوار كومة الرمال عندما برز فجأة من فجوة فى وسطه عدة أشخاص يرتدون الكمامات. أشار إلينا أحدهم أن نتوقف. ونزع الكمامة فألفيناه مهندس الخرسانة الذى تعرفنا إليه بالأمس.

أصر أن يرينا الخلاطة فصحبناه إليها. وصعدنا خلفه إلى طابقها العلوى. قال أنها تعمل بالإدارة من بعيد. وأنها كانت تستقبل يومياً فى المرحلة الأولى كمية من الأسمنت تكفى لبناء عشرة منازل فى خمسة طوابق. أما الآن فهى تستقبل ثلث هذه الكمية فقط، تستخدم بعد خلطها بالرمال والصخور فى أساسات محطة الكهرباء وقلب السد.

اعتمد على سياج حديدى يطل على طابور القلابات الفارغة. وتأملت واحدة منها تتقدم لتقف تحت قمع ضخم من المطاط فى طرف الخلاطة. وبدت القلابات ضئيلة للغاية أسفل القمع الضخم.

انفرج فاه القمع فجأة، وانهمرت منه كتلة الخرسانة مرة واحدة. اهتزت القلابة وهبط جسمها قليلاً نحو الأرض ثم عاد إلى وضعه. وانغلق القمع كما انفتح. واهتزت القلابة مرة أخرى وهى تنتزع نفسها من الأرض، وتتحرك مبتعدة فى ببطء. وانسابت العربة التالية مكانها.

تابعتُ القلابات وهى تنساب واحدة وراء الأخرى أسفل القمع. كان بعضها يتجه بعد ذلك إلى اليمين، ويختفى خلف أحد المنحنيات. وكان بعضها الآخر يتجه إلى اليسار، ثم يتوقف بعد مسافة، وترتفع ظهورها لتلقى حمولتها فى وعاء ضخم على الأرض. وما لبث الوعاء أن ارتفع فى الهواء. ودار دورة واسعة فى اتجاه محطة الكهرباء. وملتُ إلى الأمام، لأرى المكان الذى سيستقر فيه، ولكنى لم أستطع.

ظهر الوعاء بعد قليل عائداً إلى مكانه السابق فوق سطح الأرض. وتبينت سلكاً يربطه ببرج حديدى بالغ الارتفاع، ينتصب خلف الخلاطة. كان ارتفاعه يتجاوز ارتفاعها

بمراحل، وبدت فى قمته حجرة ذات جدران زجاجية. وقال لى المهندس إن البرج عبارة عن رافعة هوائية.

وقف سعيد إلى جوارى معتمداً بمرفقيه على السياج. وسمعته يغمغم لنفسه: رائع. عظيم. والتفت إليه، فرأيته يدير عينيه حوله وهو يحرك شفتيه.

قال إنه يريد أن يلتقط بعض الصور للموقع من قمة الرافعة. فتركنا الخلاطة، واتجهنا إلى الآلة التى استقرت فوق أربع عجلات تجرى على قضبان.

ارتقينا سلماً عمودياً حتى وصلنا إلى القمة ونحن نلهث. ووقفنا فى مدخل الحجرة الزجاجية التى كان بابها مواربا تنبعث منه برودة جهاز التكييف. ورأيت من خلاله ميكانيكياً مصرياً أبيض شعر الرأس يجلس أمام عدة مقابض.

تحول إلينا العامل ببصره، فطالعنى وجه شاب فى مقتبل العمر. وعاد يتطلع إلى المقابض أمامه مباشرة متجاهلاً إيانا كلية، لكنه ظل يتابعنا بطرف عينه. وعندما شعر بسعيد يرفع الكاميرا بسط قامته ومضى يحرك المقابض فى اعتداد.

شعرت بالرافعة تتحرك بينما دق جرس قوى. وتطلعت من الحائط الزجاجى فرأيت ذراع الرافعة تتجه فى الهواء إلى محطة الكهرباء.

ظلت يدى الميكانيكى تعملان فوق المقابض. وتحرك ذراع الرافعة من جديد، واستدار سعيد يلتقط بعض الصور للموقع.

توقف الميكانيكى عن العمل لحظة، واستدار إلينا مبتسماً، ولم تبد عليه الدهشة عندما سأله سعيد عن اسمه، وعن الدافع الذى جاء به للعمل فى السد، فقد حدد هوية سعيد بالخبرة.

قال بصوت من يتحدث أمام ميكروفون الإذاعة ويعرف بالضبط المطلوب منه: جئت لأخدم وطنى. وابتسم.

بدا سعيد راضياً وهو يدون اسم العامل وكلماته فى مفكرته. وقال هذا إنه تدرب مدة أولاً على إدارة الونش، على يد عامل روسى. ومنذ شهرين أصبح يديره بمفرده. وكان يعمل قبل ذلك فى إحدى ورش السيارات فى طنطا.

كنت أنقل بصرى بين وجه الشاب وشعر رأسه الأبيض عندما لمح سؤالاً فى

عينى، فرفع يده إلى شعره قائلاً: الونش هو السبب. أول ما جيت هنا ما كنش فيه شعرة واحدة بيضه فى رأسى.

قلب سعيد صفحة جديدة من مفكرته طالباً من العامل أن يحكى ما حدث. وقال هذا إنه كان يدير الرافعة عندما احتكت بكابل كهربائى يجره عدد من العمال، يسيرون فى بعض المياه. وأدى الاحتكاك إلى نزع جزء من قشرة الكابل الخارجية فتكهرب على الفور وصعق جميع العمال.

أغلق سعيد مفكرته. وشد يد الميكانيكى شاكراً. وصافحته بدورى، ثم هبطنا السلم العمودى فى حذر ونحن نتجنب التطلع إلى أسفل.

سرنا بين العربات المختلفة حتى بلغنا سوراً يقف أمامه جندى. ومن فوق السور كان جسم السد يمتد أمامنا بأكمله. فإلى اليسار كان الجزء الأمامى المواجه لمنابع النيل تغطيه الرمال وتتحرك فوقه البلدوزارات. وإلى اليمين كان الجزء الخلفى المواجه للقاهرة يرتفع عالياً بكميات هائلة من الصخور الضخمة، ثم ينحدر نحو صف من البراميل التى أقيمت بصورة عمودية على حافة المياه. وفى الوسط امتد شبه طريق يتدفق فيه الناس والعربات.

كان ثمة مجموعة من المبانى الخشبية على مقربة. اتجه سعيد نحوها قائلاً: لنجرب حظنا مرة أخرى.

ولجنا باباً عُلِقت فوقه لافتة تعلن عن إدارة المركبات. سرنا فى ردهة ضيقة ثم طرق سعيد باباً فى أقصاها وهو يهمس: هذا هو المدير، وهو من رجال الجيش.

كان هناك شخص فى الداخل يصيح بصوت غاضب. وتوقف عن الصياح فجأة. ثم ارتفع الصوت الغاضب قائلاً: ادخل.

دفع سعيد الباب، وأنا خلفه. ورأيت مجموعة من العمال تقف واجمة أمام مكتب جلس خلفه رجل طويل القامة يرتدى قميصاً كاكياً ويخفى عينيه وراء نظارات شمسية داكنة.

قال بنفس الصوت الغاضب: أفندم؟

وأوضح سعيد هويتنا، فلانت قسمات الغاضب على الفور. وأشار إلينا بالجلوس،

ثم تحول إلى العمال الواقفين قائلاً: زى ما قلت. روحوا دلوقت وبعدين ابعتلكم.

قال بعد أن انصرفوا: هؤلاء هم المصريون، يخافون ولا يختشون.

وتأمل سعيد لحظة، ثم أضاف: أظن أننا التقينا من قبل؟

قال سعيد وهو يبتسم فى رقة شديدة: أجل، أخذت من سيادتك حديثاً منذ ستة أشهر. وأشار إلى، وأستطرد: زميلى يزور السد لأول مرة وقد أصر على مقابلتك، ليعد مقالاً عن دور العسكريين فى بناء السد من واقع تجربتك الشخصية.

تحول إلى قائلاً: أنا تحت أمرك.

فكرت بسرعة ثم سألته: ما هو فى رأيك سر النجاح الذى سجله العمل فى السد حتى الآن؟

أجاب على الفور: السر هو النظام والطاعة المبنيان على الخوف. لا تظن إنى ضد الديمقراطية. خذ هؤلاء العمال مثلاً. إنهم يستطيعون دخول مكتبى فى أى وقت.

أخرجتُ مفكرتى وتظاهرت بتدوين أقواله. اعترضنى قائلاً: لا داعى لكلمة الخوف هذه. الأفضل أن تقول النظام والطاعة المبنيان على الإقناع. حتى لا يسيئ أحد الفهم.

قلت: مفهوم.

قال إن السوفيت أعطوه وساماً. ومد يده إلى درج مكتبه، فأخرج مجلة روسية قائلاً إن بها مقالاً بهذه المناسبة.

نهضنا واقفين، وانحنينا على مكتبه لنرى المقال. كان قد بسط المجلة على صفحة تحمل صورته. وجعل يقرأ لنا الترجمة التى دونت بالقلم الرصاص على هامش الصفحة، وأنا أدونها فى مفكرتى .

تطلع سعيد فجأة إلى ساعته، ثم قال إن الحديث يحتاج إلى وقت أكبر لأهميته وإننا للأسف لا نملك وقتاً كافياً فلدينا موعد فى الهيئة. وكتم مضيفنا شعوراً بالاستياء ظهر على وجهه، وقال إننا نستطيع الاتصال به فى أى وقت نحب.

اعتدلنا واقفين، ووجه سعيد حديثه إلى وهو ما زال يتطلع إلى ساعته: لقد تأخرنا بالفعل، ولن تنقذنا إلا سيارة. وحول بصره إلى الرجل متسائلاً.

قال هذا على الفور: أعطيكما ورقة تأخذان بها سيارة من الجاراج.

قال سعيد فى ضيق: ولكن جاراج الهيئة على ما اذكر يبعد عن هنا مسافة. لو أمكن أن تعطينا سيارة الآن يكون أفضل.

هز رأسه قائلاً: ليس هناك غير سيارتى. لكن السائق غير موجود الآن للأسف.

حزم سعيد أمره أخيراً: ليس أمامنا إلا أن نمشى ونعتمد على الحظ.

صافحناه واعدين بالاتصال به خلال يومين، ثم انطلقنا إلى الخارج، وعندما أصبحنا فى الطريق تبادلنا النظرات وانفجرنا ضاحكين.

مضينا نضرب فى الأتربة. ودرنا بعدة منحنيات ونحن نتطلع خلفنا كل لحظة أملاً فى سيارة عابرة. أقبلت علينا شاحنة ثبتت فى مقدمتها ماسورة بالعرض. وقال سعيد أن الشاحنة تدعى بأبى شنب. وقد أطلق عليها الصعايدة هذا الاسم عندما رأوها لأول مرة.

وجدنا أنفسنا على الطريق الدائرى المؤدى إلى محطة الكهرباء. فبدا لنا النيل يجرى هادئاً فى قناته الجديدة. وفى كل مكان انتشر الصعايدة حاملين مقاطف الأتربة. تجاوزنا محطة الكهرباء. وواصلنا السير حتى أشرفنا على جسم السد.

رايتُ وسط الشريط العريض من الصخور والرمال بنائين طويلين متجاورين يصلان بين الضفتين. كانا متوسى السطحين، تعترضهما ثغرات ضيقة على مسافات متساوية. وقال سعيد إنهما ممرا التفتيش، وإن ثالثاً سيعلوهما، ثم يُغطَى الثلاثة بالطمى إلى الأبد.

بلغت حرارة الشمس أوجها وثقلت حركتى. شعرت بالرغبة فى العودة إلى الاستراحة، ولكنى استأنفت السير إلى جوار سعيد فى صمت.

بلغنا أحد المنحنيات، فتوقفنا حتى مرت سيارة لرش المياه تلتها حفارة صغيرة، استقر صندوق سائقها فى مقدمتها بدلاً من مكانه المعهود فى الخلف، فبدت كأنما تسير بظهرها، ثم ظهرت سيارة جيب. أشار سعيد لسائقها، فتوقف إلى جانبنا، ولكنه قال إنه ذاهب حتى الكشك القريب وحسب.

مشينا بضع خطوات، ثم وقفنا ننتظر. سألت سعيد عن سر اهتمامه بمقابلة

كبير الخبراء الروس. قال إنه كان يتحاشاهم دائما حتى لا يثير الشكوك من حوله. لكن رئيس التحرير طلب منه هذه المرة موضوعاً عنهم. ويبدو أن أحد مسئوليهم اشتكى من تجاهل الصحافة لهم.

مرت بنا سيارة فيات تابعة للشركة، استقر رجل بدين في مقعدها الخلفي. قال سعيد إنها ذاهبة إلى الهيئة ولا شك، وإن راكبها يبدو شخصاً مهماً ولن يقف السائق لنا. ومرت دقائق طويلة لم يظهر لنا فيها سوى سيارة تيريد تبعتها سيارة من طراز "فولجا" يعلو هيكلها عن الأرض أكثر من المعتاد. وكان سائقها الروسى يقودها بسرعة أثارت عاصفة من الغبار.

أوشكنا أن نستأنف السير عندما ظهرت سيارة جيب روسية، أوقفها سائقها المصرى عندما رآنا، وسألنا إذا ما كنا ذاهبين للهيئة. تطلع سعيد إلى، ثم قال للسائق إننا لا نمانع فى الذهاب.

مضت السيارة تتدحرج بنا فوق جسم السد غير الممهد. وجعلت تهتز وترجنا رجاً. مد سعيد يده إلى مقبض الباب على أهبة القفز في أية لحظة. وظل فى هذا الوضع وعيناه على الطريق حتى أصبحنا على الضفة الغربية.

قلت له: أظنك وجدت بداية المقال؟

قال: كيف؟

قلت: تبدأ هكذا: كدت افقد حياتى على جسم السد.

لم يضحك فالتزمت الصمت. وانطلقت السيارة فى الطريق المرصوف الذى يؤدى مباشرة إلى أسوان. وعند مفترق الطرق تحولت السيارة حتى أشرفنا على مبنى الهيئة، فصعدت طريقاً دائرياً وتوقفت أمامه.

سأل سعيد السائق عن موعد عودته. فقال إنه سيأخذ أحد المهندسين وينصرف تواً.

قفز سعيد إلى الطريق. وعندما أردت أن أتبعه، وجدت سروالى قد ألتصق بجلد المقعد وابتل من العرق فى أكثر من مكان.

ألقى سعيد نظرة على ساعته، وقال: لقد وصلنا بمعجزة فى الموعد.

تقدمنى سعيد إلى باب على يسار المبنى، ووقفتُ فى المدخل حتى تعودت عيناى على اختفاء ضوء الشمس. ثم سرنا فى ردهة هادئة، تنبعث منها رطوبة خفيفة منعشة.

خلعتُ قبعتى، ومسحت عرقى بمنديلى. بلغنا باباً جلس أمامه فراش نوبى، أشار لنا إلى باب آخر دون أن يفوه بكلمة، فطرقناه ودخلنا.

التقت عيناى بعينين زرقاوين واسعتين، تحيط بهما هالة من الشعر الأحمر، تدلت أطرافه فوق آلة كاتبة. كانت صاحبتهما قد رفعتهما إلى الباب عند دخولنا ثم خفضتهما على الفور.

تحولتُ ببصرى إلى صورة كبيرة للينين على الحائط. ثم شقراء ممتلئة لوحت الشمس بشرتها، جلست أمام عدة تليفونات. تطلعت إلينا متسائلة، فقال سعيد بالإنجليزية إننا صحفيان ولدينا موعد مع "ابراسيموف".

ابتسمت وقالت: باجلستا. وأشارت إلى مقعدين بجوار مكتب جلس عليه شاب ذو ملامح أسيوية يدق على الآلة الكاتبة فى استغراق.

قال سعيد فى صوت خافت ونحن نجلس: ها هنا نفق تتوه فيه أعظم القضبان.

تأملتنا الشقراء باسمة وهى تسوى خصلة من الشعر وزعتها فى خطوط رأسية متوازية فوق جبهتها. وقدرت أنها فى الأربعين من عمرها.

أخرجت علبة سجائرى وقدمت لها سيجارة فتناولتها قائلة: سباسيبا.

تحولتُ إلى زميلتها، فرفعت عينيها، وابتسمت قائلة بالإنجليزية أنها تفضل البلمونت. وأخرجت علبة من حقيبتها، تناولت منها سيجارة أشعلتها لها.

كان فمها واسعاً فى وجه مستطيل تحيط به خطوط تنم عن الإرهاق. وبدت شفتاها جافتين توشكان على التشقق.

اعتذر الشاب بأنه لا يدخن فعدت إلى مقعدى. وكان سعيد منهمكاً مع الشقراء فى حديث متقطع بكل اللغات. وسمعتها تقول فى إنجليزية ركيكة أنها تدعى "اليونا"، وأنها ستعود إلى موسكو بعد شهرين. وقالت إن زميلتها تدعى "تانيا"، وإنها وصلت منذ شهر فقط.

قال سعيد: كم نود الذهاب إلى موسكو.

هتفت الشقراء ضاحكة وهى تلوح بيدها فى الهواء: من فضلكم تعالوا.

واختلست النظر إلى صاحبتها فى خجل مفاجئ فضحكنا.

وجمت فجأة، وأشارت بيدها مرة أخرى، ثم تناولت سماعة التليفون. تكلمت بالروسية وسمعنا اسم ابراسيموف يتكرر، ثم كلمة جورناليست، ثم نحت السماعة عن فمها وسألتنا: باروسكى نييت؟

فهمت أنها تقصد اللغة الروسية فقلت: نييت.

عادت تتكلم فى السماعة وهى تحتد حيناً وتبتسم حيناً آخر. واعتمدت تانيا بمرفقيها تتأمل زميلتها باسمة. وأخيراً وضعت الشقراء السماعة مكانها وتنهدت، ثم أشارت بيدها إلى باب بجوارها، وقالت وهى تنهض واقفة: مستر ابراسيموف خراشو. باجلستا.

نهضنا بدورنا، وتقدمتنا إلى الحجرة الداخلية، وعينا سعيد على عجزها الممتلئ، وتبعناها إلى قاعة طويلة بها مائدة اجتماعات وحولها عدد كبير من المقاعد. وفى نهاية القاعة جلسٌ رجل قصير القامة مدكوكها أبيض شعر الرأس إلى مكتب صغير.

كنت قد رأيت صورة ابراسيموف عدة مرات فى الصحف. وتعرفت فوراً على الوجه المربع القوى الذى انتشرت فوقه شبكة هائلة غير عادية من التجاعيد.

وقف ابراسيموف عندما رآنا. وأحسست بشخص خلفى. التفت فرأيت شاباً نحيلاً محتقن الوجه أنيق الملبس، قدم نفسه إلينا على أنه مترجم واسمه "فكتور".

انسحبت إليونا وتحدث ابراسيموف وهو يشير إلى المقاعد المحيطة بمكتبه، فجلسنا. تكلم سعيد، وفكتور يترجم من الإنجليزية إلى الروسية. قال إننا نريد إعداد بعض المقالات عن حياة الروس فى السد، لكننا عاجزون عن التفاهم مع أحد بسبب اللغة. وكلما حاولنا أخذ بعض المعلومات المحددة، قيل لنا أنه لا بد من أمر من ابراسيموف شخصياً.

قال ابراسيموف من خلال فكتور أنه سيعين لنا واحداً يقدم لنا كل ما نحتاجه من معلومات، ويساعدنا فى مقابلة من نشاء.

التفت سعيد ناحيتى، وقال بالعربية: أه لو عينوا النفق.

رفع ابراسيموف سماعة التليفون، وتحدث قليلاً ثم أعادها مكانها. كانت كل حركاته تنم عن ثقة شديدة بالنفس.

تحول إلينا مبتسماً، وقال إتنا أحسنا صنعاً بالمجيء فى أغسطس، فهم يستعدون الآن للفيضان، كما إن العمل يمر بأهم مرحلة وهى تشييد النواة الصماء فى قلب السد.

خاطبه سعيد: مستر ابراسيموف، لقد عاصرت بناء السد منذ بدايته. فماذا كانت أخطر لحظة مرت بك فى تلك المدة؟

فكر الروسى لحظة ثم ابتسم: اللحظات الخطيرة كثيرة، أثناء بناء الأنفاق كان كل يوم يمثل لحظة خطر بسبب الانهيارات التى كانت تحدث فيها. وفى بداية 63عندما أوشك السد المؤقت الذى أقمناه أمام قناة التحويل أن ينهار.

قال سعيد: وأخطر هذه اللحظات؟

قال ابراسيموف: ربما كان فيضان العام الماضى هو أخطر لحظة مرت بى هنا، فقد جاء الفياضان عالياً، وارتفع الماء بسرعة وفى لحظة رأيت كل عملنا مهدداً بالغرق، لكن تعرف ؟.. لولا السد لكانت بلادكم قد تعرضت لمخاطر جسيمة. فقد تمكن من احتجاز الجزء الأكبر من المياه.

سألت: هل يمكن أن يتكرر الخطر هذا العام؟

أجاب: التقديرات الأولية تقول أن فيضان هذا العام لن يكون عالياً.

عدت أسأل: ولو كان فماذا يكون العمل؟

قال: الأمر بسيط. نفتح كل الأنفاق فى وجه المياه وبذلك نحول دون وقوع شئ للسد نفسه أو للوادى.

سأله سعيد عن تاريخ تخرجه فقال: سنة 27 أى بعد الثورة بعشرة أعوام.

– وما هو أهم ما تذكره عن تلك الفترة؟

فكر الروسى لحظة ثم قال: الحماسة التى كنا نعمل بها فى أول مشروع للرى فى أسيا الوسطى.كان هذا هو أول مشروع أشترك فيه. وجاءت بعده مشروعات أخرى فى

أماكن متفرقة من البلاد، ثم نشبت الحرب واشتركت بها في سلاح المهندسين.

- وبعد الحرب؟

- عملت في إعادة إنشاء الجسور ومحطات الكهرباء التي دمرتها الحرب. والمؤلم أنها كانت هي ذاتها التي اشتركت في إنشائها قبل الحرب.

- وبعد ذلك؟

- في سنة 55 توليت مسئولية عدة مشروعات كبرى وعملت في عدة بلاد في الخارج.

تدخلت في الحديث قائلاً: تعني بعد انتقاد عبادة الفرد؟

بدا وجهه جامداً لا يعبر عن شئ، وأجابني في صوت بارد: لا أعني شيئاً.

سأله سعيد عن رأيه في الجيل الجديد من الشباب السوفيتي.

قال: الجيل الجديد يريد تلافي الأخطاء التي وقع فيها الجيل الذي سبقه. وهذا شئ طبيعي في كل مكان.

وجه إليه سعيد عدة أسئلة عن اهتماماته الشخصية وهواياته. وجلست أستمع إلى إجابته وأنا أفكر في المراحل المختلفة التي مرت بها حياته، والأخطار التي تعرض لها وأفلت منها.

أحضر لنا فراش نوبي زجاجتين من الصودا المثلجة، ودخل رجل ضئيل الجسم شرقي الملامح يرتدي ملابس كاملة. اتجه الرجل إلى ابراسيموف مباشرة، وانحنى أمامه في احترام شديد. وهمس لنا فكتور أنه كبير المصممين، وهو أرمني يدعى "اوجنسيان".

تحدث ابراسيموف إلى الأرمني، ثم قدمه لنا على أنه الذي سيتولى مساعدتنا. ونهض واقفاً معلناً انتهاء المقابلة.

غادرنا الغرفة برفقة اوجنسيان من باب غير الذي دخلنا منه، وتبعناه إلى غرفته. وبدأ يتحدث بالروسية فور جلوسنا فقاطعه سعيد قائلاً: باروسكي نييت.

تطلع إلينا في وجوم، ثم غادر الغرفة. وعاد بعد ربع ساعة بصحبة رجل طويل القامة أصلع الرأس مشمئنط الوجه. خاطبنا القادم الجديد بإنجليزية، كالتي

يتكلمها الأمريكان. وقال إنه يدعى "زولوجدين".

أفسحنا مكاناً لمقعده بيننا. وتحدث إليه اوجنسيان. ثم تحول إلينا وطلب منا أن نوضح ما نريده.

قال سعيد إننا صحفيان، ونريد كتابة بعض المقالات عن حياة الروس في السد، ومشاكلهم.

ترجم زولوجدين كلمات سعيد، فقال الأرمنى على الفور: لا توجد لدينا أية مشاكل.

كانت لهجة زولوجدين عندما نقل إلينا هذه الإجابة توحى بأنه ضيق بنا وبالأرمنى وبكل شئ.

قال سعيد فى صبر أننا نريد مقابلة عدد من المهندسين والعمال الروس، والإطلاع على حياتهم الثقافية والاجتماعية، والحصول على بعض الأرقام والبيانات الخاصة بذلك.

فكر اوجنسيان برهة، ثم نهض وأستأذن منا مغادراً الغرفة. وجلسنا فى صمت حتى عاد برفقة رجل باسم الوجه رمادى الرأس. ودار حديث سريع بالروسية بين الثلاثة. ثم تحول إلينا زولوجدين، وقال فى لهجته الجافة مشيراً إلى القادم الجديد: مستر "بيوتر ياكونوف" سيتولى الإجابة على كافة أسئلتكم. وهو يتكلم الإنجليزية.

رفع ياكونوف يده معترضاً: قليل منها فقط. وابتسم كاشفاً عن سن ذهبية. اقترح أن ننتقل إلى مكتبه. فأحنينا رأسينا لاوجنسيان وقلنا له: سباسيبا. وصعدنا خلف ياكونوف إلى الطابق الثانى، يتبعنا المترجم.

ولجنا غرفة تضم ثلاث طولات عالية للرسم، جلس إلى إحداها رجل نحيل متقدم فى السن. ووقف خلف الثانية شاب ضخم البنية. جمع ياكونوف ثلاثة مقاعد حول المائدة الثالثة وأحتل مكانه خلفها.

وضع مرفقيه على المائدة، وتحدث فى لهجة شبه رسمية وإن ظل محتفظاً بابتسامته. وتطلعنا إلى زولوجدين، فقال إنه يريد منا أن نكتب له اسمينا. كتبت له الاسمين فقرأهما بإمعان ثم قال: مستر سعيد، ماذا تريد بالضبط؟

كرر سعيد ما قاله للأرمني .

قال ياكونوف: مستر سعيد. أنا موجود هنا منذ بداية العمل فـي **1959**، ولهذا أعرف كل شئ، وسأزودكما بكل ما تريد من معلومات.

قلنا في نفس واحد: سباسيبا.

قال: مستر سعيد، لابد أن نضع برنامجاً دقيقاً لكل شئ.

قال سعيد: أوكي.

استأذن منا، وغادر الغرفة. ثـم عـاد بعـد دقـائق ودار خلـف مائدتـه وهـو يتطلع إلينا بإبتسامة سعيدة: مستر سعيد، رئيسي وافق على خطتنا.

تبادلت وسعيد نظرة متسائلة. وواصـل يـاكونوف: غداً نضـع البرنـامج ثـم نهض واقفاً.

اضطررنا للوقوف بدورنا ونحن نقول في نفس الوقت: سباسيبا.

تبادل ياكونوف وزولوجدين حديثاً طويل بالروسية. ثم تحول إلينا الأخـير قائلاً إن ياكونوف سيكون غداً في إدارة التركيبات في الموقـع. وهـو يقـترح أن نلتقـى هناك، ووصف لنا المكان وغادرنا الغرفة.

مشينا في غرفة طويلة في اتجاه الجانب الآخر من المبنى. وقال سـعيد إنـه من الضرورى أن نمر على وكيل الوزارة وإلا غضب إذا عرف أننا كنا هنا ولم نزره. .

صعدنا إلى الطابق الثالث. استمهلنا مدير مكتبه بعض الوقت، ثم أشار لنا بالدخول.

كان الدكتور فريد سلامة رجل طويل القامة تخلل المشيب رأسه وبـدأ قريبـاً من الستين. وكان يجلس أسفل خريطة كبيرة للسد تعلوها صورة لعبد النـاصر.

ووقف يرحب بنا كأنما يعرفنا جيداً. وقال له سعيد عندما جلسنا إنه تلفـن له منذ يومين فلم يجده. قال أنه كان مشغولاً في أحد الاجتماعات التى لا تنتهي هذه الأيام استعداداً للفيضان. وفتح درج مكتبه وأخرج منـه ملفـاً قدمـه لسـعيد قـائلاً إنـه كتاب فرغ من وضعه عن تاريخ مشروع السد. وأنه أثبت فيـه أن مهندسـاً مصـرياً هـو أول من فكر في هذا المشروع في الأربعينيات.

تناول سعيد الملف وعندما فتحه، سقطت منه صورة فوتوغرافية على الأرض. انحنيت فتناولتها، ورأيتها لعدد من المصريين والأجانب يرتدون الطرابيش. وأشار فريد ضاحكاً إلى أطول المصريين قائلاً: هكذا كنت أبدو من عشرين عاماً.

ملنا على الصورة نتأمل الأجانب الذين غطوا رؤوسهم بالطرابيش. وقال فريد إنه كان يعمل فى الرى منذ كان وزراؤه وكبار موظفيه من الإنجليز.

قلب سعيد صفحات الكتاب فى اهتمام مصطنع. ورفعت عينى إلى الخريطة. كانت تمثل قطاعاً عرضياً فى السد مقسماً بالألوان إلى قطاعات متعددة متباينة الأحجام، تشير إلى المواد المختلفة التى يتكون منها السد. كان بعضها يمثل الصخور، وبعضها الآخر الصخور الملبسة بالرمال الناعمة، والثالث الرمال الخشنة. وفى الوسط حيث يرتفع السد فى شكل هرمى، مثلث رمادى اللون يشير إلى النواة الصماء التى تتكون من الطمى. كان هذا المثلث يمتد فى شبه عمود أسفل مستوى السد إلى قاع النهر. وكان يمتد منه خط أفقى إلى الجزء الأمامى من جسم السد المواجه لمنابع النيل.

حولت عينى إلى وجه وكيل الوزارة. لحظت عينيه الضيقتين وآثار الجدرى التى انتشرت على صفحته. وبدا وجهه مجرداً من الحيوية كما كان صوته.

سمعته يقول لسعيد أن "البيجوم آغاخان" تتصل به دائماً عندما تأتى إلى أسوان. وقال إنه يفكر فى جمع المحاضرات التى يلقيها عن الاشتراكية فى أعضاء الاتحاد الاشتراكى بصفته رئيساً له، وإصدارها فى كتاب، ليستفيد منها بقية المواطنين فى القطر.

❋❋❋

آثار الجدرى والجسد الفارع الضخم يذكران به، ومحاضرات الاشتراكية أيضاً، سوى أن الوجه كان يفيض حيوية، وأنه تمرد على عبودية الإنجليز، وخير بين أوربا والجحيم فارتضى الجحيم، واستقبل الليمان أول نزيل من نوعه قيدت بالسلاسل الحديدية قدميه بأمر الملك، وانحنى بين عتاة القتلة والمجرمين يكسر الصخر، الفك صلب عريض والأنف تصنع معه خطين حادين، وقامت الثورة وذهب الملك لكن مجرمى الأمس هم أيضاً مجرمو اليوم، وعندما خرج فرضوا عليه

أن يبقى حبيس منزله بعد غروب الشمس حتى شروقها، ثم جاءوه فى الفجر، اليوم أول، والشهر يناير، والعام تسع وخمسون، وانطلقت السيارة السوداء فى شوارع المدينة النائمة التى نسى كيف تبدو بالليل، واقتادوه حائراً واجماً من سجن إلى آخر، وتفجر العنف من الفرات إلى النيل بمثل ما لم يتفجر من قبل، فسحلوا الأجسام العارية فى الموصل، وأذابوا اللحم والعظام بالأحماض فى دمشق، ومن فوق مآذن القاهرة طالبوا بالدماء،

❋ ❋ ❋

طُرق الباب ودخل ابراسيموف برفقة عدد من الروس والمصريين، فغادرنا الحجرة. وقال سعيد أن دخولهم أضاع علينا فرصة طلب سيارة من الدكتور فريد.

هبطنا إلى الطابق الأرضى. واقترح سعيد أن نمر على السكرتيرتين قبل انصرافنا، فمضينا إلى حجرتيهما. طرقنا الباب ثم أدرنا مقبضه. لكننا لم نجد غير الشاب ذى الملامح الآسيوية فانسحبنا على الفور.

غادرنا المبنى ووقفنا فى ظله نبحث عن سيارة تقلنا. لمح سعيد سيارة جيب تستعد للمسير، فجرى نحوها وتبعته متشككاً. انحنى على سائقها ثم ما لبث أن ابتعد عنه مفسحاً له الطريق.

اتجهنا إلى الطريق الدائرى فى بطء. وتسللت حرارة الأرض المرصوفة إلى قدمى. مرت بنا سيارة جيب، فلوحنا لسائقها دون جدوى. وعندما انتهى الطريق الدائرى استدرنا إلى اليمين فى الطريق المؤدى إلى السد.

قال سعيد ونحن ننقل أقدامنا فى بطء على الإسفلت الملتهب: كنت أفضل أن أكون فى الإسكندرية الآن.

قلت: الشتاء بها أروع.

قال: لم أرها فى الشتاء.

قلت : أما أنا فرأيتها.

❋ ❋ ❋

الشوارع أنيقة هادئة، والجو رمادى، ومن خروم السلك الذى يغلف

السيارة كلها لاح البحر على مبعدة، وتطلع إليه فى لهفة قائلاً إنه يعشق هذه المدينة ففيها ولد وقضى أيام صباه قبل أن يبدأ هذا كله، وارتفع البحر أمامنا حتى غطى صفحة الأفق بأمواج خضراء يغلفها زبد أبيض، ولانت قسمات الوجه الذى يبدو أحياناً كأنه من الجرانيت، وابتسمت عيناه فى عبث الأطفال وأشواقهم، وتلاشت آثار الجدرى كأنما بفعل السحر، عندما رفع رأسه يستنشق بلهفة الهواء الذى أتت نسماته مشبعة برائحة الأسماك، وأراح يده المقيدة على السلك قائلاً إنه أشرف على الخمسين لكن ما زال أمامه الكثير ، ورغم الهواجس لم يحدس أنه لم تتبق سوى أشهر قليلة.

❋ ❋ ❋

سمعنا هدير قلابة من خلفنا، فتنحينا جانباً حتى تمر. وأقبلت فى بطء تنوء بحملها من الصخور وقد أرتفع الشاكمان أمامها فى الهواء والتمع طلاؤها البرتقالى فى الشمس.

حاذتنا القلابة، فلوحت للسائق الذى كان يجلس فى مستوى رؤوسنا. وقال سعيد إنه لا يعقل أن يقف لنا. واصلت السيارة مسيرها لكن سرعتها بدأت تتناقص حتى وقفت أخيراً على مبعدة ربع كيلو.

جرينا حتى بلغناها ونحن نلهث. ووقفنا إلى جوار إطارها الذى تجاوز ارتفاعه قامتينا. تطلعنا إلى السائق الذى بدا عالياً للغاية. وهتف قائلاً إنه ذاهب حتى ممرات التفتيش فقط.

ارتقينا سلماً حديدياً صغيراً من عدة درجات، وعالجت الباب فلم ينفتح. فكرت فى الدخول من النافذة وكدت افعل. لكن السائق مال نحوى ومد ذراعاً قوياً مغبرة، فَفُتح الباب.

ترنحتُ موشكاً على السقوط، ثم تهاويت فوق صندوق حديدى صغير بجوار قدمى السائق. انكمشتُ فى مكانى مفسحاً مكاناً لسعيد. وواصلت العربة سيرها وهى ترتج بصورة متواصلة.

راقبتُ يدى السائق اللتين قبضتا على المقود الكبير فى قوة. كانت عروقهما

نافرة من أثر الجهد الذى يبذله للسيطرة على القلابة.

قال سعيد متودداً إليه: الله يكون فى عونك، كأنك بتحرك جبل.

لم يرد السائق بشيء وضغط البوق الذى كاد صوته يصيبنا بالصمم.

عاد سعيد يقول: هو كل حاجة الروس كده، تطهق.

قال السائق: دى رولز إنجليزى مش روسي.

قال سعيد: وأيه اللى جابها هنا؟

قال السائق: أهوه فى ناس تحب تشترى من بره بالعملة الصعبة.

قال سعيد: يمكن تكون أحسن من العربيات الروسى.

هز السائق كتفيه: مفيش فرق كبير.

قال سعيد بعد لحظة صمت: أظن الحكاية دى مزعلة الروس؟

- أكيد. تعرف عملنا أيه لما جه خروشوف؟ دهنا كل العربيات الإنجليزى باللون الأخضر بتاع العربيات الروسى.

تسائل سعيد فى دهشة: ليه؟ عشان ميزعلش لو شافها؟ يعنى هو مش عارف؟

- تلاقى الروس اللى هنا مخبيين عليه.

وصلنا النقطة التى يبدأ عندها جسم السد، فدار السائق إلى اليسار. ومضى بصعوبة فوق الطريق الترابى. وبعد قليل أوقف القلابة قائلاً أنه سيهبط إلى جوار ممرات التفتيش ومن الأفضل أن نغادره هنا.

غادرنا السيارة، ووقفنا نراقبه يدير المقود فى جهد وقد مال فوقه بكل جسده. واستدارت القلابة إلى اليمين، ثم هبطت إلى مستوى آخر من جسم السد فى الطريق إلى ممرى التفتيش.

واصلنا السير حتى نهاية جسم السد، واتجهنا إلى محطة الكهرباء ونحن نتطلع حولنا فى كل خطوة. عبرنا جسراً يطل على قطار تزاحم العمال من حوله. واعتلوا سطحه حتى كاد يختفى أسفل القمصان الملونة، والجلاليب والعمائم واللبد والقبعات والبيريهات.

توقفنا بجوار أحد رجال البوليس الحربى، وأراه سعيد بطاقته الصحفية

طالباً معونته فى إيجاد سيارة لنا، فأوقف الجندى عدة سيارات لكن واحدة منهم لم تكن ذاهبة فى طريق الاستراحة.

مرت بضع دقائق لم تظهر فيها سيارة واحدة. اعتمدت بظهرى على عمود خشبى شاعراً بإنهاك شديد. ولمحت طرف ورقة بيضاء لصقت بجوار رأسى على العمود قرأت عليها بياناً بتوقيع الوزير يحذر من قراءة مجلة الصداقة التى توزعها السفارة الأمريكية.

أقبلت علينا شاحنة إنجليزية خفيفة من طراز تايمز ذات مقدمة ضيقة للغاية. أشار لها الجندى فأوقفها سائقها على مبعدة عدة خطوات. وتقدم الجندى من الشاحنة وانحنى على نافذتها. ثم أشار لنا بالاقتراب قائلاً إن الشاحنة ستذهب إلى أحد مراكز التجريف أولاً وبعد ذلك، تذهب فى اتجاه الاستراحة.

تكومنا أنا وسعيد فى الحيز الضيق الذى ترك بجوار السائق. وانطلقت الشاحنة فى سرعة وخفة. ودارت فى عدة منحنيات وإذا بنا نتجه إلى جسم السد من جديد. وعندما أشرفنا عليه اتجه السائق إلى اليسار فى طريق شبه مهجور. ومضى فى سرعة شديدة حتى بلغنا حوضاً واسعاً من المياه احتلت أكوام الرمال جانباً منه، فتوقف وغادرنا الشاحنة.

قال سعيد: هنا تبدأ تلك المواسير التى كنت تبحث عن سرها.

تطلعت إلى ساعتى فوجدتها أوشكت على الرابعة. قلت اخشى أن يكون طعام الغذاء قد ضاع علينا.

قال: لا تقلق. ليس هناك وقت محدد للوجبات بسبب الورديات المختلفة.

حولت بصرى إلى الحوض. كانت هناك رشاشات قوية من المياه مسلطة على الرمال بحيث تجرفها إلى أسفل. وكان خليط من المياه والرمال ينحدر إلى فتحتى ماسورتين ضخمتين وقف أمامها عدد من الصعايدة مشمرى الجلاليب، ينتقون الأحجار الصغيرة من الخليط ويقذفون بها بعيداً.

عاد السائق بصحبة عدد من العمال يحملون صناديق خشبية وعندما فرغوا من وضعها فى مؤخرة الشاحنة، قفز إلى مقعده فتبعناه. وانطلقت الشاحنة فى الطريق الذى

جئنا منه.

أرحت رأسي على مسند المقعد. ونقلت ثقل جسدى من فخذ إلى آخر بعد أن تصلب الأول. وأوشك الثانى أن يتصلب أيضاً عندما توقف السائق على مقربة من الاستراحة.

مشينا فى تثاقل حتى الباب. ومضينا فى الممر الرطب المؤدى إلى حجرتنا، ففتحتها. واتجهت على الفور إلى جهاز التكييف، فأدرته. ثم تناولت ملابس نظيفة من حقيبتى وذهبت إلى الحمام. كان ماء الدش شديد السخونة. وتجمع تحت قدمى فى لون الطين.

أحضر لنا فقير ليموناً مثلجاً فى الترموس. وسمعته ينعى لسعيد أخلاق هذه الأيام. قال إنه رأى بنفسه الفستان القصير فى أسوان.

مضى سعيد إلى الحمام، فتناولت منشفتى وطردت بها الذباب. ثم أغلقت مصرعى النافذة وصببت لنفسى كوباً من الليمون. جلست أرتشفه على حافة الفراش بعد أن أشعلت سيجارة.

عندما جاء سعيد غادرنا الحجرة إلى صالة الطعام. وكان بها عدد من المهندسين الشبان يأكلون فى صمت.

اخترنا مائدة بالقرب من الباب أملاً فى نسمة هواء. وأقبلنا على الطعام فى شهية. ولحظت أحد الجالسين يراقبنا فى اهتمام. كان أصلع الرأس ذا شارب كث. وعندما التقت عيناه بعينى، أبعدهما واستغرق فى الأكل. لكنى شعرت بعينيه بعد لحظة مسلطتين علينا.

فرغنا من الأكل فأسرعنا إلى الغرفة. واستبدلنا ملابسنا بالمنامات. واستلقى كل منا فى فراشه يدخن. وسرعان ما غفونا.

استيقظنا بعد ساعة، ونادى سعيد على فقير. وأعطاه الترموس ليحضر لنا قهوة من النادى. قلت إنى أفضل الشاى. قال سعيد إن شاى النادى كالماء ولا بد أن نشترى شاياً ونعده بأنفسنا. قال فقير إن نوع الشاى الذى نريده غير متوفر فى الموقع وربما وجدناه فى "كيما"، أو أسوان.

كانت سجائرنا قد فرغت فأقترح سعيد أن ننزل إلى كيما لشراء الشاى والسجائر. ثم نذهب إلى السينما.

شربنا القهوة، وارتدينا ملابسنا فى اعتناء، ووجدنا فقيراً واقفاً على باب الاستراحة. تطلع إلى ملابسنا ثم قال إننا تأخرنا. ولو كنا بكرنا قليلاً، للحقنا بالسيارة المخصصة للمهندسين التى تقلهم كل مساء، ليسهروا فى أسوان، وتعود بهم فى منتصف الليل.

انطلقنا إلى الطريق العام، ووقفنا على جانبه ننتظر. كان هناك غيرنا من المنتظرين، ميزت من بينهم الأصلع الذى راقبنا باهتمام فى المطعم. وكان يقف مع شابين متأنقى الملابس.

مرت بنا عدة سيارات دون أن تقف كالعادة. ومرت سيارة جيب من أمامنا ثم توقفت عل مبعدة. وتحفز الواقفون للحاق بها. لكن أحدهم كان اسبقهم للحركة. وبدا أنه على معرفة بسائق السيارة. وتبعه الباقون فى حسد وهو يقفز إلى السيارة التى استأنفت سيرها.

لمح سعيد أحد جنود البوليس الحربى، فتقدم منه وأراه بطاقته. وشعر بعض العمال الواقفين بما سيحدث فدنوا منا. لكن الجندى نهرهم فابتعدوا فى بطء.

تطلع الجندى فى بطاقة سعيد، ثم طلب منا فى أدب أن ننتظر على جانب. وتحول يراقب الطريق. وعندما لمح سيارة مقبلة تحمل شارة القطاع العام تراجع خطوة، ومد إصبعه السبابة إلى الأمام فى مستوى السيارة، وحركه فى هدوء وحزم.

توقفت السيارة قبل إصبعه بنصف متر، فتقدم فى بطء من نافذتها. وتبادل مع السائق بضع كلمات. ثم طلب منه أن يفتح باب السيارة. وتطلع داخلها ثم تراجع مبتعداً وأشار له بالانصراف.

اقترب الجندى منا، وقال لسعيد أنه لابد من تفتيش كل سيارة تغادر الموقع، فمحاولات السرقة لا تتوقف. وأضاف: لا تقلقا. سأجد لكما مكاناً حالاً.

ظهرت إحدى السيارات التشيكوسلوفاكية الضخمة التابعة للشركة. وبدا سائقها واضحاً خلف واجهتها الزجاجية العريضة.

كرر الجندى الإشارة الموجزة من إصبعه، فتوقفت السيارة.

تطلعت خلفى بحثاً عن الأصلع، فرأيته يقترب مع زميليه من السيارة. خاطب الجندى السائق ملقباً إياه بالحاج. وقال إننا صحفيان ونريد الذهاب إلى كيما، فهتف بنا السائق بصوت جهورى أن نصعد. ومد يده إلى باب السيارة المغلق وفتحه لنا.

صعدت يتبعنى سعيد، وجاء فى أعقابنا عامل صعيدى ذو شارب ضخم يرتدى جلباباً ملوناً. وعندما حاول أن يصعد خلفنا مباشرة، جذبه الجندى من ذراعه، وسأله عما إذا كان قد سمح له بالصعود.

توقف الصعيدى واجماً. ورفع الجندى يده وهوى بها على قفاه. ثم سأله عن بلده، فقال وقد انحنى رأسه تحت كف الجندى إنه من قوص.

تقدم الشاب الأصلع من باب السيارة يتبعه زميلاه. وأفسح الجندى لهم الطريق وهو يصيح فى الصعيدى أن أهالى قوص جميعاً لصوص.

هتف بنا السائق: تفضلوا جوه. مد يده فأغلق الباب. وانتقل الأصلع إلى داخل العربة المزدحم. وبقيت أنا وسعيد خلف السائق.

أشار الجندى للسائق بالانطلاق دون أن يلتفت إليه. تحركت السيارة، فتطلعت إلى الخلف. رأيت الجندى يمد يده محاولاً جذب شارب الصعيدى.

سألنا السائق عن الصحيفة التى نعمل بها قائلاً إنه يراسل صحيفة يومية، وأضاف أنه يرأس نقابة العمال فى الشركة، ولجنة الاتحاد الاشتراكى فيها، وأنه حصل على ستة آلاف صوت فى انتخابات الاتحاد الاشتراكى.

سأله سعيد عما إذا كان أجره يكفى لتغطيه كل هذه النشاطات. قال إنه لا يشكو من شئ، وإنه يملك قطعة أرض فى قرية أبى الريش المجاورة.

قلت لسعيد على مسمع السائق: الحاج نموذج مشرف للعاملين فى السد، ولا بد أن نكتب شيئاً عنه.

أمن سعيد على قولى، وقال إنه يفكر بالفعل فى ريبورتاج كبير. ثم تحول للسائق وسأله عما إذا كان سيعود الليلة إلى الموقع. أجاب الحاج فى حماسة أنه سيعود بوردية منتصف الليل. وقال إنه على استعداد أن ينتظرنا فى أى مكان نحب، فاتفقنا

على أن نلتقى أمام كيما.

أشرفت السيارة على عمارات كيما المتوازية. ومررنا بمبنى من طابقين تجمع بعض الناس على سطحه. وقال السائق إنه النادى الروسى.

غادرنا السيارة بعد النادى بقليل، ورأيتُ أحد زميلى الشاب الأصلع يغادرها خلفنا ثم يعبر الطريق إلى الناحية الأخرى من العمارات.

تابعت السيارة ببصرى عندما استأنفت السير، والتقت عيناى بعينى الأصلع الذى بقى فيها.

مشينا باتجاه السيارة، بحذاء صفوف من العمارات الأنيقة. كانت الحدائق الواسعة تفصل بينها. وعلى أبوابها تجمعت حلقات من السيدات الروسيات. كان بوسعى أن أتبين بشرة سواعدهن وسيقانهن التى لوحتها الشمس.

شعرت بملمس ملابسى الداخلية النظيفة على جسدى الجاف. ولفح الهواء الساخن بشرة وجهى.

مرقت بجوارنا سيارة جيب مكشوفة مستطيلة الجسم عن المألوف. كان يقودها رجل بدين يرتدى جلباباً، جلست بجواره امرأة فى مثل حجمه. كانت تكتسى جلباباً بلدياً، وتغطى ساعديها حتى المرفقين بالأساور الذهبية.

قال سعيد إن الرجل هو المتعهد الذى يمد السد بآلاف الأنفار. وإنه يأخذ على كل نفر منهم خمسة قروش فى اليوم.

عبرنا خطاً حديدياً إلى الجانب الآخر الذى يسكنه موظفو شركة كيما. وتطلعت خلفى إلى النادى الروسى. كانت الأضواء قد سطعت على سطحه. وترامت إلى مسامعنا أصداء موسيقى راقصة تنبعث منه.

اشترينا الشاى والسجائر من مجمع تعاونى كبير. واتجهنا إلى السينما، وعندما وجدنا الفيلم مصرياً أقترح سعيد أن نزور صديقاً له يعمل فى مصنع السماد.

مشينا فى الظلام بين المجمعات السكنية. كانت أغلب نوافذها مظلمة. وبين الحين والآخر كانت نسمة هواء تحمل إلينا صوت الموسيقى. ثم تمتد ثغرة بين صفين من المبانى. ومن خلالها يتبدى النادى الروسى شعلة من الضوء.

تطلعتُ خلفى إلى الشارع الذى جئنـا منـه، ودققـت النظـر. لكنـى لم أتـبين أحداً يقتفى أثرنا.

طرقنا باب المسكن الأرضى فى إحدى العمارات. وفتح لنا رجل فـى ملابسـه الداخلية يتصبب العرق من وجهه. ثم قال إننا أخطأنا العنوان.

سرنا حتى نهاية الصف. ودخلنا العمارة المماثلة فى الصـف التـالى. وجـدنا الاسم الذى نبحث عنه مسجلاً بالقلم الرصاص على الباب. لكن أحداً لم يستجب لطرقنا.

عدنا أدراجنا إلى الشارع نفسه الذى أتينا منه. والتقينا بالرجـل الـذى فـتح لنا أول الأمر. كان يؤدى بعض التمرينات الرياضية فـى الظـلام أمـام المنـزل. واصـلنا المشى فى اتجاه الشارع العام. وعندما بلغناه تحولنا إلى اليمين. وسرنا إلى جوار الخـط الحديدى فى اتجاه بقعة الضوء المنبعثة من النادى الروسى.

عبرنا الخط الحديدى أمام النادى واقتربنـا مـن مدخلـه. كانـت لـه حديقـة واسعة صفت بها الموائد التى التف حولها الشبان والفتيات الروس.

التقينا عند الباب بياكونوف فى طريقه إلى الخارج. كان يحمل عدة كتب فى يده اليسرى ويضع اليمنى على ورم ظاهر فى فمه.

قال باللغة العربية مشيراً إلى فمه: واحد كسورة. ثـم أضـاف بالإنجليزيـة إنه متعب، وسيذهب إلى منزله. وأشار إلى الداخل قائلاً: موجنا .. باجلستا.

سأله سعيد عن موعد الغد، فقال إنه سيكون أحسن حالاً وسينتظرنا. ودعنـا وأنصـرف، فاجتزنـا الحديقـة إلى بـاب زجـاجى. ودلفنـا إلى قاعـة واسـعة ازدحمـت بالجالسين. وأقيمت فى جانـب منهـا منصـة، صـفت خلفهـا صناديق الميـاه الغازيـة والبيرة. وفى الجانب الآخر كان هناك درج يؤدى إلى الطابق الأعلى الذى انبعث منـه صوت الموسيقى.

اتجهنا إلى منصة المشروبات، فابتعنا من شاب نوبى زجاجتى بـيرة. حمـل كل منا زجاجة وكوباً، ووقفنا نتلفت حولنا بحثاً عن مكان. ولمح سعيد مائـدة جلسـت عليها سيدتان روسيتان وبجوارهما مقعدان خاليان فهمس:

– تعال

تقدمنا من المائدة. وانحنى سعيد لهما مستأذناً بالإنجليزية فى الجلوس. فهزت إحداهما كتفيها، وأشارت بيدها إلى المقعدين كأنما الأمر لا يعنيها. فوضعنا الزجاجتين والكوبين على المائدة وجلسنا.

كانت المرأة فى مقتبل العمر ذات شفاه ممتلئة وشعر ذهبى. وكان رداؤها أحمر اللون من طراز قديم. أما زميلتها فكانت ذات ملامح أسيوية مجردة من الجمال، شعرتُ بالأنظار تتجه إلينا، فملأت كوبى ورفعته إلى فمى. خاطب سعيد ذات الرداء الأحمر. فضحكت برقة وقالت وهى تهز كتفيها : انجليسكى نبيت.

وتحولت تستأنف الحديث مع زميلتها.

قال لى سعيد: ماذا نفعل الآن؟

قلت: لا شئ.

أخذت أرتشف كوبى وأنا أتأمل شفتى ذات الرداء الأحمر. كانت منطلقة فى الحديث مع زميلتها دون أن يتلاشى الابتسام من وجهها الذى تتابعت على صفحته عشرات الانفعالات.

نقلت بصرى إلى ساعديها العاريين من أول الكتف. تأملت شعر إبطيها الذهبى.ومضيت أنصت إلى صوتها. ولأول مرة لاحظت ما فى مخارج الألفاظ ونهايات الجمل الروسية من إيقاع موسيقى. وكنت فى البداية أشعر بها كقطع الصخر.

كفت عن الحديث، ووقفت. ترددت لحظة ثم تحولت إلينا وقالت: دا ازفدانيا. وابتعدت تتبعها زميلتها.

تابعناها بأعيننا حتى غادرت القاعة. لحظت أن المكان شرع يخلو من الجالسين. ولم تعد الموسيقى تصدح فى الطابق الأعلى بينما ازدحم الدرج بالمنصرفين.

كانت الساعة قد بلغت العاشرة والنصف فأفرغنا زجاجتينا، وغادرنا النادى. مشينا فى بطء باتجاه السينما. ورأينا زحاماً أمامها. كان العرض قد انتهى. وما لبث الزحام أن تلاشى. ولمحت نبيل يتحدث مع شاب أسمر يقف مستنداً إلى دراجة. ثم امتطى الشاب دراجته وجلس نبيل أمامه. ودار بالدراجة فى الطريق إلى أسوان. وعندما مر من أمامنا تبينت أن الشاب لم يكن عويس.

مضينا عائدين إلى مكان موعدنا مع الحاج. وقفنا ننتظر صامتين. وما لبثت السيارة الصفراء الطويلة أن أقبلت علينا، وتوقفت أمامنا.

كانت السيارة ممتلئة بالعمال. لكنه كان قد حجز لنا مقعدين خلفه. وقال بعد أن استأنف السير إنه أحضر صورة له فى أحد اجتماعات الاتحاد الاشتراكى، ليستخدمها سعيد فى مقاله.

تناول سعيد الصورة ووضعها فى مفكرته. وأخرج قلمه وسطر بضع كلمات فى إحدى صفحاتها. ازدادت حماسة الحج عندما رأى سعيد يكتب، فجعل يصف تأييد العمال له وهو يراقب سعيداً فى المرآة المجاورة له ليتأكد أنه يكتب ما يقوله.

كانت العربة صامته، تنصت لصوت الحاج الجهورى. وكان يتحدث الآن عن الشركة وجهودها فى خدمة العمال. ولمحت فى المرآة جانباً منهم يتطلعون إلينا.

ظهرت أنوار الموقع أخيراً. واجتزنا الجامع، فاستعددنا للنزول. لكن الحاج أصر على أن يأخذنا إلى باب الاستراحة. وقاد سيارته الضخمة فى الطريق الصاعد المؤدى إليها.

دخلنا المطعم لنتناول العشاء. وتوقعت أن أجده فارغاً. لكننا وجدنا عدداً من الآكلين. كان أغلبهم ما زال فى ملابس بعد الظهر الأنيقة وقد تجعدت الآن وفقدت طزاجتها. وعادت وجوههم التى بدت منتعشة مترقبة فى العصر إلى سابق تجهمها.

اغتسلنا، واتجهنا إلى حجرتنا. وأدار سعيد جهاز التكييف، بينما استبدلت ملابسى. استبدل هو الآخر ملابسه. وارتمى كل منا على فراشه.

مد يده إلى حقيبته أسفل الفراش وتناول منها إحدى المجلات. سألته عنها فقال إنها "بلاى بوى".

أشعلت سيجارة بينما كان يقلب صفحات المجلة. قال بعد لحظة إنه يتمنى أن يحصل مرة على واحدة من هاته النسوة اللاتى تظهر صورهن فى المجلة.

وضع المجلة على ساقيه، وسألنى عن علبة الثقاب. قذفت بها إليه، وأشعل سيجارة.

قال: أتعرف ما هو أروع شئ بالنسبة للرجل المتزوج؟

قلت: أن يقضى ليلة واحدة مع امرأة أخرى.

قال: أبداً .. أن ينام ليلة بمفرده.

قلت: لم اجرب.

قال: لا أدرى لماذا لم تتزوج حتى الآن.. لعلك مازلت تنتظر الفتاة التى يخفق لها قلبك من أول نظرة؟

قلت: ربما .. أنت تعرف أنه لم تتح لى فرصة.

قال: غلطتك. قل ماذا كسبت؟

قلت: أشياء كثيرة.

قال: يبدو أن الناس تقدم على الزواج عندما لا تجد شيئاً آخر تفعله.

طلبت منه أن يرمى لى بعلبة الثقاب. وأشعلت سيجارة، بينما عاد يتصفح صور المجلة العارية.

قلت بعد أن انتهيت من سيجارتى إنى أريد أن أنام. ولا أستطيع النوم فى الضوء، قال إنه سينتهى بعد قليل. فانقلبت على وجهى ودفنت رأسى فى الوسادة.

***

كان النور يطفأ دائماً فى ساعة محددة كل ليلة. وأحياناً يكون الحرمان منه تاماً، وعندما تسمح الظروف يجرى البحث عن وقود، وبالسجائر تشترى بضع قطرات من السائل الزيتى الذى يطفو على سطح جردل الطعام، وتصنع من أطراف الملابس شرائط تغمس فيه، ليتوهج الضوء بعض الوقت فى الزنازين، ثم يسود الظلام الحالك، ويتفتت الجسد إلى ألف قطعة، أو هى الرأس التى تتفتت، وما كان يبدو مستحيلاً وبعيداً عن التصديق فى ضوء النهار، يصبح من الممكن، ثم المحاولة المستميتة لجمع شتات من العالم الآخر البعيد، كى تستوى فى النهاية امرأة حانية سمراء حيناً، وبيضاء حيناً آخر لكنها ذات جسد حار لا يرتوى أبداً، ولكن فتات الجسد تتوق لأن تتجمع من جديد بين ذراعى جسد آخر ملموس، والأقرب إلى الحواس أحد هؤلاء الذين تتردد أنفاسهم فى هذا الليل، ذلك الصبى الوسيم فى عنبر النشالين الذى كان اللومنجى المسجون إلى الأبد يقرصه من

شفتيه، أو الآخر الذى اتضحت تفاصيل فخذيه عندما انحنى ينظــف الأرض، أو ثالث اقتربت ساقه عفواً عندما تقلب على جانبه، والأفضل أن يكون المرء حشاشــاً أو قاتلاً، ليستطيع أن يفعل مثل اللومنجى المسجون إلى الأبد، ولم يبق غير جز الأســنان فى ظلام الليل حتى يحل سلطان النوم الرحيم أو يبزغ الفجر قبل موعده،

❋ ❋ ❋

اعتدلتُ على ظهرى. كان النور ما زال مضاء، وسعيد ما زال يقلب صفحات المجلة. أغلقت عينى، وغفلت برهة، ثم خيل إلى أن النور قد انطفأ ففتحتهما. لكن سعيداً كان ما يزال يقرأ. أغلقت عينى من جديد، وحلمت أنى مع "صوفيا لورين". كان صدرها عارياً. وفهمت من نظراتها أننا كنا فى الفراش منذ قليل. ثم استيقظت على صوت فقير، ورأيته واقفاً وسط الحجرة وقد سطعت الشمس فى أنحائها.

قال إن هناك سيارة تنتظرنا فى الخارج، فقال سعيد وهو يقفز من فراشه إنها سيارة عباس ولا شك. أسرعنا نغتسل ونرتدى ملابسنا، ثم تناولنا إفطارنا، وخرجنا إلى الطريق.

كانت السيارة صغير من طراز فيات/نصر 1100. وكان السائق فى مكانه، يقرأ إحدى الصحف. ودون أن يتحرك مد ذراعه خلف مقعده، وأزال رتاج الباب الخلفى: بينما استقر سعيد إلى جواره.

عين له سعيد وجهتنا. وأخرج مفكرته وجعل يكتب قائمة بالأسئلة التى سيوجهها إلى ياكونوف. وسألت السائق أن يعطينى الصحيفة، فناولها لى.

كانت الصحيفة مطوية على صفحة تتصدرها صورة كبيرة لجسم السد، كتب تحتها "السد الإنسان، صنع كل هذه القصص الإنسانية". قلبتُ الصفحات بحثاً عن العمود الخاص بدرجات الحرارة. ووجدتها فى القاهرة 34 وفى أسوان 42.

عدت إلى موضوع القصص الإنسانية. كان كاتبه يقول إن كل من يعمل فى السد يستطيع أن يقوم بإجازة حينما يشاء، لكن أحداً لا يرغب فى ذلك. وكل سائق أعطى ترمساً للشاى. كما زود بوسادة من المطاط تمتص العرق، وتجنبه الإصابة بالروماتزم، وبنظارة أنيقة تحمى عينيه من وهج الشمس.

سألنى السائق بغتة وهو يتطلع إلى فى مرآته إذا كنت قرأت موضوع القصص الإنسانية فأجبت بالإيجاب.

قال: أنت شفت سيادتك سواق لابس نظارة شمس، وشايل ترموس.

قلت: إنى لم أنتبه إلى شئ من ذلك.

قال: وحكاية الإجازات دى .. تعرف إن الوزير مانع الإجازات كلها؟

تصفحت بقية العناوين. توقفت عند صورة أسد ضخم وقرأت أسفلها أنه بكى من التأثر فى مطار القاهرة عندما وضعوه فى طائرة مغادرة.

توقف السائق أمام مبنى حجرى من طابق واحد. وقال إنه سينتظرنا فى منطقة الظل المجاورة. ووجدنا ياكونوف ينتظرنا فى أول مكتب دخلناه.

كان ورم خده قد اختفى. رحب بنا فى ود وهو يبتسم. ثم استأذن منا وانطلق يبحث عن مترجم. وعاد بعد لحظة قائلاً إن زولوجدين سيلحق بنا.

تبادلنا بضع عبارات. كان ينتقل من الروسية إلى الإنجليزية والعربية، ونحن نبتسم لما لا نفهمه من كلام، فيبتسم بدوره. وعندما لا يفهم شيئاً مما نقوله، يضحك فى خجل.

ظهر المترجم الشمئنط زولوجدين على الباب. واعتدل ياكونوف فى مقعده معلناً استعداده للأسئلة. فقرأ له سعيد قائمة طويلة.

ظل ياكونوف صامتاً حتى النهاية، ثم سأل لماذا لا يشمل برنامج سعيد القسم الذى يعمل به. قلت إننا لم نرى داعياً لذلك ما دام هو معنا ونستطيع أن نسأله عن أى شئ.

قال سعيد إنه تذكر شيئاً آخر وانه يريد أن يعرف العدد الإجمالى للروس فى المنطقة.

صمت ياكونوف برهة ثم قال فى صوت رسمى: مستر سعيد، بالنسبة للعدد سأكون بعد دقائق فى وضع يسمح لى بإخبارك.

وغادر الغرفة، ليصبح فى وضع يسمح له بإخبارنا بالعدد.

سأل زولوجدين فجأة عن عمرينا. وعندما علم أننا لم نبلغ الثلاثين بعد، هز

رأسه وقال بمرارة: لا يعرف أحد مزية هذه السن إلا عندما يصبح في الأربعين مثلي.

استفسرت عن حياته العائلية فقال إنه كان متزوجاً. وقال إن لديه ابنة في السادسة عشرة وإن له في مصر ثلاثة شهور فقط.

سألت: وإلى متى ستبقى؟

قال: لا أعتقد أنى سأتحمل الوحدة هنا أكثر من عام.

شعرت بدوار مفاجئ، وجفاف في حلقى. سألت زولوجدين عما إذا كان في إمكاني أن أشرب شاياً. قال إنه لا يعرف وإننا سنتحرك على أية حال عندما يعود ياكونوف.

جاء ياكونوف بعد دقائق يحمل بعض الأوراق. وبدا سعيداً لأنه استطاع أن يفعل لنا شيئاً. شرع يقرأ عن طريق المترجم بعض البيانات، ثم قدم لسعيد بقية الأوراق التي كانت بالإنجليزية. وقال إنه سيأخذنا الآن في جولة بالسيارة، لنرى بعض أنحاء الموقع. قال سعيد كنا نود أن نزور أولاً مركز التدريب الذى تديره مهندسة روسية.

قال ياكونوف: سنفعل لكن ليس اليوم، فلا بد أولاً من الاتصال بالمركز، وتحديد موعد وهذا يستغرق يوماً أو يومين. قلت إننى أشعر بالتعب وأفضل العودة إلى الاستراحة. غادرنا المبنى، وتركتهم ينتظرون في سيارة ياكونوف، وصعدت إلى سيارة عباس.

استدار السائق عائداً في الطريق المؤدى للاستراحة. سألني بعد قليل عن اسم سعيد بالكامل، فذكرته له. عاد يسألني بعد برهة: هو ده اسمه الحقيقى؟

قلت: قصدك أيه؟

قال: أنا عرفته من صورته في المجلة إللى بيكتب فيها باسم فتحى قراع.

قلت: فتحى قراع واحد تانى، وإن كانوا يشبهون لبعض.

قال بإصرار إن فتحى قراع يتنكر دائماً عندما يكتب تحقيقاته، وإنه تنكر مرة ليدخل السجن.

قلت إن دخول السجن لا يحتاج إلى تنكر.

قال إنه ينشر الآن حلقات عن الطفل الذى يتلاشى. سيادتك تصدق الحكاية دى؟

أجبت: مش عارف.

قال: مرة قريت فى موضوع عن سواق زميلنا اسمه عبد الفتاح. زميلنا وصاحبنا وكل يوم إحنا فى بيته. تبص تلقى المجلة ناشرة صورة شقة فخمة فيها بوتجاز وثلاجة وقال دى شقة الأخ عبد الفتاح.

أسندت رأسى إلى مسند السيارة، وأغمضت عينى. لكن الدوار الذى كنت أشعر به لم يتوقف، واضطرتنى المطبات المتتابعة إلى أن أبعد رأسى عن المسند.

استمر السائق يروى لى ذكرياته بلهجة ساخرة. حكى عن ماجدة عندما جاءت تصور فيلماً عن السد. وقامت بدور مضيفة سياحية فى لنش قادم من أبى سنبل.

قال: تعرف ليه؟ علشان تقابل على اللنش إيهاب نافع وتحبه لأنه بيبنى السد.

وصلنا إلى الاستراحة، فاتجهت إلى غرفتى على الفور. طاردت الذباب، وأظلمت الغرفة. ثم أدرت جهاز التكييف، ووضعت ملعقتين من الشاى فى الترموس، وناديت على فقير.

طلبت منه أن يحضر لى ماء مغلياً فى الترموس، فتناوله واتجه إلى الباب وعندما بلغه، تحول إلىّ، وقال إن شخصاً سأل عنا فى الصباح.

سألت: مين؟

قال: واحد بيشتغل فى الشركة اسمه صبحى.

قلت: عاوز أيه؟

قال: الاسامى بس. قلت له إنى معرفش اساميكم الكاملة، فقال إنه حيرجع بعدين.

سألته عما إذا كان الرجل أصلع الرأس ذا شارب كث، فأجاب بالنفى.

غادر الغرفة، وبقيت ممدداً أتطلع إلى الباب. ثم انحنيت على حافة الفراش. وأخرجت من حقيبتى قرصين من الأسبرين. وعندما عاد فقير بالشاى،

أفرغت لنفسي كوباً، وابتلعت القرصين، ثم أتبعتهما بقرص نوفالجين.

تناولت الترانزيستور وبحثت عبثاً عن برنامج موسيقي، فأعدته إلى مكانه بجوار كتاب "مايكل أنجلو" وأشعلت سيجارة. كان مذاق الدخان مراً، فأطفأت السيجارة في المنفضة.

تناولت الكتاب، ولبثت برهة أحدق إلى السقف. شعرت بمفاصلي مفككة، وبالإرهاق التام، فاستسلمت للفراش.

❋❋❋

خيم شبح "سافونارولا" القاتم على المدينة المترفة التى يتحلق حكامها حول "لورانزو" العظيم، يستشفون بعقولهم أسرار الكون، ويستمعون إلى كلماته. دون ذهن حر ونشيط وخلاق ليس الإنسان غير حيوان. ولا بد أن يبقى مستقلاً فى تفكيره، ولا يُربط إلى نظرية جامدة كالعبد، فيتعفن فى قيودها. لكن عينى الراهب تلمعان بشهوة السلطة وتنظيم العالم. وها هو يرتقى المنصة بجهد من أثر الصوم المتصل، ويصيح فى الآلاف الذين تدافعوا ليسمعوه أنه يتكلم بلسان الله، وأنه صوت الرب عل الأرض. وتسرى في الجموع رعدة، ويقشعر جسد النحات. الدعوة الجديدة تنتشر كالنار، والناس ينضمون إلى الراهب أفواجاً، "وبوتشيلى" يستنكر رسوماته العارية، ويلقى بلوحاته إلى النار التى أقامها جيش القمصان البيضاء. لكن النحات رأى خلاص روحه فى فنه. وظل يردد لنفسه قول "لورانزو" إن قوى التدمير تسير فى أعقاب الإبداع والخلق وإذا بـ"لورانزو" نفسه يستسلم على فراش الموت ويطلب غفران الراهب. وبعد سنوات معدودة أجبروا الراهب على الاعتراف قبل إعدامه بأنه اختلق تلقين الوحى الإلهى . واهتز النحات من الأعماق ثم عاد إلى عمله. فقد أصبح الصخر هو الشيء الوحيد اليقينى فى عالم تسوده الفوضى.

❋❋❋

اشتد بى الدوار، فأغمضت عينى وغفوت. استيقظت بعد ساعتين، فوجدت أن سعيداً لم يعد بعد، كان حلقي شديد الجفاف، فتناولت كوباً من الشاي، واستأنفت النوم.

استيقظت مرة أخرى على ضجة شديدة. كان الظلام يسود الغرفة لكن شعاعاً من الضوء كان يتسلل من بابها المفتوح. ورأيت فى فرجته شخصاً يتحسس الجدار بيده بحثاً عن مفتاح النور. سمعته يسب، فتبينت أنه سعيد.

عثر على المفتاح أخيراً وأداره. تطلعت إلى ساعتى فألفيتها قد تجاوزت العاشرة.

أغلق الباب، وتقدم إلى منتصف الحجرة. لحظت أنه يترنح قليلاً. اعتدلت جالساً وأدليت قدمى من الفراش قائلاً: يبدو أنك قضيت وقتاً طيباً.

ألقى بحافظة أوراقه الجلدية على فراشه، وشرع يفك أزرار قميصه: لا بأس. وأنت؟

– لم أغادر الغرفة طوال اليوم.

– أما زلت تشعر بالتعب؟

– قليلاً . لكنى الآن أحسن حالاً.

ألقى بقميصه على مقعد وقال: شربت اليوم كمية كبيرة من البيرة.

قلت: مع الروس؟

– فى الأول ذهبت مع ياكونوف إلى كازينو على النيل. ودخلنا فى سباق على الشرب حتى كدت أفقد الوعى. وبعد ذلك، التقيت بمجموعة رائعة من الشبان المصريين، فشربنا معاً.

– مهندسون؟

– كلا ملاحظون من الذين تدربوا فى الاتحاد السوفيتى. أكبر واحد فيهم لا يزيد على اثنين وعشرين سنة.

جلس على حافة السرير، وشرع يخلع حذاءه مستطرداً: ليتك سمعتهم. حماسة وثقة. تماماً كما كنا أيام الجامعة.

– كان بودى أن أكون معك.

– سألتقى بهم غداً. تعال معى لو أحببت.

غادرت الفراش، وتناولت الترموس، فقال سعيد إنه يشعر بصداع شديد، ويريد أن يشرب قهوة. أفرغت لنفسى كوباً من الشاى. ومضى هو إلى الحمام وسمعته

ينادى على فقير. وبعد لحظات، أحضر لنا شاب نوبى لم أره من قبل فنجاناً من القهوة. قال سعيد وهو يرتشف القهوة: كان يجب أن ترى عمالنا عندما رأونى فى الجاراج مع ياكونوف. كانت مظاهرة.

– كانوا يقرءون لك إذن.

– أبداً. أرونى مقال جريدة الصباح عن السد وهم يتساءلون إذا كانت مثل هذه الأكاذيب تصح.

– وبماذا أجبت؟

– ماذا كنت سأقول؟ أريتهم بطاقتى حتى يتأكدوا أنى لا علاقة لى بهذه الجريدة ومقالاتها.

– أتعرف ماذا قال لى السائق الذى ركبنا معه فى الصباح؟ إنه يعتقد أنك فتحى قراع متنكراً.

– الناس تخلط دائماً بيننا . شئ يقرف.

– لا أرى وجه للقرف.

– تظن أنه شئ يدعو إلى الفخر؟

أشعل سيجارة، واستلقى على الفراش.

قلت له بعد لحظة: على فكرة. هناك من سأل عنا اليوم.

قال: من؟

رويت له قصة فقير. استمع إلىَّ صامتاً ثم اعتدل جالساً وقال: أتظن...؟

هززت كتفى، فقام وسار بضع خطوات. ثم توقف فجأة، وتطلع حوله فى أنحاء الغرفة. وتوقفت عيناه على جهاز التكييف الذى كان يطن بصورة متواصلة. انحنى فوق الجهاز وصاح: لا شأن لى بأى شئ. ورفع رأسه إلى السقف ثم سار إلى الركن وهتف: والله العظيم أنا مع الحكومة.

بدأت أضحك، فتحول قائلاً: أنا أقول الحقيقة.

قلت: وهذا ما يضحكنى.

عاد إلى فراشه واستغرق فى التدخين.

قلت: لو حدث لنا شئ سيقتنع السائق بأنك فتحى قراع شخصياً.

– ماذا يمكن أن يحدث لنا؟

– أى شئ .

قلت بعد لحظة: أنا متشوق إلى مقالك القادم يا أستاذ قراع.

قال: لست أحب هذا المزاح.

قلت: كما تشاء.

تناولتُ الترانزيستور، وأدرت مؤشره حتى عثرت على برنامج موسيقى. قال سعيد إنه يريد أن ينام، وأن صوت الراديو يزعجه، فخفضت الصوت، وبدأت أنصت لأغنية فرنسية أحبها تبدأ بتصفيق هادئ. كرر سعيد أنه عاجز عن النوم، فأغلقت الجهاز، وأعدته إلى مكانه على المقعد المجاور لفراشى.

***

استيقظنا متأخرين فى اليوم التالى، وتناولنا إفطارنا فى صمت. وعندما سألت سعيد عن برنامج اليوم، قال إنه لا يشعر بالرغبة فى الذهاب إلى الموقع. واقترح أن نمر على عباس لنستعلم منه عمن سأل عنا بالأمس.

قلت إنى لا أعتقد أنه يعمل فى الشركة فاسمانا موجودان لديها.

لم يرد، وغادرنا المطعم إلى الحجرة. وضعت قبعتى على رأسى، وتناول هو كاميرته، وتطلع إلى عدستها، ثم سألنى إن كنت عبثت بها.

أجبت بالنفى، فقال إنه لم يفارقها لحظة بالأمس إلا عندما نام بعد أن ضبط العدسة على فتحة معينة. لكن أحد لعب بها وغير الفتحة.

قلت إنى لم أتحرك من فراشى طوال الليل، ولم أقترب منها. هز كتفيه، وعلق الكاميرا فى ذراعه، ثم انطلق إلى الخارج، وأنا فى أعقابه.

اتجهنا تحت الشمس الحامية إلى مكتب عباس. وسبقت سعيداً إلى كشك الصحف، فابتعتها. ألفيتُ العناوين الرسمية عن اعتقال عدد كبير من الأخوان المسلمين وهم على وشك القيام بإحدى مؤامراتهم. وكانت هناك صورة للأسلحة التى ضبطت معهم.

أعطيت سعيداً إحدى الصحف، ووقفنا فى ظل المدخل المؤدى إلى مكتب عباس. قرأنا أن الأخوان أعدوا خطة واسعة لاغتيال رئيس الجمهورية، وعشرات من الممثلين والمغنيين، كما وجدت معهم قائمة بأسماء عدد كبير من الشيوعيين وعناوينهم. وكانوا ينوون اغتيالهم أيضاً.

قلبت صفحات الجريدة بحثاً عن درجات الحرارة. وألفيتها بلغت فى أسوان 46 بينما لم تتعد 33 فى القاهرة.

لم نجد عباس فى مكتبه، وقال لنا زميل له إنه لم يأت اليوم، وإنه اتصل بالتليفون طالباً أن نذهب إليه فى فندق جراند أوتيل فى الساعة الواحدة.

كنا فى الحادية عشرة، ولكن سعيد أصر على الذهاب فوراً. فانطلقنا إلى جاراج الشركة، ولحقنا بإحدى سياراتها الذاهبة إلى أسوان. جلست أمام أثنين من العمال يدور بينهما جدال حام. كان أحدهما يهاجم الروس قائلاً إنهم لا يريدونا أن ننجز شيئاً بأنفسنا، وإننا نملك كفاءات مثلهم وأفضل. وسخر منه الآخر الذى كان يتكلم بلهجة صعيدية ومضى يروى حكاية طويلة أراد أن يثبت بها أن الروس لا يخفون عنا شيئاً من أسرار العمل.

قال سعيد عندما وصلنا إلى أسوان إنه سينزل أمام البريد، ليبعث ببضع خطابات. قلت إنى سأحلق شعر رأسى، ثم نلتقى فى الفندق. لم يرد، وغادر السيارة أمام البريد. ونزلت أنا أمام نادى التجديف الذى كان طابقه الأرضى يحتوى على حلاق حديث.

كان الدكان الصغير الأنيق مزدحماً بعدد من الجالسين يتسامرون مع الحلاق بينهم جندى فى ملابس عسكرية أنيقة. احتللت أحد المقعدين الخاليين المخصصين للحلاقة. وأرخيت جسدى مغمضاً عينى ومستمتعاً ببرودة جهاز التكييف.

أنصتُ إلى الجندى يحكى مغامراته فى اليمن، وعن سذاجة اليمنيين وبساطتهم. كان الحاضرون يضحكون بين الحين والآخر. ورأيت وجه الجندى فى المرآة ممتلئاً، حف شاربيه بعناية فوق شفتين داكنتين من أثر التدخين المتواصل. وراقبته وهو يخرج علبة معدنية مذهبة من إحدى جيوبه، ثم علبة سجائر أمريكية

من الجيب الآخر، صف محتوياتها فى العلبة المعدنية.

فرغ الحلاق من شعرى، فدفعت حسابى وخرجت مكرهاً إلى الطريق المشتعل.

انتقلت إلى الجانب الآخر، وألقيت نظرة على شاب وفتاتين من الأجانب استلقوا على العشب. ثم مشيت متثاقلاً إلى جراند أوتيل.

دفعت الباب الدائرى للفندق، ودرت معه إلى الداخل. كانت هناك حلقات عديدة من السياح يرتدى أغلبهم الشورتات. وقفت لحظة حتى ألفت عيناى وهج الشمس. ثم رأيت عباساً وسعيداً فى أحد الأركان ومعهم شاب نوبى نحيف.

قدمنى عباس إلى النوبى قائلاً: الأستاذ صيام مفتش الآثار.

جلست فى مواجهة القاعة أتأمل أفخاذ السائحات العارية. وسمعت النوبى يقول إنه سيتم إنقاذ جميع آثار النوبة ما عدا معبد "جرف حسين"، سأله سعيد عما إذا كان يستطيع الذهاب إلى "أبى سنبل" على باخرة الآثار، فتحولت إليه قائلاً إننى أيضاً أريد الذهاب.

قال إن هناك رحلة بعد أسبوع ومن الصعب تدبير أماكن لنا عليها، لكنه سيحاول.

دار حديث بين الثلاثة حول جنسية السائحات. ثم استأذن صيام فى مغادرتنا، فسألته عن كيفية الالتقاء به، فقال إنه يأتى إلى الفندق كل ليلة ليلعب البلياردو، أما مكتبه فبنادى التجديف.

قال عباس سيعذبكما قبل أن يجد لكما مكاناً. لكن الباخرة هى الطريقة الوحيدة للسفر إلى أبى سنبل الآن.

سألته: هل تعرف شخصاً سمه صبحى يعمل فى الشركة؟

قال: سعيد حكى لى. صبحى هذا لا يعمل فى الشركة وإنما فى المباحث. لقد أردت أن أقابلكما هنا، لأقول لكما إن المباحث تسأل عنكما.

قال سعيد: ليس لديهم على شئ.

قال عباس: لقد شوهدت معكما، وربما يعرفون أنى أعرف سعيد من مدة. ستحوم الشكوك حولى الآن.

قلت: أنا مستعد لمغادرة الاستراحة فى أى وقت.

قال: هذا لا يعنينى فلست أنا الذى وضعك فى الاستراحة. لكن الأفضل أن تنتهيا من عملكما بأسرع ما يمكن وتذهبا.

سألته: هل تعرف شخصاً أصلع له شارب كث، ويتناول طعامه دائماً فى الاستراحة؟

ضحك وأجاب: أجل أعرفه. إنه مهندس اسمه المحلاوى.

قلت: له علاقة بالمباحث، أليس كذلك؟ لقد ضبطته يراقبنا بدقة.

قال وهو ما زال يضحك: أبداً. لقد جاءنى بالأمس قائلاً إن هناك اثنين من رجال المخابرات فى الاستراحة. وكان يقصدكما.

ابتسم سعيد للمرة الأولى فى هذا اليوم. وأشار عباس إلى مجلة على المائدة قائلاً إن بها مقالاً لسعيد عن السد.

تناولت المجلة، وقلبت صفحاتها حتى وجدت مقال سعيد. كان على صفحتين بعنوان "رحلة فى عز الصهد".

قلت إنى أشعر بالجوع والتعب، وأفكر بالانصراف، فقال سعيد إن هناك مطعماً فى الفندق. قلت أنى أفضل الانصراف. قال إنه غير قادر على الحركة وأشار إلى كتل اللحم المتناثرة حولنا وأضاف: هذا اليوم لن يتكرر فكيف نذهب؟ ثم إن لدى موعداً فى الثامنة مع الملاحظين الشبان. ألن تأتى معى؟

قلت إنى أود ذلك.

قال عباس إن زوجته سافرت إلى القاهرة هذا الصباح وإلا كان قد دعانا إلى الغذاء بمنزله.

قال سعيد إنه لا يشعر برغبة فى الأكل.

قلبت صفحات المجلة. وتطلع عباس إلى باب المطعم، وقال إنه مضطر للبقاء حتى الخامسة، لأنه ضرب موعداً لصحفية اسمها سامية.

قلت: سامية حسين؟ متى وصلت؟ وتطلعت إلى سعيد.

قال سعيد ممتعضاً: أمس.

نقلت بصرى بينهما.

قال عباس: سعيد غاضب، لأنى سألتها اليوم عنه، فقالت إنه لا يأخذ أكثر من أربعين جنيهاً في الشهر.

قال سعيد: أنا آخذ ثمانين كما قلت لك.

قال عباس: كيف تكون اشتراكياً وتسمح لنفسك أن تأخذ هذا المبلغ؟

قال سعيد: أنت تأخذ مائتين.

قال عباس: لم أقل أبداً إنى اشتراكى.

قلت إنى سأتركهما إلى مكان أتناول فيه وجبة رخيصة. فقال عباس إنه يدعونا للأكل على حسابه في مطعم الفندق.

انتقلنا إلى المطعم الذى كان مزدحماً بالسياح. وقال عباس بعد أن جلسنا: لا أدرى ماذا يريد الشيوعيون وقد بنيت الاشتراكية!؟

قال سعيد: يريدون بناء الشيوعية. لن يهدأ لهم بال حتى يقيموا دكتاتورية البوليتاريا.

جاءنا الطعام، وانهمكنا في تناوله. سأل سعيد عما سيفعله عباس بعد انتهاء السد.

قال عباس: سيكون هناك مشروع آخر. لكننى سأترك الشركة.

قلت: وماذا ستفعل؟

قال: سأشترى قطعة من الأراضى الجديدة التى سترويها مياه السد.

قلت: كنت أظن أنها ستصبح مزارع حكومية.

قال وهو يضيف قليلاً من الصلصة إلى طبقه: ده كلام.

واصلنا الأكل بصمت حتى تحول إلىَّ عباس، وقال إنه يحتفظ بموضوعات قديمة كان سعيد ينقلها من الكتب، ويقدمها لجمعية الخطابة فى المدرسة على إنها من إنشائه.

قلت ضاحكاً إنه ما زال يفعل هذا إلى الآن.

بدا سعيد غاضباً، ولزم الصمت حتى انتهينا من الطعام. عدنا إلى البهو،

فوجدناه خالياً، فانتقلنا إلى قاعة التليفزيون وكانت خالية هى الأخرى فيما عدا شاب أنيق يرتدى عوينات طبية تعرف على سعيد. وقدمه لنا سعيد على أنه يعمل فى حسابات الهيئة ويدعى "صفوت".

جذب عباس مقعدين، ووضعهما متقابلين قائلاً إنه سينام قليلاً. فعلت مثله، وقال صفوت إنه يفضل الفرجة على السائحات فى الردهة. فقال سعيد إنه سينضم إليه.

تمددت على المقعدين المتقابلين إلى جوار عباس. وتناولت المجلة، وبدأت أقرأ مقال سعيد. كان يبدأ بحديث مع أحد وكلاء الوزارة المسئولين عن بناء السد، حكى فيه كيف جاء إلى السد. وقال إنه شاهد ذات يوم فيلماً عن أعمال البناء، فانفعل للغاية ولم يستطيع النوم. ولم يهدأ له بال بعد ذلك إلا عندما نجح فى الانتقال إلى أسوان ليشارك فى المشروع العظيم.

شعرتُ بصداع، فوضعت المجلة جانباً. قال عباس إنه يريد أن يقرأ المقال. ومد يده، فتناول المجلة، ووضعها علي صدره دون أن يفتحها. وقال إنه عاجز عن القيام بأية حركة من شدة الحرارة.

سألنى بكسل عما إذا كنت قرأت صحف اليوم. فأجبت بالإيجاب .

قال بنفس اللهجة الكسولة: الدور الآن على الشيوعيين. أغلقت عينى مرهقاً ولم أعلق.

❋❋❋

جاء هواء الصباح من خلف القضبان الحديدية محملاً برائحة البحر، وقال عبد السلام إن معدته تنقلب كلما حل فى الإسكندرية، وجعل يذرع الزنزانة رائحاً غادياً وهو يضغط معدته بيده، وقال إن لم يفتحوا لنا الآن لنذهب إلى المراحيض سيفعلها فى جردل البول، ورأينا من ثقب المفتاح سجيناً بالسروال السكندرى ذى اللية يمشى على مهل وهو يجفف وجهه بمنشفة، وقلت إن دورنا لم يحن بعد، فأسرع إلى جردل البول واستوى فوقه، واصطدم المفتاح فى قفل الباب الحديدى بعنف، وانفرج عن عدد من الحراس يحملون أحزمتهم الجلدية فى

أيديهم، انهالوا بها علينا وهم يصيحون بنا أن نتجرد من ملابسنا، وساقونا عرايا إلى الخارج حيث اصطف عدد آخر منهم على جانبى العنبر وقد اشرعوا أحزمتهم فى يديهم، وجعلونا نجرى بين الصفين والأحزمة تنهال علينـــا، ثم أعادونـــا إلى الزنازين حيث دفعنا حارس عجوز للركن وقلب جردل البول الذى ملأه عبـــد السلام فوق جسدينا، وبقينا عرايا نرتعش من البرد نحاول إزالة ما علق بأجسادنا من فضلات الجردل، ثم علا صوت الراديو بنشيد "وطنى"، وأعقبتـــه موســـيقى كلاسيكية قال عبد السلام فى حماسة أنها ل"بيزيه"، وعندما اقتادونا إلى المحكمـــة كان بعضنا محلاًّ بالأربطة البيضاء، وقالوا إنها شاهد على ما قمنا به من العدوان على الحراس العُزل، ولم يكن هناك غير المحامين ورجال المباحث والبوليس وبعض الأمهات والزوجات الحائرات، واهتزت أرداف المدعى السمينة كما تهتز المـــرأة الحُبلى، وسوى وشاحه الرسمى، ولعلع صوته وقد أضيف مجد جديد إلى ســـجل أمجاده الحافل بقضايا الاحتيال والجواسيس والأخوان المسلمين، وفى الأعلى أسند الجنرال قائد الجيوش البرية خده إلى زاحته اليمنى مستمتعاً بما يجـــرى، وخلفـــه مساحات شاسعة من الأراضى وتاريخ من سطوة الإقطاع، ومعارك وهميـــة لم تطلق فيها رصاصة واحدة ، وابتسم لأطفاله الموردين فى بياض نســـل الأتـــراك الذين جاء بهم ليشهدوا نهاية ثورة العبيد، وأسبل قاضى اليمين جفنيه على إغفاءة سريعة، بدت كالتفكير العميق، فمُعَامَلات الاستيراد والتصدير تستهلك الجهـــد الكبير، ولم يرفع قاضى الشمال عينيه عن صديقته الملونة التى جلست فى الصف الأول، تشهد مدى سطوته، حتى انتصب الجسد الفارع داخل القفص، وعـــلا رأسه الذى لم تشوهه آثار الجدرى عن مستوى القضبان ، وحول أسنتها التفت أصابعه الطويلة، وكان عبثاً أن راح يجادل بالمنطق ويقول إنه لا يمكن أن يعادى حكومة تبنى السد،

❋❋❋

فتحتُ عينى عندما أدركت أنى لن أتمكـن مـن الإغفـاء. ولمحـت طفلـة أجنبيـة تجلس على مقعد قريب، وقد أحنت رأسها على مسنده، ودلت ساعديها إلى الأرض. ومـا

لبثت أن قامت، وغادرت القاعة وهى تسير محنية الرأس، يتدلى لسانها من فمها.

كان عباس نائماً. وسمعت أصواتاً نسائية فى الخارج، فوقفت وسويت ملابسى، ثم خرجت إلى البهو.

كان سعيد وصفوت يحتلان مقعدين استراتيجيين. ذهبت إلى الحمام ثم عدت إليهما وجلست بجوارهما مخدراً. رأيت فى يد صفوت عدداً من مجلة "لايف" حافلاً بصور فتيات يرتدين البيكينى. وسمعت سعيد يحكى عن امرأة فخمة رآها فى الفندق منذ أيام فحياها فردت تحيته. وبينما كان يفكر فى الخطوة التالية انضم إليها دبوران مصريان أحدهم خفيف الدم سريع البديهة، والآخر صائد مدرب فى الخامسة والأربعين، يفيض رجولة وثقة. وسمعهما يحاولان إقناعها بالذهاب إلى قبر آغاخان فى ضوء القمر.

قال صفوت: أعرفهما . الأول هو الكابتن عادل الطيار، والثانى قائد سلاح الحدود.

قال سعيد: الآن استرحت. فماذا يملك أى رجل فى مواجهة سلاحين من أسلحة الجيش؟

لحظتُ فتاة طويلة فى رداء منقط كجلد النمر يكشف عن ساقين منسابتين.كانت تجلس مع رجل وامرأة متقدمين فى السن، ويبدو على الثلاثة أنهم من الأمريكان. كانت نظرة عينيها قصيرة كمن تعود على النظارة الطبية.

تطلعت الفتاه باهتمام ناحية الباب، فاتجهت ببصرى إلى هناك. ورأيت عجوزاً أجنبياً يرتدى قميصاً مخططاً، ويأتى بحركات غريبة. تقدم بحذر من مصراع الباب، ودار معه إلى الخارج. وواصل المصراع دورانه وإذا بالعجوز يقفز منه إلى الداخل وهو يلهث.

قال صفوت: مائة فى المائة هذا الخواجة لوطى. وحكى عن خواجة آخر طلب من موظف الاستعلامات فى الفندق قطعة من اللحم النيئ، خرج بها إلى النيل مع صنارته، وعاد بسمكة طلب أن تحفظ له فى الثلاجة.

أقبل فوج من السائحين من الخارج، ارتموا على المقاعد وهم يلهثون. كانت

بينهم أفريقية حلوة ترتدى شورتاً أبيض، قال سعيد إنها تشبه القشطة السوداء . ووقفت أخرى فرنسية إلى جوار المروحة الكهربية تجفف عرق شعرها. وانهارت ثالثة على مقربة، مكومة فستانها الواسع فى حجرها، ومحدقة أمامها بعينين زائغتين.

وقفت فتاة جلد النمر فجأة واتجهت إلى السلم المؤدى للطابق الأعلى. وقال صفوت إن مشد صدرها انقطع وستصعد لتربطه. تابعت ساقيها الرائعتين وهما تتضحان للعيان كلما ارتقت إحدى الدرجات. وعندما بلغت نهاية السلم استدارت، وألقت على وجوهنا المشرئبة نحوها نظرة متفحصة.

همس صفوت شيئاً لسعيد، ثم هبا واقفين. وتقدما من مائدة الأمريكيين، فجلسا إليها. وما لبثا أن اشتبكا معهما فى الحديث.

انضم عباس إلى، وجلسنا نتأمل ما يدور على المائدة القريبة. وظهرت الفتاة مرة أخرى حاملة مظلة، فوقف رفيقاها، وغادر الثلاثة الفندق.

ظل صفوت وسعيد فى مكانيهما وقد احمر وجه الأول. وبعد قليل، إنضما إلينا، وقال صفوت وهو يجذب مقعداً: لا تظنوا أنى كنت خاملاً طوال العام. وشرع يتحدث عن فتاة بلجيكية تعرف بها فى حديقة النباتات.

تطلع عباس إلى ساعته، وقال إن موعد سامية قد حان، فتوقف صفوت عن الحديث متسائلاً عن ماهية سامية هذه. وعندما عرف أنها صحفية قال إنها لن تأتى. ثم استأنف حديثه عن فتاة حديقة النباتات وفى هذه المرة كانت فرنسية.

تحول فجأة إلى سعيد متسائلاً: هى سامية هذه حلوة؟

فكر سعيد لحظة ثم قال: إنها سمراء شديدة العصبية واقرب إلى الرجال.

– متزوجة؟

– لا.

قال عباس: إنها شديدة عليك يا صفوت. لن تفلح معها.

قال سعيد: لا بأس من المحاولة.

قال صفوت: أنا مستعد لأن أراهنكم عليها.

ولج الفندق هندى طويل الشعر برفقة فتاة بيضاء متوسطة العمر ذات عينين

مجنونتين. ثم ظهرت سامية تقترب منا فى خطوات سريعة وهى تحرك يدها أمام وجهها طلباً للهواء.

قالت بعد أن استقرت فى مقعد أحضره لها صفوت إنها كانت فى إدارة الشركة فى الصباح، ووجدتهم يقرأون مقال سعيد، ويضعون خطوطاً حمراء تحت بعض السطور، ثم أرسلوه إلى المباحث.

قال عباس: يحسن بهما أن يغادرا الموقع فى أقرب فرصة.

نقل صفوت نظره بيني وبين سعيد.

قال سعيد: لا أستطيع الذهاب قبل الفيضان.

قالت سامية فى حدة: ماذا؟ من حقهما البقاء حتى ينجزا عملهما.

تطلعت حولها قائلة إنها تشعر بعطش شديد، فنادينا على النادل، واحضر لها كأساً من الليمون، ذاقته ثم وضعته على المائدة قائلة: إنه خفيف.

قال عباس: الخدمة هنا ليست ممتازة.

قالت: لكنى طلبت ليموناً، فيجب أن أشرب ليموناً. ونادت على النادل. جاء بعد دقائق، فأصر أن ما أحضره هو ليمون حقيقى، وأنه ليس بالفندق غيره.

صاحت سامية فى غضب طالبة مدير الفندق. وران علينا الصمت بينما تطلع الجالسون نحونا. اختفى النادل بكوب الليمون، ثم عاد على الفور بكوب آخر أكدَّ لون ما فيه من سائل أنه ليمون حقيقى.

قالت سامية لسعيد إنها قضت بالأمس ليلة ليلاء مع وكيل الوزارة الذى تحدث عنه فى مقاله، فقد دعاها هو ومأمور البوليس لتناول العشاء فى منزله وعندما ذهبت وجدتهما قد احضرا زجاجة ويسكى. ثم حاولا تقبيلها وقال لها وكيل الوزارة إنه مستعد أن يتزوجها فى الحال ويطلق زوجته، فقالت له إنه فى سن والدها.

أراد صفوت أن يعلق، لكن عباس أعترضه وروى كيف ثار مأمور البوليس فى العام الماضى عندما ارتدت مجموعة من الطلبة والطالبات الدنمركيين الجلاليب، فجمعهم وألقى فيهم محاضرة عن الأخلاق. لكنهم صفروا له، وسحبوا سجاجيد الفندق إلى الشارع، وقضوا فيه ليلتهم.

قال صفوت فى استهانة مخاطباً سامية: لست افهم هذه الضجة التى تقيمها الصحف حول السد. المشروع ليس أكثر من عتالة كبيرة.

ردت سامية بحماسة: هذا غير صحيح. المشروع ضخم وفيه أشياء فنية من الدرجة الأولى. مثلاً قطر الأنفاق. والقناة التى تم حفرها فى نفس الوقت الذى كان يجرى فيه سد مجرى النيل. ثم التلبيس بالرمال الذى يطبق هنا لأول مرة.

قال صفوت: وماذا عن الغرين الذى يحتجزه السد خلفه؟ سنزرع أرضاً جديدة لتموت القديمة. المشروع أصلاً غلط.

قالت فى حدة: أنا سألت بنفسي علماء كثيرين عن هذه النقطة وكلهم قالوا إن الغرين يمكن تعويضه بالسماد. ثم إن الكهرباء التى سيولدها السد ستتيح لنا زيادة إنتاج السماد.

ظهر صيام النوبى أمامنا فجأة وحيانا باهتمام. عرفه عباس بسامية، فقال لها إنه على استعداد لأن يدبر لها رحلة إلى أبى سنبل، ثم التفت إلينا قائلاً: والأستاذان بالطبع.

قالت سامية إنها كانت تنوى البقاء حتى موعد الفيضان، لكنها تلقت مكالمة تليفونية فى الصباح تحتم عليها العودة فى الغد. كرر صيام استعداده لخدمتها فى أى وقت، واستأذن منصرفاً. وتبادلنا أنا وعباس نظرة باسمة.

ولجت الفندق مجموعة صاخبة من المهندسين الشباب. وقام عباس مرحباً بأحدهم الذى كان أكثر أناقة. وقدمه إلى سامية قائلاً إنه يعمل فى خطوط الكهرباء. جذب صفوت مقعداً للشاب الذى جلس بجوار سامية. والتفت بقية المجموعة بالمائدة المجاورة.

همس لى عباس أن الشاب يمت بصلة القرابة إلى رئيس مجلس إدارة الشركة ورئيس الاتحاد الاشتراكى فيها. وقالت سامية إنها تود أن تزور أحد مواقع بناء أبراج الكهرباء، فقال الشاب إنهم يعملون الآن بالقرب من "نجع حمادى"، وإنه على استعداد لأن يأخذها إلى هناك فى سيارته.

سأله سعيد عما إذا كانت هناك مشاكل مع الفلاحين بسبب اختراق الخطوط لأراضيهم فى بعض الأحيان. فأجاب بالنفى، وقال إنهم على العكس متحمسون

للغاية ويسألون دائماً عن موعد وصول الكهرباء. ثم أضاف: مرة انغرزت سياراتنا فى الرمال بالقرب من إحدى القرى، فخرجت القرية كلها لمساعدتنا.

لمحت سامية شاباً أسمر يلج الفندق، فصاحت مشيرة إليه: هذا هو.

سألها مهندس الخطوط الأنيق: من؟

قالت بنفس الصوت المرتفع : كان حضرته يضع خطوط حمراء تحت سطور مقال كتبه الأستاذ سعيد، ثم بعث به بعد ذلك إلى المباحث.

بدت الدهشة على وجه المهندس الأنيق الذى تحول يتأمل سعيداً فى إمعان. وفى هذه الأثناء كان الشاب الأسمر قد دنا منا وحيانا بأدب، فصاحت به سامية: ألا يحسن بك أن تشغل نفسك بعمل له قيمة بدلاً من الكلام الفارغ الذى تقوم به؟

فوجئ الشاب، ووقف لحظة عاجزاً عن الإجابة، ثم قال: يا ست سامية أنا لم أفعل غير المطلوب منى.

أجابت سامية: إذن بلغ كلامى لأسيادك.

دوى صوتها فى أنحاء البهو، وتطلع إلينا الجالسون فى دهشة. وتوقف الحديث فى حلقة الشبان المجاورة لنا، والتفتوا نحونا. شعرت فجأة أن حلقتنا قد خفت. ولمحت صفوت عند الباب مع بعض الشبان، وسمعتهم يعلقون ضاحكين على صوت سامية وهم يغادرون الفندق: ونش.

تململ مهندس الخطوط الأنيق فى مقعده قلقاً، ثم نهض واقفاً وقال إنه مضطر للذهاب. وقام عباس مسرعاً قائلاً إنه سيرافقه. وبقيت أنا وسعيد بجوار سامية. وبدا سعيد واجماً.

علق سعيد الكاميرا فى كتفه، وقال: لابد أن ننصرف الآن لأن لدينا موعداً.

قلت: ما زال أمامنا بعض الوقت. دعنا نبقى قليلاً.

أصر سعيد على الذهاب قائلاً: إننا لن نضمن الأتوبيس.

قلت: ولكننا سنترك سامية بمفردها، لنبق معها قليلا.

قال: ابق أنت إن أحببت.

قالت سامية: لا تقلقا على. اذهبا، أنا لدى موعد بعد قليل.

وقفنا وصافحناها، فقالت لسعيد: لا تعبأ بأحد. سأصنع أكبر ضجة في القاهرة ولن يستطيع أحد أن يمسك بشئ.

قال لى سعيد عندما غادرنا الفندق: آسف إذا كنت انتزعتك من صحبتها.

قلت: كان يمكننا أن نبقى معها قليلاً.

قال: أنت تعرف أن لدينا موعداً.

قلت: لكن ما زال أمامنا ساعة.

قال: والمواصلات؟

قلت: الحقيقة إنك غاضب منها.

قال: هذا غير صحيح . كل ما في الأمر أنى لا أستطيع أن أقضى وقتى كله مع هؤلاء الثرثارين، وهذه الفتاة.

قلت: ماذا لديك ضدها؟

انفجر قائلاً: إنها تستطيع أن تتكلم هكذا، لأنها غنية ولا يهمها مرتبها. أما أنا فلدى أسرة أعولها.

قطعنا بقية الطريق بصمت حتى بلغنا موقف الأتوبيس. واعتمدت على حاجز حديدى شاعراً بالإرهاق ولزوجة العرق على جسدى.

فكرتُ في المغامرات التي تنتظرنا حتى نصل "السيل"، ثم الاستراحة، وسألت سعيد أن يتأكد من وجود عنوان الشبان معه.

قال: أعتقد أنه معى .

قلت: لن تخسر شيئاً إذا ما تأكدت حتى لا نقوم بمشوار بلا فائدة.

قال: لست مستعداً للقيام بأى حركة في هذا الحر.

لزمتُ الصمت، وراقبت ظهور الأنوار الكهربائية في المحلات. وتجمع شئ من البلغم في حلقى، فبصقته في منتصف الطريق. وأخيراً أقبل الأتوبيس المخصص للسيل، وهو روسى الصنع يتميز بباب واحد عريض في منتصفه. كان الأتوبيس مزدحماً وعندما حاولنا الركوب، أغلق أحد الركاب الباب في وجهنا قائلاً إن الحر في الداخل لا يحتمل.

عدنا إلى مكاننا فى ضيق. ولمحت ماسح أحذية يقتعد الأرض على بعد خطوات، فتقدمت منه، ووضعت قدمى اليمنى على صندوقه. وعندما أنتهى منها وهممت باستبدالها ظهرت إحدى سيارات الركاب التابعة للهيئة والذاهبة إلى الموقع، فألقيت إلى الماسح بقرشين، وجريت إلى السيارة. وشققت طريقى داخلها خلف سعيد.

نزلنا أمام السيل بعد عشر دقائق، فعبرنا الطريق الرئيسى، ثم سرنا فى شارع ترابى إلى جوار صف من المجمعات السكنية الشبيهة بمجمعات الأحياء الشعبية فى القاهرة. كان بعضها يبدو نظيفاً، تبرز من جانبه أجهزة التكييف، وتظهر فى مداخله سيدات روسيات. وإلى يسارنا سوق حافل من الأكشاك التى تضيئها المصابيح الكهربائية، وتباع فيها الخضروات والفاكهة.

مررنا بمجموعة من السيدات الروسيات ازدحمن حول كشك يبيع الأعصرة. ثم انطلقنا إلى جوار فناء مسور أمام إحدى المجمعات، جلست به سيدتان روسيتان فوق دكتين. وعلى دكة أخرى أمام المجمع المقابل، اصطف عدد من الشبان المصريين. وأقبلنا على فناء مسور آخر، تحول إلى مقهى شعبى، رشت الأرض الترابية أمامه بالمياه.

كنا قد ابتعدنا عن منطقة السوق. وأتجه سعيد إلى عمارة تجمعت أمامها الفضلات، وظهرت القلل فى شرفاتها.

صعدنا إلى الطابق الأخير. وطرق سعيد الباب لكن أحد لم يرد، فأخرج مفكرته من جيبه وتأكد من العنوان ثم عاد يطرق الباب دون جدوى.

هبطنا الدرج وأنا أشعر بنوع من الارتياح. وانطلقنا إلى الطريق الرئيسى ونحن نتعثر فى الظلام.

وقفنا على جانب ننتظر. ومرت بنا سيارتان خاصتان، تتبعهما بضع سيارات أخرى مسرعة. ولم يعبأ السائقون بنا رغم أننا كنا نتقدم إلى عرض الطريق ونعترض كشافاتها قبل أن تقترب بمسافة. دنا منا أحد الصعايدة الذى ظل يراقبنا بعض الوقت. واقترح علينا أن نستقل القطار من المحطة القريبة. وقال إننا نستطيع اللحاق بالقطار الذى يقل وردية المساء إلى الموقع. شكرناه وسرنا إلى حيث أشار. وما لبثنا أن سمعنا صوت محرك قطار فأسرعنا نجرى حتى ظهرت المحطة. ورأينا

القطار يدخلها.

لحقنا بالقطار قبل أن يستأنف المسير. وقفزنا إلى إحدى العربات. أدركت بعد لحظة أن القطار غارق في ظلام دامس.

تلمسنا طريقنا بصعوبة. وتعثرت بأحد الأجسام، فأخرجت علبة الثقاب، وأشعلت عوداً رفعته إلى أعلى. والتقت عيناى بعينى صعيدى تحيط برأسه لفافة بيضاء. أدرت العود حولى، فرأيت الباحة الفاصلة بين العربيتين قد امتلأت بالعمال الذين اقتعدوا الأرض، وأسندوا رؤوسهم إلى الجدار.

انطفأ العود، فأشعل سعيد عوداً آخر. وشققنا طريقنا بين الأجسام المتراصة. وتقدمنا فى الممر الذى يفصل بين صفين من المقاعد الخشبية.

عثرنا على مكانين متجاورين، فجلست بجوار النافذة. وكان الظلام كثيفاً فى الخارج لا يبين معه شئ.

سار القطار ببطء وقد ساد السكون أرجاء العربة. ولم يكن يقطعه سوى صوت تنفس العامل الذى يجلس فى مواجهتى. وأدركت من نغمته أنه غارق فى النوم.

ارتفع صوت بائع عرقسوس ينادى على بضاعته فى طرف العربة. ثم انقطع صوته وساد السكون من جديد.

أغلقت عينى فى مواجهة الحرارة الآتية من النافذة. وأسندت رأسى إلى حافة المقعد. وعندما فتحتهما بعد قليل رأيت أضواء الموقع تملأ الأفق.

***

[4]

توقفت سيارة "الفولجا" أمام مبنى من طابقين أشبه بالمدرسة. وجذبت قماش سروالى الذى التصق بفخذى من العرق مغادراً السيارة فى أعقاب ياكونوف. ولجنا مركز التدريب الذى يتحول فيه آلاف المصريين إلى عمال مهرة. وانطلقنا فى ردهة طويلة إلى غرفة المديرة.

استقبلتنا امرأة ضخمة ذات وجه جامد لا يعرف الابتسام. قال ياكونوف وهو يقدمها لنا إنها مهندسة ولها فى بلادنا عدة شهور.

سألها سعيد عما إذا كانت تعيش مع أسرتها، فاحمر وجهها وقالت إنها بمفردها. ثم أضافت بعد لحظة إنها فقدت زوجها فى الحرب وليس لها أطفال.

ران علينا الصمت، وهربت بعينى إلى صورة لينين المعلقة على الحائط فوق رأس المديرة.

اقترح ياكونوف أن نبدأ جولتنا فى أنحاء المركز. وتبعنا المديرة إلى فصول التدريس. كان أغلب المدرسين من المصريين، أما الطلبة فكانوا من مختلف الأعمار والمهن. وكانت الموضوعات التى تدرس لهم متباينة تماماً من تركيب الآلات المستخدمة إلى المواد المكونة لسائل الحقن.

التقط سعيد عدة صور للفصول. وفي كل مرة كان المدرس يستمهله حتى يجلس العمال فى نظام. ويجعلهم يركزون أنظارهم على يديه وهى تشير إلى رسم ما.

عدنا إلى مكتب المديرة. ووجه سعيد إليها عدة أسئلة عن انطباعاتها فى مصر، وأسرع يسجل قولها إن العمال المصريين يمتازون بالذكاء، وإن الطيور تأتى من الاتحاد السوفيتى كل عام دليل على الصداقة.

غادرنا المركز إلى السيارة. وتمهل ياكونوف بجوارها يتأمل سحابة من الغبار صفراء اللون، تجمعت فى الأفق. ثم قال إن الجو يسوء من يوم إلى آخر مع اقتراب موعد الفيضان.

انطلقت السيارة فى إتجاه الموقع. وقال ياكونوف إنه سيأخذنا إلى أحد المراكز التى تشرف على حركة العمل اليومى، ثم يتركنا هناك ويعود إلى مكتبه.

قال سعيد إننا نود أن نعرف كيف يعيش الروس فى منازلهم. قال ياكونوف فى خجل إنه يدعونا إلى منزله فى الغد.

قال سعيد إن هذا رائع، وإنه سيكتب موضوعاً مثيراً عن هذه الزيارة، ولهذا من الأفضل أن يكون هناك عنصر نسائى.

نظر إليه ياكونوف فى خبث، وقال فى انجليزيته الركيكة: ليتك ذكرت هذا ونحن فى المركز. كنا دعونا المديرة.

سارع سعيد قائلاً: لا. ثم أرتبك وسكت، بينما تفجر ياكونوف ضاحكاً وقال: من تقترح إذن؟

قال سعيد ربما إحدى الفتاتين اللتين رأيناهما فى مكتب ابراسيموف. الشقراء مثلاً.

قال ياكونوف: سأقول لها وإن كنت أشك أنها ستقبل. ثم أنها لا تتكلم الإنجليزية جيداً. إنها أسوء منى.

– لكننا قادرون على التفاهم معك.

– سأحاول والأفضل أيضاً أن أبحث عن مترجم يكون معنا، ربما قبلت الفتاة الأخرى المجيء.

سألت: تانيا؟

قال: أجل فهى تجيد الإنجليزية، وتعمل مترجمة.

أعطانا العنوان قائلاً إن المنزل لا يبعد عن النادى الروسى فى كيما.

كنا قد بلغنا جسم السد وانطلقنا فوقه. وفجأة أوقف السائق السيارة. ورأينا طابوراً من سيارات "الماز" يسد الطريق.

غادر السائق السيارة، وعاد بعد قليل، فتحدث إلى ياكونوف. وأوضح هذا لنا أن إحدى الشاحنات انغرزت فى الأرض المبللة.

أصبح الجو خانقاً داخل السيارة، فغادرتها، ووقفت إلى جوار إحدى الشاحنات المحملة بالرمال. كان العادم ينطلق من مؤخرتها فى سحب كثيفة، بينما سائقها يحاول الخروج من الطابور.

نجح السائق أخيراً فى التحول ناحية اليمين، وتقدم فى طريق غير ممهد، يأخذ فى الانحدار، ثم استدار ناحية اليسار حتى أصبح يواجهنا، وتراجع إلى الخلف بمؤخرة الشاحنة التى تجمع الدخان الأسود فوقها. ورأيته من مكان ينحنى إلى الأمام، ويجذب شيئاً فى جهد. وما لبث صندوق الشاحنة أن أخذ يرتفع حتى استقر فى وضع رأسى فوقها، وانهمرت حمولتها فى ضجة، مثيرة موجة من الغبار.

أشار أحد الملاحظين للسائق، فشرعت الماز تتحرك إلى الأمام، وما زال صندوقها معلقاً فى الهواء. ثم انطلقت خفيفة، وصندوقها يهبط رويداً حتى عاد إلى وضعه. ومن الناحية الأخرى اتجه أحد البلدوزرات إلى كوم الرمال الجديد وقد ارتفع درعه الأمامى العريض عن سطح الأرض، ولمع سطحه المعدنى فى ضوء الشمس. وتوقف البلدوزر أمام كوم الرمال. وهبط درعه حتى استقر على الأرض. ثم عاود التحرك وزحف مكتسحاً الرمال بدرعه.

انفتح الطريق أخيراً وعدت إلى الفولجا. استأنفت السيارة سيرها فوق جسم السد حتى نهايته، فانطلقت فى طرقات ملتوية، ثم توقفت أمام مبنى خشبى.

ولجنا مكتباً تغطى الخرائط جدرانه. وقدمنا ياكونوف إلى مهندس روسى أحمر الشعر شديد الهدوء، استمع إليه فى اهتمام مدة طويلة تكفى لعرض تاريخ

حياته. ثم سلمنا بدوره إلى مهندس آخر أسنانه كلها معدنية، ويعرف الإنجليزية. وانصرف ياكونوف بعد أن أكد علينا أن نذهب إلى منزله فى الغد.

جلست على مقعد يواجه مروحة كهربائية. وانكب سعيد على عديد من القوائم والخرائط أحضرها ذو الأسنان المعدنية. كان بعضها خاصاً بمعدلات ما يتم إلقاؤه فوق جسم السد من صخور ورمال وطمى فى كل وردية.

قال ذو الأسنان المعدنية: الردم هو آخر العمليات في بناء جسم السد. وهو يعنى إلقاء الصخور والرمال ثم تسويتها بالبلدوزارات ودكها بعد ذلك بالهراسات.

دخل الغرفة عاملان أحدهما روسى والآخر مصرى. واتجه الروسى إلى المهندس ذى العوينات، وتحدث إليه شاكياً من شئ ما.

انحنى المصرى على مكتب ذى العوينات، وقال فى مزيج غريب من العربية والروسية: موجنا كلام؟

ابتسم ذو العوينات وقال: موجنا.

قال العامل: يا ميكانيكى نييت رابوتشي... ولم يسعفه لسانه بالمزيد، فحرك يديه فى إشارات غامضة.

تحول العامل الروسى إلى زميله المصرى غاضباً وقال: شيف كلام كل رابوتى.

هز ذو العوينات رأسه مؤمناً، وبسط أصبعين من يده اليمنى، ثم ضمهما إلى بعض بشدة وقال: كل رابوتى سوا سوا.

لم يقتنع ابن بلدنا، وكرر: يا ميكانيكى نيت رابوتشى. ثم هز كتفيه، واستدار مغادراً الغرفة.

استفسر سعيد من ذى الأسنان المعدنية عن الأمر، فقال فى حرج إن الميكانيكيين المصريين يترفعون عن القيام ببعض العمليات البسيطة التى يعهد بها عادة إلى العتالين. وكان الملاحظ الروسي يطالب بإمداده بعتالين مصريين.

دون سعيد بعض الأرقام والبيانات فى مفكرته، وغادرنا المكان. وقفت فى مدخل المبنى أثبت قبعتى على رأسى، وأتأمل الجو المكفهر. وقال سعيد ونحن نخطو إلى الطريق إن الحرارة بلغت حداً لم يعد محتمل.

بلغنا مرتفعاً من الأرض يشرف على ممرى التفتيش من بعيد. كانت هناك عدة بلدوزارات تتحرك فى اتجاهات مختلفة فوق مساحة من الرمال، مكتسحة أمامها أكوام الرمال تاركة خلفها خطوطاً عريضة ممهدة، تحف بها على الجانبين خطوط رفيعة من الرمال العالية.

التقط سعيد عدة صور للبلدوزارات والخطوط العريضة المتوازية التى تصنعها. وتحولنا نبحث عن طريق تمضى فيه السيارات. سرنا مسافة دون أن نصادف طريقاً مطروقا. ومررنا بجوار مساحة واسعة امتلأت بالشبكات الحديدية التى عكف عليها عدد من عمال اللحام. ولمحنا سيارة جيب تهم بالتحرك، فجرينا نحوها. وكان السائق قد لمحنا فانتظر حتى لحقنا به، وأقلنا حتى المستشفى.

أكملنا الطريق إلى الاستراحة سيراً على الأقدام. وعندما أوشكنا أن نبلغها، اقترح سعيد أن نمر على عباس، فذهبنا إليه.

قال عباس عندما رآنا: البوليس الحربى حاصر الجراج منذ نصف ساعة، واعتقل أحد الميكانيكيين.

وضع سعيد قبعته على المكتب وسأل: أخوان؟

هز عباس رأسه وقال: لا أحد يعرف السبب بعد.

وتطلع من النافذة ثم أضاف: هل بقى أمامكما وقت طويل حتى تنتهيا؟

قال سعيد: ما زال أمامى الفيضان، وفتح الأنفاق. وبعد ذلك سنقوم برحلة إلى أبى سنبل، ثم أعود إلى القاهرة.

قال عباس: رأيى أن تذهبا إلى المباحث وتتكلما معهم.

تناول سعيد قبعته ووضعها على رأسه قائلاً: سنفكر بالأمر.

سألنا عباس ونحن نتأهب بالانصراف: هل سافرت سامية؟ أمس هبت عاصفة رملية ربما تكون عطلتها.

أجبت: لا. لقد سافرت فعلاً.

غادرنا المكتب وسرنا أسفل أشعة الشمس الحامية حتى الاستراحة. قال سعيد ونحن نقطع الردهة الكابية المؤدية إلى غرفتنا : أراهن أن مقابلاتنا مع الروس

ستسبب لنا المشاكل. ربما كان يجب أن نذهب إلى المباحث ونتفاهم معهم.

قلت: أنا لن أذهب متطوعاً.

دخلت إلى الغرفة، فتناولت منشفة، وأسرعت إلى الحمام. خلعت ملابسي وعلقتها خلف الباب. وعندما وقفت في حوض الاستحمام وأدرت الصنبور، اكتشفت أن المياه مقطوعة.

ارتديت ملابسي من جديد، وعدت إلى الغرفة. كان سعيد منحنياً على جهاز التكييف يعبث بأزراره. وقال عندما رآني إن الجهاز معطل.

قلت: ربما عبث به أحد.

غادرنا الغرفة بحثاً عن فقير. ووجدناه عل باب المطعم. قال إن المياه مقطوعة من ساعتين بسبب عطل في الأنابيب الرئيسية. ووعد أن يأتي لنا بكهربائي لإصلاح جهاز التكييف.

ولجنا المطعم فوجدناه مزدحماً بالآكلين الذين أقبلوا على طعامهم في صمت تام. جلسنا إلى مائدتين متباعدتين وما لبثت أن سمعت شخصاً خلفي يقول إن أحد العمال مات بالحمى المخية، فعارضه آخر قائلاً إنها الكوليرا. ثم ساد الصمت من جديد. وجدنا المياه ما زالت مقطوعة عندما أردنا أن نغسل أيدينا. وعدنا إلى الغرفة فبدأ سعيد يخلع ملابسه. واكتشفت أن سرواله تلوث بالشحم فقلت إنه بالإمكان تنظيفه هنا. قال إنه لن يغسله وسيحتفظ به كما هو للذكرى.

قلت: أو تصوره وتستخدم الصورة في أحد المقالات.

لم يعلق وانهمك في طي السروال بعناية شديدة، ثم أودعه حقيبته. واستلقى على فراشه يدخن.

فكرت بمطاردة الذباب وإغلاق النافذة لكني عدلت عن ذلك بسبب الحرارة، فاستلقيت على الفراش بملابسي الداخلية. وما لبث الذباب أن تجمع حولي، فحاولت طرده باليد لكنه كان يحط على جسدي من جديد ملتصقاً به في عناد.

فرغ سعيد من سيجارته وأعطى وجهه للجدار واضعاً ساعده على وجهه في محاولة للنوم. قمت فطاردت الذباب بمنشفة حتى أخرجت أسرابه من النافذة،

فأسرعت بإغلاق مصاريعها. وساد الغرفة ظلام مريح.

استلقيتُ على الفراش باسطاً ساقي على سعتهما. وبعد قليل صار جو الغرفة خانقاً. فأعدت فتح النافذة. وعاد الذباب يلتصق بجسدى. جذبت ملاءة الفراش فوقى لكنى ابتللت من العرق وكدت أختنق، فألقيت بالملاءة جانباً. وغفوت لحظات ثم تنبهت على إلحاح الذباب فوق وجهى فطردته بعيداً، وجذبت الملاءة فوقى. وغفوت مرة أخرى. وحلمت أن الصفحة الأولى من الجريدة ملوثة بالشحم وأن اسمى منشور فى صدرها. ثم حلمت بأننى آخذ قرص أسبرين. وفتحت عينى شاعراً بصداع عنيف.

أنزلتُ الملاءة حتى ساقى فقط. واستدرت ناحية الجدار. ثم طويت ساعدى وغطيت بهما وجهى، وسرعان ما غفوت.

حلمتُ بأبى يعطينى موعداً فى السابعة إلا ربعاً، لأتسلم منه أشياء خطرة لعلها كانت منشورات سرية. وكان يحدثنى بصوت رصين وأنا فى عجب مما طرأ عليه من تغيير رفعه إلى مستوى هذه الأشياء. كان وجهه أسمراً غير كامل الملامح وقد ارتدى بذلته السوداء ذات الصيديرى. وفى الساعة السادسة اكتشفت مصادفة أن هناك من يتعقبنى. وفكرت بألا أذهب إلى أبى كى لا أعرضه للخطر. لكن كيف أتركه فى الشارع بالأشياء التى يحملها؟ وقررت أن أتخلص ممن يتعقبنى فى الأزقة المجاورة.

مضيتُ أتنقل من زقاق إلى آخر وأنا أتطلع خلفى باستمرار. وفجأة جذبنى صبى صغير من يدى مشيراً إلى باب أمامى. وقال إنى لو دخلت منه وأغلقته خلفى وضغطت على شئ بالداخل سيتساقط منه الماء. سألته عن البيت فقال إنه قصر مهجور. وقادنى إلى الداخل حتى بلغنا سلماً تتدلى منه نباتات خضراء متهرئة. ولسبب ما شعرت بالرعب وقال الصبى إن أحد لا يصعد إلى أعلى. تطلعت إلى ساعتى، فوجدت أنه لم تعد أمامى سوى ربع ساعة على موعد أبى، فأسرعت أغادر المنزل. ورأيت رجلين ينتظرانى فى نهاية الزقاق، فأدركت أنهما اللذين يتعقبانى. فعدت أدراجى بحثا عن النهاية الأخرى للزقاق، وإذا بى أجده مسدوداً.

استيقظتُ على قرع الباب. وقام سعيد يفتحه، فرأيت فقيراً ومعه شاب يحمل حقيبة حديدية. قال فقير إنه أحضر الميكانيكى الذى سيصلح الجهاز، فأفسح

لهما سعيد الطريق. وتقدم الميكانيكى من الجهاز، ثم ركع أمامه واضعاً حقيبته على الأرض. عاد سعيد إلى فراشه مستفسراً من فقير عن المياه، فقال إنها لم تعد بعد. ودليت قدمى من حافة الفراش، وجعلت أراقب الميكانيكى وهو ينتزع المسامير المثبتة فى واجهة الجهاز. وعندما انفصلت الواجهة وضعها بعيداً. وتبادلت نظرة سريعة مع سعيد.ظللنا نراقب الميكانيكى بدقة حتى انتهى من عمله، وأعاد للجهاز واجهته. وسرعان ما تردد طنينه كالعهد به. وانتشرت البرودة المنعشة فى أرجاء الغرفة. قال فقير وهو يتأهب للانصراف إن العقارب ظهرت وعلينا أن نأخذ حذرنا ونحكم إغلاق النافذة والباب. طلبت منه أن يبحث لى عن قليل من الماء بأية طريقة. فأحضر لى كوباً ابتلعت به قرصاً من النوفالجين.

تناول سعيد أغطية فراشه، ونفضها فى الهواء، ليتأكد من خلوها من العقارب. تطلع أسفل فراشه وفى أركان الغرفة. وفعلت المثل بفراشى. ثم تناولنا منشفتين وطاردنا الذباب وأغلقنا النافذة.

فى السادسة، سمعنا صوت فقير فى الفناء يهلل معلناً عودة المياه. قال سعيد إننا نستطيع اللحاق بالسيارة الذاهبة إلى أسوان. وسألنى إن كنت أحب أن أرافقه فقلت إنى لا أمانع.

سبقت سعيد إلى الحمام. وعدت إلى الغرفة، فأخرجت قميصاً نظيفاً من الصوان ونفضته بعيداً عدة مرات ثم ارتديته. وفعلت المثل بالبنطلون.

غادرنا الاستراحة إلى جو أصفر مشحون بالأتربة. ولحقنا بسيارة السابعة إلا ربعاً المخصصة للمهندسين. جلسنا خلف كهلين متأنقين كانا يتبادلان حديثاً هادئاً به شئ من الكلفة. وكان أحدهما يرتدى عوينات طبية سميكة سوداء اللون، وتتصاعد منه رائحة عطر أولد سبايس.

منع السائق عدة شبان من الركوب وهو يصيح بصوت رفيع ناعم: المهندسون فقط. وعندما أراد أحدهم الاحتجاج، هاج وصاح بصوته الرفيع أن كل إنسان يجب أن يعرف مكانه.

انطلقت السيارة، والسائق مستمر فى حملته على أنصاف المتعلمين، وكل

من هب ودب ممن يظن بعد قليل من التدريب أنه ارتفع إلى مستوى المهندس. وعندما بلغنا أسوان، نزل الكهلان أمام جراند أوتيل، ونزلنا نحن أمام نادى التجديف.

جلسنا فى الشرفة الدائرية التى تضيئها مصابيح كابيه. واحضر لنا النادل زجاجتين من البيرة. كان الجو مكتوماً ساكناً، ليست به نسمة واحدة من الهواء. شربنا فى صمت ونحن نتطلع إلى الشاطئ الآخر الذى اختفى فى الظلام خلف غمامة من الغبار. وتسللت رائحة الرمال إلى أنفاسى، وعاد الصداع إلى رأسى.

غادرنا النادى بعد قليل ومشينا فى اتجاه جراند أوتيل. كانت أضواء مصابيح الكورنيش والحوانيت توشك أن تختفى خلف الغمامة الصفراء. وعندما بلغنا الفندق رأينا أمامه أتوبيساً سياحياً. ولمحنا خلف إحدى النوافذ جانباً من بار ذى أضواء حمراء خافتة ازدحم بخليط من المصريين والأجانب.

دفعت الباب الدائرى وسعيد فى أعقابى. ولمحت المهندسين الكهلين فى البهو، يتابعان مجموعة من السائحات العجوزات تجمعن حول أعمدة المراوح الكهربائية. مضينا فى الردهة المؤدية إلى البار. ومررنا بغرفة البلياردو حيث كان صيام يلعب مع شخص أوربى جلست فتاته كالملكة تتفرج عليهما.

لم نجد مكاناً فى البار إلا إلى جوار اثنين من المصريين، لمحت أحدهما من قبل عدة مرات بالفندق. كانا يتبادلان حديثاً هامساً وهما يتطلعان إلى فتاة أجنبية تجلس إلى منصة البار.

كانت الفتاة ممشوقة القوام معتدة بنفسها. وكانت تتحدث مع شاب مصرى يقف إلى جوارها. ورأيته يطلب لها كأساً من الويسكى جرعته دفعة واحدة. كان الشاب قصيراً تصدر عنه حركات كوميدية. وتعرف سعيد على الفتاة قائلاً إنها تعمل فى شركة سياحية أجنبية وتأتى دائما مع المجموعات السياحية.

أحضر لنا النادل زجاجتين من البيرة. وجعلنا نتأمل الجالسين فى أنحاء القاعة الخافتة الضوء. وراقبنا فتاة شقراء، كانت تحتسى كأسها دون أن ترفع عينيها عن قاعه.

قام رفيقانا فجأة، وانضما إلى الشاب القصير ذى الحركات الكوميدية. ورأيتهما يطلبان للفتاة كأساً جديداً من الويسكى. وترامت إلى سمعنا بضع كلمات من

حديثهما. وكانا يتحدثان بإنجليزية ركيكة.

فرغت زجاجاتينا، فدفعنا حسابنا، وعدنا إلى البهو. وانتحينا ركناً إلى جوار المروحة العمودية. وكان المهندسان الكهلان ما زالا في مكانيهما.

كان ثمة تقويم سنوى على الحائط المجاور لى، تتوسطه صورة كبيرة لمعبدى أبى سنبل، وفى الركن العلوى من الصورة، كانت هناك صورة مكبرة لواجهة المعبد الكبير وحده، ظهرت فيها تماثيل رمسيس الأربعة العملاقة بوضوح وقد سقط رأس التمثال الثالث عند قدميه.

نقلت بصرى بين الرؤوس الثلاثة التي تحمل نفس الابتسامة. ثم تحولت أشرب البيرة التى طلبها سعيد. وأبصرت بالفتاة الشقراء التى كانت تجلس فى البار تتقدم ناحيتى. ثم أولتنى ظهرها، ووقفت تتأمل صورة المعبدين. وانحدر بصرى فوق ردائها القصير إلى ساقيها المتناسقتين اللامعتين. وتابعت قطرة عرق انزلقت على فخذها ثم ساقها التى خلت من الشعر.

مضت الفتاة إلى قاعة التليفزيون. وظهرت الفتاة الأخرى التى كان الشباب الثلاثة يعاطونها الويسكى فى البار. كانت تتقدمهم حاملة سيجارة فى يدها. وجلس الأربعة وسط البهو. وكف الكهلان عن الحديث، وتحولا يراقبان الفتاه ورفقاءها.

أخذ بقية السائحين الذين كانوا فى البار يتوافدون على الفتاة، يطلبون منها حبوباً منومة. وسمعناها تشرح لهم برنامج الغد بالفرنسية.

ظهر صيام فى مدخل البهو. وتطلع ناحيتنا ثم حول بصره بعيداً، فقمت إليه.

قال بعد أن تصافحنا: تعرف طبعاً أن سامية سافرت أمس؟ أجبت بالإيجاب، وسألته إذا كان قد حجز لنا على باخرة أبى سنبل.

قال: الرحلة تأجلت.

قلت: ومتى تتم؟

هز كتفيه وهو ينظر إلى حيث جلس المصريون الثلاثة حول الفتاة الأجنبية، ثم قال: فى خلال أيام. سأحجز لكما بالتأكيد.

عاد صيام إلى الداخل بعد أن وجه التحية إلى الشبان. ورأيت سعيداً يغادر

مقعده، فمضينا إلى الخارج معاً. مشينا متثاقلين من أثر البيرة والحر فى الطريق إلى ميدان المحطة. ورأينا فتاة مصرية تسير بمفردها على الرصيف، وخلفها ثمانية شبان. قال سعيد عندما حاذيناها إنها قاهرية بالتأكيد وغير جميلة وإلا لما جاءت إلى هنا.

عبرنا الميدان إلى موقف سيارات المهندسين. ولحقنا به قبل موعد تحركه بدقائق. كان الجو خانقاً داخل السيارة. وجلست معتمداً برأسى على مسند المقعد الأمامى.

تحركت السيارة بعد ربع ساعة، وتوقفت عدة مرات فى الطريق، لتلتقط ركابها. وتوقفت مرة أخرى أمام جراند أوتيل، لتأخذ المهندسين الكهلين، ثم استأنفت السير إلى الموقع.

بدا الطريق مكفهراً يغلفه الضباب. كانت أنواره تكاد تختفى تماماً تحت غلالة صفراء. وكانت استراحتنا هى الأخرى مغلفة بنفس الغلالة.

أويتُ إلى الفراش على الفور، ونمت نوماً عميقاً دون أحلام. استيقظت فى الصباح على صوت فقير. وسمعته يقول إن الموتى يتساقطون فى كل مكان.

اعتدلت جالساً، متسائلاً عما حدث.

قال: محدش عارف. يمكن تكون كوليرا.

أفطرنا بسرعة، وذهبنا إلى عباس نستوضحه جلية الأمر، فقال إن أحد عمال الخرسانة سقط ميتاً فى الفجر بعد ارتفاع مفاجئ فى درجة حرارته. كما وجد بائع الفول المواجه لمنزله فى أسوان ميتاً بجوار عربته. سأله سعيد عن رأى المسئولين فهز كتفه وقال: رأيهم أنها ضربة شمس.

سألته عما إذا كان هذا حدث من قبل.

قال: أبداً. أقصد فيه ناس كانت بتموت بضربة الشمس. يمكن واحد كل شهر أما بالجملة هكذا...

قلت: ربما كان هناك وباء من نوع ما. كوليرا مثلاً...

قال: لكن المصابين بالكوليرا أو الحمى المخية لا يموتون هكذا فى ثوان.

قلت: والأطباء ؟ ماذا يقولون ؟

قال: لا أعرف. الأطباء معظمهم فى إجازة. والإصابات الآن محصورة فى

نطاق العمال والصعايدة. وهؤلاء سيواجهون الموت بشعار العمر واحد، والأجل محدود.

قلت: وإذا انتقلت إلى المهندسين وكبار الموظفين؟

قال: عندئذ تقع ثورة.

تطلعت من النافذة إلى الجو المترب. وفكرت بهذا الشئ الغامض الذى يشن هجوماً خاطفاً فى أماكن مختلفة بين أسوان والموقع.

قلت: ربما كانت ثمة علاقة بين عاصفة اليومين الماضيين وما حدث.

لم يعلق أحد. ونهض سعيد مقترحاً الذهاب إلى المستشفى. وقال عندما صرنا فى الطريق: إذا اتضح أن هناك وباء ما، سأعود إلى القاهرة فوراً.

قلت: تكون مخطئاً.

قال: لست مستعداً للتضحية بحياتى.

قلت: ولو قالوا إنك رحت شهيد واجبك الصحفى؟

- ولو جعلوا منى بطلاً وطنياً.
- وأبو سنبل؟
- فى داهية.

مشيت إلى جواره فى صمت مطرق الرأس. وعندما اقتربنا من المستشفى قلت: أنا أيضاً غير مستعد للتضحية بحياتى لكنى سأبقى.

قال: هأ ... تريد أن تبقى مع الجماهير حتى النهاية؟

قلت: وما قيمة هذا؟

قال: إذن لماذا؟

قلت: ربما كنت أريد أن أرى ما سيحدث.

استقبلنا الطبيب المناوب فى اهتمام. وقال لنا إن عدد الموتى الحقيقى بلغ اثنى عشر، لكن أحداً لا يعرف على وجه التحديد حقيقة الأمر.

سألت: ليست كوليرا؟

هز رأسه: ليست كوليرا. فليس ثمة قيئ أو اسهال فى الأعراض السابقة على الوفاة. كما أنها ليست حمى مخية، لأنه لا يوجد تصلب فى الرقبة، ولا تيفود.

قال سعيد: إذن ماذا؟

هز الطبيب كتفيه. ربما ملاريا، كواحدة خبيثة شهدتها فى اليمن، أو أنفلونزا، أو مجرد ضربة شمس.

– وماذا نفعل للوقاية؟

ابتسم الطبيب: لا شئ، فلسنا نعرف وقاية ضد ماذا.

طرق الممرض الباب قائلاً إن هناك طفلاً أحضروه وحرارته 38.5. وعلق الطبيب: الناس تأتينا بعد أن تكون قد انتهت. فى الصباح أحضروا عاملاً أصيب بنزيف. وبالمصادفة كشفت درجة حرارته، فوجدتها 40.

قال سعيد: إذن ارتفاع الحرارة علامة هامة؟

قال الطبيب مفكراً: بالطبع. والعملية تستمر يوماً على الأقل بحيث تستطيع أن تلحق نفسك. على العموم لا بد من وقف وردية الظهر، لأن العمل فى الشمس فظيع. أمس كانت درجة الحرارة 60 وهى كذلك اليوم.

قلت: الصحيفة تقول إنها 44.

قال سعيد: يجب أذن ألا نسير فى الشمس.

قال الطبيب: ضربة الشمس غير مرتبطة أساساً بالشمس وإنما بالارتفاع العام فى درجة الحرارة.

تحسست جبهتى خلسة وخيل إلى أنها ساخنة عن المعتاد.

سألت الطبيب عن العلاج فأجاب باسماً: شئ واحد هو حوض من الثلج.

سأل سعيد: والروس؟

قال لم تحدث بينهم إصابات حتى الآن. هم يعنون برجالهم عناية شديدة ويتخذون إجراءات وقاية صارمة.

تركنا الطبيب وعدنا إلى الاستراحة. شعرت بساقى سائبتين عندما دخلنا غرفتنا، فاستلقيت على الفراش بملابسى. وأدركنى الخوف فجأة عندما فكرت أن الدائرة يمكن أن تدور علىَّ. لم تكن فكرة الموت قد خطرت ببالى من قبل رغم أننى رأيته يحدث للآخرين. وفكرت أن أسوأ ما فى تجربة كهذه ألا يتاح للمرء أن يتحقق

من سلامة فكرة أو فكرتين في رأسه.

تطلعت حولى فلمحت كتاب "مايكل أنجلو". تناولته وجعلت أقلب الصفحات المصورة وتوقفت عند تمثال الشفقة.

❋ ❋ ❋ ❋

العذراء وابنها مرة أخرى. لكنه هذه المرة لم يعد طفلاً. ها هو الرجل الذى كان، الجثة المصلوبة، وقد استقر فى حجر أمه. شئ لم يفعله نحات من قبل. وانحنى رأس الأم فوق اليد المستقرة على قلبها. كأنها كانت تعرف كل شئ منذ البداية، لكن وجهها الحزين من أجل ابنها وجميع أبناء الرجال كان يحمل سؤالا يائساً:" من أجل أى شئ كل هذا". أما المصلوب فقد أغلق عينيه فى سبات الراحة العميق.

❋ ❋ ❋ ❋

فتح لنا ياكونوف الباب، وقال مشيراً بيده إلى الداخل: باجليستا.

ولجنا صالة صغيرة تتوسطها مائدة من الصاج، تحيط بها عدة مقاعد وإلى جوارها ثلاجة مصرية. دعانا ياكونوف إلى الجلوس، وتقدم من الثلاجة، ففتحها. وجلست أمام كوم من الكتب والمجلات الروسية يعلوه عدد من مجلة لايف الأمريكية.

أخرج ياكونوف زجاجة بيرة وجعل يبحث عن فتاحة. وقال فى إنجليزيته الركيكة إنه وضعها على المائدة منذ دقائق. بحثنا عنها بين المجلات، ثم مضى إلى المطبخ وعاد بها قائلاً: عندما لا تكون زوجتى معى أصبح...

وتوقف حائراً يبحث عن الكلمة الإنجليزية المناسبة حتى وجدها فأكمل: أصبح رجلاً ضائعاً. وضحك ضحكته الصافية التى يحمر لها وجهه، وتظهر معها ثلاثة أسنان ذهبية.

سألته: أين هى؟

جلس أمامنا، وشرع يخلع غطاء الزجاجة وهو يقول فى بطء: فى موسكو... ستأتى بعد شهرين. لقد ذهبت لترى ابننا. إنه ابننا الوحيد، وعمره ستة عشر عاماً.

كانت هناك حجرة في مواجهتي، لمحت فيها طرفاً من فراش، وتسريحة صغيرة. وكان ثمة مشجب على الحائط ،يتدلى منه قفازان كبيران للملاكمة، وعلى الأرض تحتهما استقر قضيب حديدي من قضبان رفع الأثقال.

أخرج سعيد مفكرته بينما كان ياكونوف يصب لنا البيرة. وقال لي بالعربية: يبدو أن أحداً آخر لن يأتي وسنقضي الليلة نستمع إلى تاريخ حياته.

وكأنما أدرك ياكونوف ما قاله سعيد، فقد قال إن الفتاتين ستأتيان بعد قليل.

أحسست بالدم يصعد إلى وجهي. وقلت له إن صديقي يريد أن يعرف مدى تأثير الوباء على الروس.

قال: في حدود علمي، لم يصب أحد بشيء حتى الآن.

سأله سعيد: ماذا تظنون يكون هذا الوباء؟

أجاب: لا أعرف. هذا شئ يعلمه الأطباء وكبار المسئولين. ربما كانت ضربة شمس أو كوليرا، ولكني أتمنى ألا يكون شيئاً خطيراً خصوصاً الآن ونحن نستعد لاستقبال الفيضان.

شربنا نخب الصداقة المصرية الروسية. وسأله سعيد عما حدا به للمجيء إلى مصر، فقال إن مصر كانت بالنسبة له دائما أسطورة، وكانت رؤيتها حلماً يداعبه منذ الطفولة.

سألته: أنت طبعاً تأخذ راتباً كبيراً. أقصد أكبر مما كنت تتقاضاه في بلدك، فهل تنفقه كله هنا؟

احمر وجهه مرة أخرى، وأجاب: كلا. هناك جزء يحفظ لي في موسكو.

قال سعيد: وماذا تنوى أن تفعل بهذه المدخرات؟

قال: سأبني منزلاً بالطريقة التعاونية، أعيش فيه بقية حياتي.

طُرِقَ الباب الخارجي. وما لبثت الشقراء أن ولجت الصالة، تتبعها تانيا. وجاء في أعقابهما شاب قصير القامة. قال ياكونوف وهو يجذب مقعدين للفتاتين: إننا التقينا جميعاً من قبل. ثم أشار إلى الشاب وقال: أما هذا فهو "فاليرى ايفانوفتش" وهو... وتوقف ثم خاطبه بالروسية، وتحول الشاب إلينا قائلاً في

إنجليزية سليمة: أنا أعمل مترجماً بقسم القياس الهندسي.

أجلس سعيد الشقراء السمينة بيني وبينه، وجلس ياكونوف على يساري، وأصبح كل من تانيا وفاليرى أمامي.

قام ياكونوف، وأحضر زجاجتين من البيرة وثلاثة أكواب، وعندما أراد أن يصب لفاليرى رفض هذا أن يشرب. ووضع سعيد طرف قلمه في فمه، وتطلع إلى تانيا، ثم قال: أريد أن أعرف كيف جئت إلى مصر.

كانت تانيا في حركة مستمرة منذ جلست. وبدا كأنما جسمها النحيل الطويل لا يملك قوة كافية للاحتفاظ بتوازنه. وأكسبتها هذه الحركة المستمرة شيئاً من الدلال.

احمر وجهها عندما خاطبها سعيد، وأجابت بشيء من الحدة: بالطائرة.

ضحكت أنا وسعيد وقال: لا اقصد هذا. اقصد مثلا هل أنت التي تقدمت للعمل في مصر من تلقاء نفسك ولماذا؟

ابتسمت وقالت: عندما تخرجت من معهد اللغات، كانوا يطلبون مترجمين للعمل في الهند وغانا ومصر. فاخترت مصر.

اشرأب سعيد بعنقه وهو يسجل إجابتها بسرعة وسألها: ولماذا اخترت مصر؟

تناولت تانيا سيجارة من حقيبتها، فأشعلتها لها. وقالت بعد أن التقطت منها نفساً: خفت من حرارة الجو في الهند وغانا. ثم أضافت بعد لحظة: لقد رأيت عدداً من الأفلام المصرية من قبل، وشعرت بنوع من الألفة نحو الحياة في مصر.

قلت لسعيد بالعربية: عندك الآن عنوان مثير "رأت الأفلام المصرية فقررت الذهاب إلى مصر".

تجاهلني، وسأل تانيا عن سنها، فقالت إنها في السادسة والعشرين. وفكرتُ أنها لو كانت أنقصت عامين من عمرها الحقيقي، نكون في سن واحدة.

تحول سعيد إلى فاليرى، فقال إنه في الخامسة والعشرين، وإنه يدرس بكلية الصحافة في جامعة موسكو، وسيستأنف الدراسة بعد أن يمضي عاما في السد. وقال إنه عضو في منظمة الشباب الشيوعي (الكومسومول)، وإنه يضع كتاباً عن السد بعنوان (صداقة في العمل، وصداقة في الحياة). وكان سؤال سعيد التالي عن عائلته،

فقال إن أباه قتل فى الحرب، أما أمه فتعمل فى أحد الحوانيت.

استغرقت فى تأمل شعر تانيا المائل إلى الاحمرار، وعينيها الواسعتين الزرقاوين، والتجاعيد التى تظهر حول فمها عندما تنفعل أو تستغرق فى التفكير. ولاحظت أن ملابسها مجردة من الأناقة.

سألتها إن كانت قد تفرجت على أسوان، ورأت قبر أغاخان، ومتحف جزيرة الفنتين، فقالت أنها لم تفعل بعد. عرضت عليها أن أصحبها فى جولة بالمدينة، فألقت على ياكونوف نظرة سريعة، ثم ابتسمت وهزت رأسها موافقة. ولحظت أن يدها التى تحمل السيجارة قد ارتعشت.

قالت: الناس هنا تعمل كثيراً، ثم تعود إلى المنازل متعبة لتأكل وتنام. ولا يعوّد ثمة مجال للذهاب إلى أى مكان. وابتسمت ثم أضافت: على الأقل هذه هى التهمة الموجهة إلى الرجال.

ضحك ياكونوف ضحكته الصافية بعد أن كررت له ما قالته بالروسية. وقَطَّبَ فاليرى حاجبيه، وقال شيئاً بالروسية. فوجمت تانيا لحظة، ثم ردتٍ عليه فى شئ من الحدة، فلزم الصمت.

كان سعيد منهمكاً فى حديث خافت مع الشقراء. وكانت تصدر عنها ضحكات متتالية وقد احمر وجهها. وشعرت بها تتململ فى مكانها، وتتحرك مقتربة منى. ثم رأيت ساق سعيد تطارد فخذها الأيمن بإلحاح. ولاحظت أن جسمها رغم سمنته، قوى مشدود بلا ترهلات. وكانت تبدو عليها حيوية المرأة التى تمارس وظائفها الطبيعية بنشاط.

تشاغلت بتقليب المجلات الموضوعة على المائدة، وعثرت فجأة أسفلها على مجموعة من الأوراق، تحمل رسومات حديثة بالألوان المائية لم تكد تجف. كان موضوعها واحداً يتكرر دائماً. نساء ممتلئات، يتلوين عرايا بين ألسنة من النار.

لمحنى ياكونوف أتصفح الرسومات، فانقض بيده عليها، ولكنى جذبتها بعيداً قائلاً إنها تبعث على الاهتمام. ضحك فى خجل، وازداد احمرار وجهه، بينما مالت تانيا فى اهتمام، وأصرت على أن تراها. والتفت المائدة كلها حول أعمال

ياكونوف، وانهالت التعليقات الضاحكة بالروسية، بينما ازداد تقطيب وجه فاليرى.

قلت لياكونوف: لم تقل لنا رأيك فى المرأة المصرية.

فكر طويلاً قبل أن يقول: لا أستطيع الحكم عليها. فلم أعرفها.

قلت: والروسية؟

قال: إنها سمينة مثل المصرية، ولكنها فيما يبدو لى متقدمة أكثر. وأكمل الجملة بالروسية طالباً من تانيا أن تترجمها لنا، فقالت: إنه يرى أن المرأة هى المرأة فى كل مكان.

نهضت الشقراء فجأة قائلة إنها يجب أن تنصرف. وكانت الساعة قد تجاوزت العاشرة. ونهض سعيد بدوره قائلاً إن لديه موعداً مع أحد العمال فى الموقع، وإنه سيرافق الشقراء حتى منزلها فى طريقه. اعترضت بأن منزلها ليس بعيداً، ولكنه أصر فاستسلمت.

دار الحديث بعد ذهابهما حول العمال المصريين. وقال ياكونوف عن طريق فاليرى إنهم أذكياء رغم أن الكثير منهم لا يعرفون القراءة والكتابة. حكيتُ له النقاش الذى شاهدته فى مكتب ذى الأسنان المعدنية، وكيف ترفع العامل المصرى عن القيام بأى عمل يدوى، فلم يعلق بشيء وإنما قال: على أية حال العنصر اليدوى فى السد يتلاشى الآن. فكل العمليات التى تجرى الآن عمليات فنية للغاية.

قلت: أجل. سمعنا عن دقة الحفر الذى يجرى لتوسيع مدخل القناة.

قال: وهناك الحقن . فقد بدأ حقن الصخور من داخل ممرات التفتيش. والحقن يتم بطبقة رفيعة جداً، سمكها نصف سنتيمتر، تدفع وسط كتل الصخر.

قلت: لا اذكر أن برنامجنا اشتمل على شئ يتعلق بالحقن.

قال: المسألة بسيطة. بوسعكما أن تزورا غداً مصنع الحقن. سأتصل فى الصباح الباكر بالمهندس المسئول هناك وهو صديق لى يدعى "أريول".

وقف فاليرى قائلاً إنه يريد أن ينام مبكراً، فنهضت معلناً رغبتى فى الانصراف. وقامت تانيا بدورها. وصحبنا ياكونوف إلى خارج المنزل، ثم اشتبك فى حديث مع فاليرى، فانتهزت الفرصة وعرضت على تانيا أن نقوم بجولة فى المدينة

ليلة الخميس.

ألقت نظرة سريعة على ياكونوف وفاليرى، ثم قالت هذا غير ممكن.

قلت: إذن يوم الجمعة أو أى يوم آخر فى الأسبوع.

هزت كتفيها قائلة: لا اعرف.

تحول إلينا ياكونوف، فصافحنى، وودع كل من تانيا وفاليرى، ثم عاد إلى الداخل. سرنا فى صمت حتى بلغنا شارعاً يفصل بين صفين من العمارات، فتوقف فاليرى واستدار ناحيتى. وألفيت نفسى مضطراً لأن أودعهما وأنصرف.

قالت تانيا فجأة بعد أن صافحتها: إذا أحببت يمكن أن نلتقى بعد غد فى منزل فاليرى.

أومأ فاليرى برأسه وقال: مرحباً بك.

قلت: أوكى. سآتى. لكن أين المنزل؟

أشار فاليرى إلى نهاية الصف المقابل وقال: آخر منزل الشقة الخامسة.

تلفت حولى متعرفاً على المكان، ثم ودعتهما مرة أخرى. وهتفت بى تانيا وأنا أبتعد: لا تنسى أن تحضر صديقك معك.

وصلت محطة السيارات قبل مقدم سيارة المهندسين بدقائق. ووجدت غرفتنا فى الاستراحة خالية، فأخذت حماماً سريعاً، واستلقيت على فراشى أدخن وأنصت للموسيقى.

عاد سعيد بعد ساعتين. وولج الغرفة مكفهر الوجه، فأدركت أن الأمور لم تجر كما تصورت. رويت له حديث ياكونوف عن الحقن، واقتراحه الذهاب فى الصباح إلى المهندس أريول. وسألنى عما فعلناه بعد ذهابه. فقلت: لا شئ. وأنت؟

لم يجب وأشعل سيجارة. ولم أشأ أن أكرر السؤال، فقد كنت واثقاً أنه لن يطيق الصمت وسوف يروى لى ما حدث بعد قليل.

قلت: لقد دعانا فاليرى إلى منزله بعد غد. وستكون تانيا هناك، وربما جاءت صاحبتك أيضاً.

لم يعلق بشئ وشرع يخلع قميصه وبنطلونه. ولم يلبث كما توقعت أن حكى

لى كيف صحب الشقراء إلى منزلها، وكيف سمحت له أن يقبلها ويحتضنها فى الظلام أمام المنزل، ثم رفضت رفضاً باتاً أن يصعد معها.

ولكنى صعدت بالرغم منها حتى باب مسكنها. وقلت لها إنى سأدخل معها مهما حدث، فقالت إن صديقها سيأتى بعد قليل. ولم أصدق قصة هذا الصديق، فقد كنت متأكداً أنها وحيدة تماماً. وهددتنى بأن تصرخ. وعندئذ بدأت أهتز. وقفنا متواجهين على السلم بعض الوقت. ثم قررت أن أنسحب بنظام، فطلبت منها أن نتقابل فى وقت آخر، فرفضت تماماً قائلة إنها لا تريد أن ترانى مرة أخرى.

قلت: لو كنت مكانك لتركتها عندما رفضت أن تصعد معها.

قال: لكن المرأة تتمنع دائماً فى البداية.

قلت: إذن كنت تركتها عندما قالت إن صديقها قادم.

قال: لا أظن أنها كانت تقول الحقيقة.

قلت: المهم إنها لم تكن تريدك.

قال: لقد كانت ترتعش من الشهوة طوال الوقت منذ داعبتها بساقى عند ياكونوف.

قلت: ألم يخطر ببالك أنها ربما كانت ترتعش من الخوف؟

قال: الخوف. مماذا؟

قلت: الخوف من ياكونوف... من فاليرى. من أن يفاجئكما أحد من الروس، فيضيع مستقبلها.

قال: سيعيدونها إلى موسكو وهى عائدة على أية حال.

قلت: لكنها عائدة لتواصل العمل لا لتبقى فى بيتها. وهى تريد أن تسافر إلى أماكن أخرى، وان تتقدم فى عملها.

قال وهو يستلقى على فراشه: لعلها لم تكن تريدنى اليوم لأى سبب من الأسباب. وربما لو حاولت مرة أخرى غداً أو بعد غد...

قلت وأنا أطفئ النور: سنرى.

❋ ❋ ❋ ❋

أصر سعيد فى الصباح على القيام بالزيارة المعتادة لعباس. وفضلت أن أنتظره فى الظل بجوار مكتب البريد. ابتعت الصحف ولم أجد فيها إشارة واحدة لحالات الوفاة المنتشرة فى السد. ولم أعبأ بقراءة درجة الحرارة بعد ما ذكره الطبيب. توقعت ألا يفوت اليوم على خير كما يحدث فى كل مرة نذهب فيها إلى عباس. وما لبث سعيد أن عاد جالباً معه أخبار الموتى، وآخرهم عامل النادى الذى سقط ميتاً وهو يشرب كوباً من الشاى. وقال إن لجنة من مديرى وزارة الصحة وصلت بالطائرة.

مضينا إلى الجاراج، واستطعنا أن نفوز بشاحنة طراز تايمز. وتكومنا إلى جوار السائق وقد رفعنا سيقاننا إلى أعلى وطلبنا منه أن يأخذنا إلى مصنع الحقن.

انطلقت الشاحنة تلف وتدور متفادية العقبات. وكانت الشمس تقع على وجوهنا حامية تكاد تعمى عن الرؤية. أشرفنا على جسم السد بعد دقائق، وسرنا بحذائه قليلاً.وكانت البلدوزرات والهراسات منهمكة فى تسوية الرمال والطمى ودكها. ولحظت واحداً منها غريب الشكل كان يجر خلفه صندوقاً ضخماً امتلأ بالصخور، واستقر فوق ست عجلات من المطاط. وبدا جسم السد كأرض معركة كبيرة، تتحرك فوقها فرق من الدبابات المتكاسلة.

درنا حول هضبة صغيرة من بقايا عمليات التفجير، وانطلقنا فى طريق دائرى منحدر. وعندما بلغنا نهايته فوجئنا بقلابة روسية من طراز ماز قد استلقت على ظهرها بعرض الطريق، وارتفعت عجلاتها فى الهواء. وعلى مقربة منها، استقرت قطعة ضخمة من الصخر على قارعة الطريق. وكان هناك بلدوزر يتقدم من القلابة رافعاً ذراعه الأمامى إلى أعلى. ثم توقف وتراجع على جنزيره مبتعداً عنها. وتوقف مرة ثانية ثم اندفع نحو القلابة مصوباً درعه إلى حافتها. وهبط الدرع حتى أصبحت حافة العربة معتقلة بين الدرع وجنسم البلدوزر. ومرت لحظة تجمد فيها كل من الدرع وحافة القلابة، ثم صدر عن البلدوزر صرير مرتفع، وما لبثت القلابة أن بدأت ترتفع عن الأرض. وإذا بالبلدوزر يتخلى عنها فجأة متراجعاً إلى الخلف، فسقطت مكانها. وعاد البلدوزر يتقدم من القلابة ودرعه فى جانبها، ثم رفعها فى الهواء قرابة المتر. وزحف ببطء دافعاً القلابة أمامه. وسمعنا رجة وإذا بها تعتدل

فوق إطاراتها من جديد.

التقط سعيد عدة صور لمراحل إعادة القلابة إلى وضعها. كما صور سائقها الذى جلس على صخرة قريبة يراقب العملية. ونادى سائقنا عليه ليبعد عربته عن الطريق. وقام هذا متثاقلاً، فتقدم من عربته ببطء، وتوقف بعيداً عنها يتطلع إليها بوجهه الذى ملأته التجاعيد. وبدا كأنما يخشى الاقتراب منها. وأخيراً تقدم منها، وفحص موتورها ثم اختفى داخلها. وظهر بعد لحظة، فوقف يتأملها، ثم هتف بسائق البلدوزر أن يدفعه.

قام البلدوزر بعدة مناورات حتى تمكن من إزاحة القلابة التى أمسك سائقها بمقودها. وانفتح الطريق أخيراً أمام سيارتنا الخفيفة.

بلغنا فناءً واسعاً مسوراً به بضع مبان حجرية من طابق واحد. غادرنا الشاحنة وعبرنا الفناء بسرعة فراراً من حرارة الشمس. استقبلنا فى الداخل شاب روسى ذو ملامح شرقية، قال لنا أن أريول مضى إلى اجتماع طارئ فى الهيئة.

أخذ منه سعيد بضع بيانات سريعة عن مواد الحقن، علمنا منها أنها تتألف من أربع مواد اثنتان منها متوفرتان فى الموقع وهما الرمال والطمى. والمادتان الأخريان يؤتى بهما من روسيا.

اتفقنا مع الشاب على أن نعود فى الثامنة من صباح الغد، ومضينا إلى الخارج. وقال سعيد إنه يشعر بالتهاب فى حلقه ويريد الذهاب إلى المستشفى. فأقلتنا الشاحنة إليه.

قاس الطبيب حرارة سعيد فوجدها 37 درجة. سأله سعيد عن أخبار اللجنة الطبية، فقال إنها تميل إلى الاعتقاد بأن الأمر لا يتعدى ضربة شمس قوية. ونصحنا بأن نتجنب الشمس والحرارة بقدر الإمكان.

التجأنا سريعاً إلى كهفنا المكيف، ولم نغادره إلا إلى الحمام ثم المطعم. وملأ لنا فقير الترموس بالليمون المثلج. ثم استلقيت على الفراش أقرأ رواية "على الطريق" لكيرواك.

شعرت بحرارة مفاجئة تسرى فى جسدى، ثم تنحسر. وتكرر ذلك عدة مرات

فألقيت بالرواية جانباً، وتمددت ساكناً أحدق إلى السقف. وانتابنى الشعور بهبوط عام.

غفا سعيد طويلاً. وقال لى عندما استيقظ إنه يشعر بالبرد. جذب الملاءة فوقه ثم أضاف إليها البطانية. وبعد قليل طلب منى بطانيتى قائلاً إنه يرتعش من البرد.

سويت كل الأغطية التى لدينا فوقه، لكنه استمر يرتعش وأسنانه تصطك بصوت حديدى بارد. أغلقت التكييف، وارتديت ملابسى، ومضيت إلى الخارج بحثاً عن طبيب.

كانت العيادة الطبية تبعد عن الاستراحة مسافة عشر دقائق سيراً على الأقدام. وكانت الشمس ما تزال ترسل أشعة قوية رغم أن الساعة قد أشرفت على الخامسة. وجدت الطبيب يفحص شخصاً ثم يقول له إنه يمثل ولا يشكو من شئ. وبالفعل انتصب واقفاً كالجواد وأنصرف. وقبل أن ابدأ حديثى ولج الغرفة عدة رجال يحملون عاملاً لدغه عقرب. وأعطاه الطبيب حقنتين، ثم نصحه بعدم شرب الماء والاكتفاء بالليمون.

قست حرارتى فى هذه الأثناء فوجدتها 37 درجة. ورويت للطبيب حالة سعيد، فاستمع إلىَّ فى غير اكتراث حتى علم أن سعيد صحفى، فأبدى اهتماماً بالغاً. وقام معى فى سيارة الإسعاف التابعة للعيادة، وانطلقنا إلى الاستراحة. وتولى سائق السيارة وفقير حمل سعيد إليها ملفوفاً فى أغطيته، وعدنا أدراجنا إلى العيادة.

وضع سعيد فى غرفة خاصة بالأطباء تضم فراشين. وقاس له حرارته، فوجدها تحت الأربعين بشرطة واحدة . أعطاه حقنة فيتامين (ث)، وأتبعها بحقنة نوفالجين فى الوريد. وعاونت الطبيب فى محاولة التقاط أحد أوردة ذراعيه. كانت قد اختفت خلف طبقات الشحم السميكة التى أضافها سعيد إلى جسمه فى السنوات الأخيرة.

ظل سعيد يرتعش بعض الوقت. وقال لى بين أسنانه المصطكة إنه يشعر بأنه على أبواب الموت. هونت عليه، وبقيت إلى جانبه حتى توقفت الرعشة، فانطلقت إلى الاستراحة وطلبت من فقير أن يملأ الترموس ليموناً. وحملت الترموس والراديو إلى سعيد.

كان نائما، وأستيقظ عندما ولجت الغرفة. أعطيته كوباً من الليمون، وأدرت

الراديو. كان هناك برنامج من أغانى عبد الوهاب، استمعنا فيه إلى أغنية قديمة له مسروقة اللحن، تبعتها أغنية "عاش الجيل الصاعد".

قال سعيد فجأة: أغلق الراديو بالله. هذه الأغنية حزينة.

أغلقت الجهاز وأشعلت سيجارة.

❋ ❋ ❋ ❋

ولعنة العصر يمكن أن تصبح أروع نعمة، عندما يخلو المبنى الأصفر الكئيب من صداه، وتتشوق الآذان إلى نغمة واحدة تصل بنى البشر بماضيهم، لكن الأزرار فى يد حارس يدرك أنه لو سمح للصوت أن يتسرب، لالتوت جميع الآذان فى اتجاهه، وعند الغروب اقتادونا إلى الفناء فى سكون مطبق، وأجلسونا القرفصاء على الأرض، ليؤكدوا لنا أننا فقدنا حريتنا، وأشرفوا علينا وقوفاً: الضابط الجرم الذى كان دائم الصراخ بأنه يرى من ثقب ظهره، والجندى العجوز النحيف الذى جعل من ندائه اليومى وهو يرمى إلينا بعيدان الفجل الصفراء جملة موسيقية، ثم الآخر الذى كان صورة مجسمة للإنسان الأول بجسمه الضخم عديم الشكل، ويده السمينة، وأظافره المتحجرة، وعينية النصف مغمضتين فى غباء، والهمهمة الغامضة التى تصدر عن فمه، وبدأ ضوء النهار يتلاشى، واصطبغت السماء بلون وردى أخاذ، ومازلنا مقرفصين، نتلهف على معرفة وجهتنا، ولا بد أن يكون الحارس على الجهاز قد انتابته نوبة مفاجئة من المرح، فقد انطلق الصوت على حين غرة من المكبرات المثبتة فى الفناء يترنم بحياة الجيل الصاعد،

❋ ❋ ❋ ❋

أعلن سعيد رغبته فى النوم، وطلب منى أن أذهب إلى أريول فى الصباح. غادرته ومشيت على مهل نحو الاستراحة. ثم تجاوزتها ومضيت فى الطريق المؤدى إلى محطة الكهرباء. كانت المصابيح الكهربائية المنتشرة فى كل مكان فوق أعمدة خشبية قد بدأت ترسل ضوءا باهتاً. وكان الظلام لم يطبق أستاره بعد.

مررت بقلابة من طراز ماز، كانت تنتحى جانب الطريق، وقد التوى

إطاراها الأماميان فى حدة إلى اليسار. وتوقفت إلى جوار مجموعة من عمال اللحام، انهمكوا في إيصال قضبان معدنية مختلفة الأحجام. وكان ضوء الأكسجين الساطع يبرق فوق الدروع المعدنية التى تغطى وجوههم.

عبرتُ محطة الكهرباء بحذاء الحائط الذى تقبع دوائر التوربينات أسفله. انتظرت حتى مر بى طابور الشاحنات الفارغة، ثم انطلقت فى طرقات ملتوية حتى أشرفت على بداية جسم السد من مرتفع صغير. وقفت أتأمل ممر التفتيش القوس الذى سلطت عليه أضواء الكشافات. كان جزؤه القريب منى مُغطى بالأسمنت والطمى، أما الجزء الآخر فكان ما يزال شبكة من القضبان الرفيعة المتعانقة.

كان هناك عدد من الصعايدة على مقربة، يقومون بتمهيد الأرض بالفؤوس ورشها بالمياه. وفوقنا امتدت السماء شديدة الصفاء لا أثر بها للقمر أو النجوم .

تحولتُ إلى اليمين، وسرت مسافة بين قطع ضخمة من الصخور. مررت بحفارة متصلة بمجموعة من الأجهزة المتشابكة. وفى صندوقها جلس عامل روسى يقرأ فى ضوء مصباح كهربائى مثبت فى السقف.

أشرفتُ على مستوى منخفض من الرمال المختلط بالزلط. وفى أحد جوانبه كانت الرمال تنساب فى قوة من فتحات أنابيب التجريف، مصحوبة بالمياه. وخلفه كان هناك صف من الأكشاك الخشبية المضاءة.

لم يكن بوسعى أن أرى المستوى التالى خلف الأكشاك، ولكنى أعرف أنه يمتد حتى صف البراميل السوداء المستديرة. وبعدها يبدو النهر بركة ضحلة هادئة، بينما تتدفق مياهه الأصلية عبر القناة الجديدة، وتنساب إلى شمال الوادى حتى البحر.

شعرتُ بالعطش، فاتجهت إلى أحد الأكشاك. وعندما اقتربت منه، رأيت ثلاثة من العمال المصريين يقتعدون الأرض أمامه وفى أيديهم أكواب الشاى. وجهت إليهم التحية، فدعونى إلى الشاى. وأراد أحدهم أن يقوم، ليحضر لى مقعداً، لكنى أمسكت به ليبقى، وجلست إلى جوارهم.

تبادلنا الأسئلة عن موطن كل منا، كان بينهم اثنان من الصعيد، وواحد من الدقهلية.

سألت الدقهلاوى عن عمله فقال إنه مساعد كهربائي.

قلت: وقبل السد .... كنت بتعمل إيه؟

أجاب: كنت أشتغل فى الأرض.

– وإيه اللى خلاك تسيبها، وتيجى على هنا؟

– ناس جت من بلدنا ع السد، فجيت معاها.

– واشتغلت مساعد كهربائي على طول؟

تطلع إلى فى عجب: لا طبعاً. فى الأول اشتغلت عتال ... أشيل وأودى. حبة بحبة تعلمت. كنت أقف إلى جنب الصنايعى، أبص عليه وأسأله.

ـ ومبتخفش من الكهربا؟

ـ دلوقت لا ... إنما الأول ... ياما تكهربت. لكن أنا اتعلمت إزاى أشد ذراعى بكل قوتى لورا لما أتكهرب، وأعزل نفسى على طول. الغشيم أول ما يتكهرب ضرورى يتعور، ويمكن يموت لأنه بيتلخم وما يعرفش يتصرف.

قام الصعيديان قائلين إن ميعاد ورديتهما قد حان. واستعد الدقهلاوى لمرافقتهما. وعدت أدراجى.

قابلتنى عند جسم السد شاحنة بارفورد ضخمة، يضيئها مصباح صغير للغاية بجوار السائق، أضفى عليها فيضاً من الضوء البنفسجى الرائع.

رفعتُ بصرى إلى السماء، كان ثمة نجمة كبيرة تتلألأ على يمينى وقد انفردت بصفحة السماء. ظللت أتأملها بعض الوقت، ثم اتجهت نحو الاستراحة.

ولجتُ المطعم دون أن أشعر بشهية، فاكتفيت من طعام العشاء بشريحة من البطيخ. والتجأت إلى غرفتى، فأدرت التكييف، وخلعت ملابسى، ثم استلقيت على الفراش وتناولت كتاب "ميكل انجلو".

❋ ❋ ❋ ❋

لم يكن مسيحه المطلوب ابن إله بقدر ما كان إنساناً. فقد التوت رأسه وركبتاه فى اتجاهين متعارضين، لرجل يمزقه الصراع الداخلى بين جهتين. رجل لا تعذبه المسامير الحديدية بقدر ما يعذبه الشك. فماذا يكون قد دار بذهنه منذ اللحظة التى دقوا

فيها أول مسمار فى لحمة عند الغروب، واللحظة التى مات فيها غير التفكير فى عجز الإله عن الحيلولة دون هذه الوحشية، وجدوى رسالة تريد أن تبشر بالأخوة، وتريد أن تمحو العنف؟

❋ ❋ ❋ ❋

غادرتُ الفراش، وتأكدت من إغلاق الباب، ثم أطفأت النور، وعدت إلى الفرش. جذبتُ الأغطية فوقي، وأنصت إلى طنين جهاز التكييف. تقلبت عدة مرات ثم نمت.

حلمت أني أسير بين مواسير ضخمة في أعماق نفق ولا أستطيع التنفس، لأن الجو خانق. وأصبح رمادياً أو بنياً. وجريت متوقعاً أن ينهار النفق فوقي. ثم رأيتني أتطلع إلى أمي وهي تطل من النافذة، لترى شيئاً في الحارة، وأمسكت بساقيها لأمكنها من أن ترى جيداً، لكنها سقطت مني إلى أسفل، وارتطمت بالأرض في صوت رهيب.

استيقظتُ ألهث، ومرت لحظات حتى تأكدت من مكاني. قمت، فأضأت النور، وشربت كوباً من الماء، ثم أشعلت سيجارة وجلست على حافة الفراش.

❋ ❋ ❋ ❋

الجنود صفان متقابلان، كعهدهم دائماً، وعصيهم الغليظة تشق الهواء جزافاً، والصيحة المتوحشة تأمر بالجرى بينهم حتى الساحة، وهناك استقرت منصة مرتفعة جلس خلفها الجنرال بملابسه العسكرية، والشارة الحمراء التى تدل على رتبته الرفيعة، وحوله النظارة الذين جاءوا خصيصاً ليشهدوا الحفل، وقد ارتدوا جميعا نظارات سوداء، وانهالت الضربات على الرؤوس والصدور والظهور، بالقضبان والأقدام والعصى و الأحزمة الجلدية و النبابيت والشوم وكعوب الأحذية العسكرية، وجرد الضحايا من ملابسهم واقتيدوا واحداً بعد الآخر أمام الجنرال، ليتفقد بعينيه أحجام رجولتهم، ثم سحلوا عراة فوق الرمال، حتى الوحش الآدمى ذو العينين المجنونتين الذى اندفعت قبضة السمينة فى الهواء، وقد لمعت فوقها بقعة من الدماء الطازجة، وبعد ذلك كان الدوران عشرات المرات حول العنبر الحجرى الطويل، وداخله كانت هناك الأرض الحجرية العارية، والدماء التى تترف من الظهور، والهذيان وفقدان الواعى، وفى المساء أضئ

النور، فتبدت معالم المكان، وظهر الفراغ الذى تركه إلى الأبد الجسم العملاق والوجه الذى لم تفلح آثار الجدرى فى تشويهه،

❋❋❋❋

أطفأتُ النور، وحاولت أن أنام، لكننى لم أستطع، نهضت مضعضعاً فى الصباح وغادرتُ الاستراحة إلى الموقع. وانطلقت سيراً على الأقدام إلى مصنع الحقن. لم تكن الحرارة قد اشتدت بعد. وعلى جانب الطريق افترش باعة الباذنجان والطعمية الأرض. وخلفهم ظهرت شرائح البطيخ.

بلغتُ جسم السد بعد عشرين دقيقة، وسرت بحذائه بحثاً عن الهضبة الصغيرة التى يبدأ خلفها الطريق الدائرى المنحدر. عثرت على الهضبة بسهولة، ولكنى لم أعثر للطريق على أثر.

التجأتُ إلى أحد جنود البوليس الحربى، فضحك قائلاً إن الطريق ردم بالليل، ووصف لى كيف أبلغ مصنع الحقن. مررت بعدة منحنيات وهضاب قبل أن أبلغه. واقتادنى أحد العمال المصريين إلى مكتب أريول.

كان هذا يقف فى طرف الغرفة منحنياً فوق خارطة، نشرها أمامه على طاولة رسم. ودون أن يتحرك من مكانه، أشار لى وهو يبتسم بدعة أن أجلس، وواصل العمل فى خارطته.

لحظتُ تلك النظرة الشاردة التى أتتنى من فوق عويناته، وكانت هذه تنزلق على أرنبة أنفه، وقد انقسمت عدستاها إلى منطقتين مختلفتين بخط بيضاوى. وبدا لى فوق الخمسين، وإن كان الشعر الكثيف فوق رأسه وحاجبيه نادر البياض.

تطلع إلىَّ بابتسامة ودودة من الجزء العلوى فى عويناته. ثم استأذن منى فى أدب جم مغادراً الغرفة. وكان ذلك فى الثامنة والنصف.

دخنتُ سيجارة، ثم قمت أتفرج على الخرائط المعلقة فوق الجدران. كانت إحداها لبوابات الأنفاق، والثانية لفتحة النفق المائل، والثالثة لمحطة الكهرباء. وكانت هناك خارطة للموقع بدا السد فيها كائناً ضخماً يواجه الجنوب، وقد احتجز الماء بجسده، وارتكز بساعديه على حافتى النهر باسطاً إياهما إلى أقصاهما. وبدت

الذراع اليمنى أطول من اليسرى بوضوح، وفى القلب استقرت النواة الصماء، وامتدت ستارة رأسية صلبة إلى قاع النهر، وأخرى أفقية تخللت الساعد الأيمن.

كان الرمز الذى يشير إلى عمليات الحقن، يمتد عبر الكتفين والذراعين مروراً بمحطة الكهرباء. خططت فى مفكرتى رسماً تقريبيا له، ثم عدت إلى مقعدى.

دخل الغرفة مهندسان روسيان، وجها إلىَّ التحية فى ود، ثم بسطا خارطة على المكتب وانكبا عليها، يناقشانها. ألقى أحدهما بصره ناحيتى عدة مرات، دون أن يبدو عليه شئ من الدهشة أو التساؤل لوجودى. تطلعت إلى ساعتى، فألفيتها قد بلغت التاسعة والثلث. ولمحنى الثانى وأنا أنظر فى ساعتى، فحدثنى بالروسية، هززت رأسى باسماً. سألنى فى إنجليزية مترددة عما إذا كنت أود مقابلة أريول. أومأت بالإيجاب، فقال إنه فى المكتب الخامس على يمين الممر.

غادرتُ الغرفة، ومشيت فى ممر ضيق، أعد الغرف. وجدت باب الغرفة الخامسة مفتوحاً، وقد استقر جسم أريول البدين فى أقصاها خلف مائدة تصميمات. وقفت لحظة أرقبه يعمل فى هدوء وطمأنينة. ثم ناديت عليه مشيراً بإصبعى إشارة لم يكن لها بالتأكيد أى معنى، وإن كنت أريد أن أقول إنى سآتى فى الغد. التفت ناحيتى، ثم ابتسم وعاد إلى عمله.

غادرتُ المبنى، وانطلقت سيراً على الأقدام إلى الاستراحة. أخذت حماماً وأفطرت. وأحضر لى فقير ترمسا مليئاً بالشاى، حملته إلى سعيد. وأخذت له معى مجلتين مصورتين وكتاب "ميكل أنجلو".

كانت درجة حرارته قد انخفضت، لكن روحه المعنوية كانت فى الحضيض.

ابتدرنى قائلاً: أريد أن أسافر اليوم.

وضعتُ الترموس إلى جواره، وجلست على حافة الفراش المقابل. قلت:

– لكنك صرت أحسن حالاً. وزال الخطر فيما يبدو لى.

– لا أريد أن أموت فى هذا المكان اللعين، سأسافر اليوم أو غداً.

– والفيضان؟

– سأتركك تستمتع به، وبرحلة أبى سنبل أيضاً. بوسعك أن تبقى كما تشاء

في الاستراحة.

صببتُ له كوباً من الشاي، وطلب منى أن آخذ بطاقة الطائرة من حقيبته، وأحجز له مكاناً على أول طائرة من فندق جراند أوتيل.

أعطيته المجلتين، وكتاب ميكل أنجلو، فقلب صفحاته، وقال: من قال لك إنى أعبأ بتماثيل هذا اللوطى؟

قلت: أنت مخطئ. لم يكن لوطياً.

قال: كان عنيناً إذن.

قلت: ولا هذا.

قال: إذن ماذا كان؟

قلت: هل يجب أن يكون شاذاً؟

قال: لا تقل لى أنه كان طبيعياً.

قلت: لم لا؟ لقد كان دائم التنقل، عازفا عن تكوين أسرة. وكان النحت يستهلكه تماماً. كان مثل كثيرين غيره. مجرد إنسان وحيد.

استعدتُ منه الكتاب. وأعطانى مفتاح حقيبته. فعدت إلى الاستراحة، وأخرجت بطاقة الطائرة الخاصة به. وضعتها فى حافظة جلدية، وخرجت إلى الطريق الملتهب.

لحقتُ بسيارة ركاب عند موقف رجل البوليس الحربى. ووجدت مقعداً خالياً، فجلست وأنا أهنئ نفسى بأنه لم تبق أمامى سوى مشكلة العودة. لكننا لم نكد نبلغ السيل حتى أعلن السائق فجأة أنه لن يواصل السير.

غادرتُ السيارة خلف ركابها ووقفنا فى الطريق نتابعه وهو يعبر الجسر، ويقف أمام إحدى العمارات حيث يسكن فيما يبدو.

عبرت الجسر خلف السيارة. وألفيتنى فيما يشبه السوق. فقد افترش عشرات الباعة الأرض، أمام مختلف أنواع العطارة والحلي والبخور.

رأيت زنجياً فارع الطول يقترب من أحد الباعة واضعاً يده فى وسطه باستعلاء. كان يرتدى جلباباً أبيض يصل إلى قدميه الحافيتين. وكان شعره طويلاً،

يتدلى على كتفيه مجدلاً فى ضفائر رفيعة للغاية. وبرزت منه عصا حديدية غريبة الشكل. وحول خصره التف حزام عريض من الجلد.

اقتعد الزنجي إلى جوار أحد الباعة، ومد يده إلى رأسه، فسحب العصا، وهرش بها، ثم أعادها إلى مكانها. وجرى بينه وبين البائع حديث بلغة غير العربية، اشترى فى نهايته موساً وترتراً، ودفع الثمن من حافظة جلدية أخرجها من صدره.

عبرتُ الجسر من جديد عائدا إلى الطريق الرئيسى، ووقفت قرابة الساعة، ألوح للسيارات المارة بلا فائدة، وظهرت أمامي بغتة سيارة ركاب، أبطأت من سرعتها، فقفزت إليها. وما لبثت أن ضاعفت سرعتها، وإذا بها تعود إلى الموقع.

نزلت فى كيما، وعبرت الطريق إلى النادى الروسى. مشيت عدة خطوات حتى محطة الخط الفرعى بين كيما وأسوان، ووقفت نصف ساعة حتى جاءت سيارة، أقلتنى إلى فندق جراند أوتيل.

كان صيام جالساً فى ردهة الفندق مع شاب مصرى، يرتدى قميصاً حريرياً، وعوينات شمسية ذات سطح شديد اللمعان، يحول دون رؤية عينيه. حجزت لسعيد من مكتب الاستقبال فى طائرة الغد، ثم انضممت إليهما. وقدم لى صيام رفيقه على أنه أحد موظفى المطار.

سألنى صيام عن سعيد، وتبادلنا أنباء الوباء. وقال موظف المطار إنه متأكد أن تفجيراً ذرياً تم فى الصحراء الغربية هو السبب فى كل هذا.

سألته فى غباء: ومن الذى قام بالتفجير؟

خلع نظارته، وتطلع إلى بعينين عسليتين تنطقان بالاستهجان الشديد: نحن بالطبع.

ظهرت فى مدخل الفندق فتاة أوروبية رشيقة فى رداء أبيض، تعلقت بذراع شاب مصرى طويل. تابعناهما بأبصارنا وهما يصعدان الدرج. وقال صيام بصوت خافت: ربما كانت زوجته.

أضاف موظف المطار بعد أن أعاد نظارته إلى عينيه: ابن بلدنا يقوم بالواجب الآن.

قلت: ما زالا على السلم.

قال: ليس هناك أجمل من ذلك على السلم.

ظهرت الفتاه ورفيقها بعد لحظات، وشرعا يهبطان الدرج. وعلق موظف المطار: كانت جولة سريعة.

قلت لصيام إن سعيداً لن يتمكن من الذهاب إلى أبى سنبل، وإنى سأذهب بمفردى.

قال إنه لا يوجد مكان لى.

قلت: ولكنك وعدتنا.

قال: وماذا أفعل. هناك وفد مصلحة الآثار، لا بد أن يكون فى أبى سنبل هذا الأسبوع.

قلت: وما العمل؟

قال: انتظر الرحلة التالية بعد أسبوعين.

قلت: ولكنى لا أستطيع الانتظار طوال هذه المدة.

قال: إذن سافر على أحد الصنادل التى تنقل الأسمنت ومواد البناء. وسأعطيك خطاباً لزميل لى هناك حتى يساعدك.

لم أعلق بشيء. واستأذن منى بعد لحظات ليعلب البلياردو مع رفيقه. ظللت فى مكانى بعض الوقت ثم خرجت إلى الطريق. ووقفت أسفل شجرة صنعت فروعها العجفاء شيئاً من الظل. وجعلت ألوِّح للسيارات المارة حتى كل ساعدى. كانت الحرارة شديدة. وأصبحت بعد قليل عاجزاً عن التلويح المتواصل إلى كل سيارة تظهر على مبعدة.

أغلقتُ عينى، وفكرت بأن أقضى فترة الظهيرة فى أحد الأماكن المعشوشبة بالمدينة. وتناهى إلى سمعى صوت فرامل سيارة، ففتحت عينى ببطء. رأيت سيارة جيب عسكرية تقف أمامى مباشرة.

أدركتُ الموقف عندما لمحت شخصاً يقترب من السيارة جرياً. سألت الجندى الذى كان يقودها عما إذا كان ذاهباً إلى الموقع، فأومأ إلى أن أصعد، قفزت إلى السيارة من فتحتها الخلفية، وجلست بجوار قفصين من الدجاج والحمام.

انطلقت السيارة فى طريق اصطبغ باللون الأحمر القانى، ولفح الصهد

وجهى، فأغلقت عينى، وأقمت حافظتى الجلدية أمام وجهى.

توقفت السيارة أمام المسجد، وحانت منى نظرة إلى القفصين، فرأيت الحمام يرتعد، وتجمع الدجاج فى ركن القفص مبتعداً عن عدة دجاجات، استلقت على جوانبها. ورأيت عيونها قد ضاقت مسحوبة لا تكشف إلا عن جانب ضئيل من حدقاتها.

قفزتُ من السيارة وناديت على الجندى لينقذ دجاجه. وولول هذا صائحاً: مش بتاعى، ده بتاع الضابط. حيخرب بيتى لو حصله حاجة.

مشيتُ متثاقلاً حتى الاستراحة. واتجهت إلى غرفتى وأنا لا أرى شيئاً أمامى. أفرغت بقايا الترموس فى كوب رفعته إلى شفتى. ولحظت أن يدى ترتعش.

ذهبتُ إلى سعيد بتذكرة الطائرة بعد الظهر، كان يقرأ رواية سوفييتية بالعربية "لبوريس بوليفوى". رويت له ما حدث مع صيام، فقال: هذا الرجل غريب، لا أدرى ماذا يريد، لقد وعدته بمقالة عنه فى المجلة.... ماذا يريد أكثر من هذا. نقود؟

قلت: لا أظن، لعله يستمتع فقط بممارسة سلطة المنح.

قال: وماذا ستفعل الآن؟

قلت: سأبحث عن أحد الصنادل التى حدثنى عنها، وأسافر عليها.

تطلع إلى ذقنى التى حلقتها بعناية منذ قليل: أنت ذاهب الآن إلى تانيا .... وسأقضى المساء كله بمفردى.

أشرت إلى بوليفوى، وقلت: يمكنك أن تواصل القراءة.

ضحك وقال: هل تعرف ماذا حدث للجندى العائد من الجبهة فى هذه القصة؟

قلت: لم أقرأها.

قال: تأويه امرأة غريبة فى منزلها. ماذا تظنهما فعلا؟

قلت: هذا يتوقف على سنها.

قال: تصور أنهما قضيا الليلة يقرءان تاريخ الحزب.

قلت: سأمضى الآن .... وفى الصباح سأعد لك حقيبتك.

قال: لولا قعدتى هذه ما كانت أفلتت منى هذه المرأة، أنا دائماً سيئ الحظ.

قلت: بالعكس. أنت محظوظ للغاية. بوسعك الآن أن تكتب سلسلة مقالات بعنوان بين الحياة والموت فى السد. ولن يجرؤ أحد على اتهامك بالكذب.

قال: أراهن أن صاحبتك تانيا مصابة بالسل. ألم تر كيف هى نحيفة.

قلت وأنا أتجه إلى الباب: لا بأس . سأروى لك فى الصباح كل ما سيجرى الليلة.

❋ ❋ ❋ ❋

عثرتُ على منزل فاليرى بسهولة. وفتح لى الباب مرحبا، فدلفت إلى صالة توسطتها المائدة المعدنية المعهودة، تحيط بها عدة مقاعد. جلست فى مواجهة خارطة كبيرة للعالم، وأوضحت له سبب حضورى بمفردى. كانت هناك علامات باللون الأحمر أضيفت إلى الخارطة حول بعض المدن فى كل من الهند وغانا وكوبا وتنزانيا والعراق، وقال فاليرى إن له أصدقاء من أيام التلمذة فى هذه الأماكن.

تطلعت إلى الحائط الآخر، فرأيت شيئاً أشبه بجريدة حائطية لصقت بها صور فتيات شبه عاريات منتزعة من المجلات الأوروبية. سألته باسماً: وهذه؟

احمر وجهه وقال: ليست لى. إنها تخص زميلى فى المسكن.

طُرق الباب، فقام فاليرى وفتحه. ظهرت تانيا فى بلوزة بلون عينيها، وتبادلنا التحية، ثم جلست إلى جوار فاليرى، واشتبكت معه فى حديث سريع بالروسية. ولحظت أن وجهها يبدو منتعشاً مجرداً من آثار الإرهاق المعهودة.

تشاغلتُ بدراسة الخارطة، وتوزيع القارات والمحيطات، بينما أذنى على نبرات صوتهما. وتحولت إلى تانيا فجأة، قائلة بالإنجليزية: آسفة، لقد كنا أمس فى حفل أقمناه لبعض القادمين الجدد، وكان فاليرى يروى لى ما حدث بعد انصرافى.

ومالت إلى الأمام بلهفة: قبل الحفلة رأيت فيلم جسر واترلو، لا يمكنك أن تتصور كم بكيت.

تطلعت إليها مدهوشاً: بكيت؟

قالت بلهجة جادة: أجل .... أنا أبكى أيضاً عندما أتفرج على الأفلام المصرية، ولهذا أحبها.

انطلقتُ أضحك، وهى تتأملنى فى انزعاج، بدأ يتحول إلى غضب، مددت

يدى ووضعتها على يدها قائلا: لا تغضى. لم أقصد الإساءة إليك.

انحسر غضبها، وقالت باسمة: هناك طبعاً شئ من السذاجة فى هذا البكاء، لكن هذا هو ما يحدث، ربما لأنى إنسانة غير سعيدة.

بدا على فاليرى أنه غير راض عن اتجاه الحديث. لم أعبأ به بل سألتها: لماذا؟

هزت كتفيها وقالت: لا أعرف، ربما لأنى قلقة، أو أنى لم أكتشف نفسى بعد، وربما كنت متقلبة المزاج.

قلت: كثيرون كذلك.

قالت: لكنى أحسد هؤلاء الذين يبدون راضين عن أنفسهم وعن كل شئ حولهم.

لزمنا الصمت لحظة ثم سألتها عن أبويها.

قالت: أمى ماتت أثناء الحرب، قبل نهايتها بشهور، قتلها جندى ألمانى أثناء انسحاب الألمان. تصور؟ كان مختبئا بين بعض الأشجار، وخرجت هى تجمع بعضاً من نبات عش الغراب، وربما خشى أن تراه، فتصرخ، أو ربما ظنها جندياً، المهم أنه صرعها.

-وأبوك؟

قال لها فاليرى شيئاً بلهجة حادة، فهزت رأسها فى عناد دون أن تنظر إليه، وقالت: أبى لم أره مطلقا، فقد اعتقلوه قبل أن أولد بشهر، وظل فى المعتقل حتى مات.

تأملتها حائراً ثم سألت: من هم الذين اعتقلوه؟

أجابت: رجال ستالين، من غيرهم؟

عدت أسأل: وماذا فعل؟

-لا شئ، هل تظن أنه كان من الضرورى أن تفعل شيئا لتعتقل؟

-ربما كان ضد الاشتراكية.

-لم يكن هناك من هو أكثر منه إخلاصاً وإيماناً بالحزب، وستالين نفسه.

-إذن كيف؟....

هزت كتفها: هذه قصة أخرى.

هب فاليرى واقفاً فى عنف، وقال إنه سينزل، ليشترى شيئاً.

قلت عندما غادر المسكن: يبدو أن حديثنا لا يعجبه.

قالت : إنه يشكو من إفراط فى إحساسه الوطنى. وهو يعتقد أن هذه الأشياء يجب ألا تقال للأجانب.

– ألا تخشين أن يسبب لك بعض المتاعب؟

قالت: لا أظن. فنحن أصدقاء.

تناولت الترانزيستور، وجعلت تعبث به قائلة إنها تود أن تسمع إحدى أغانى البيتلز. وسألتها عن أحب أغنية لديها، ففكرت لحظة، ثم قالت:

– أغنية فرنسية اسمها: لا تقل لى سأحبك غدا، قبلنى الآن.

نهضت واقفة وأشعلت سيجارة ثم جلست من جديد، وساد بيننا الصمت حتى عاد فاليرى بزجاجتين من البيرة المثلجة، وضعهما أمامنا، ثم أحضر من الداخل ثلاثة أكواب وطبقاً من السلاطة الخضراء، وآخر من البطاطس المسلوقة.

دار الحديث ونحن نشرب البيرة عن "يوفتوشنكو"، وشعره. وقال فاليرى إنه يحبه، لموسيقى شعره وليس لمضمونه. سألته عن السبب، فلم يجب. وقالت تانيا: لقد كان يوفتوشنكو شيئاً فيما مضى، أما الآن، فقد أصبح يفضل الموضوعات السهلة الآمنة.

بدأ فاليرى يتحدث عن الوضع السياسى فى مصر، وكيف أننا قطعنا خطوات جبارة وبدأنا نبنى الاشتراكية. اعترضته بيدى قائلا أنى لا أريد الحديث فى السياسة.

تطلعت تانيا إلىّ مبهوتة، وسألت: لماذا؟

قلت: لقد مللت ترداد نفس الأشياء. دعونا نتحدث فى شئ آخر. ليحدثنا فاليرى عن فتاته.

احمر وجهه، وصفقت تانيا بحماسة قائلة: أجل أحك لنا.

قال: ليست لدى واحدة محددة.

قلت: لا أتصور أنك لا تحب.

قال: أنا أحب عملى، وليس عندى الوقت لشئ آخر.

خاطبته تانيا: ولكنك ستجد الوقت بعد عام أو عامين، لتتزوج كى تهرب

من ضريبة العزاب وتحصل على مسكن.

انهمك فاليرى فى إخلاء المائدة، ثم استبدل غطاءها بأخر من الشمع المنقوش بزهور كبيرة ملونة، وحمل الغطاء الأول إلى الداخل.

مالت تانيا برأسها فوق المائدة وأسندت خدها إلى الغطاء وهى تتطلع إلى باسمة. تأملتُ شعرها الذى انتشر فوق الغطاء الملون محيطاً بوجهها، وانتقلت عيناى إلى شفتيها المنفرجتين، وعينيها اللتين صارتا شديدتى اللمعان.

تذكرتُ أن الغد هو الجمعة، ففكرت أن أعرض عليها أن نتقابل، لكن فاليرى عاد فى هذه اللحظة، واستقر إلى يمينى مشعلاً سيجارة.

هبت تانيا فجاءة، ووقفت قائلة إنها ستعد لنا شاياً، واتجهت إلى المطابخ، فقمت خلفها قائلاً لفاليرى أنى سأساعدها.

كان المطبخ الصغير فى حالة فوضى تامة، ووقفت فى المدخل أرقبها وهى تشعل موقد الغاز، ولمحتنى هى فقالت غاضبة: أرجوك أن تعود إلى الصالة، فلست أحب رؤية الرجال فى المطبخ.

انضممت إلى فاليرى، وجلسنا فى صمت، نصغى إلى موّسيقى راقصة من الترانزيستور، وعادت تانيا بالشاى بعد لحظات، ثم أحضرت الفناجين وأناء السكر وهى تهتز على نغمات الموسيقى. توليت أنا وضع السكر فى الفناجين، وصب الشاى. قلبت السكر بينما تانيا ترقص فى منتصف الصالة، وقد رفعت وجهها نحو المصباح وأغلقت عينيها فى نشوة.

كفت عن الرقص واقتربت منى مادة يدها لتأخذ كوبها، فقلت لها: انتظرى حتى يذوب السكر.

قالت وهى تحرك قدميها مع الموسيقى: لا أستطيع الانتظار.

شربنا الشاى ونحن نصغى للموسيقى، وساد بيننا الصمت بعض الوقت، وبدت تانيا فجأة ساهمة مقطبة، وقد فقدت كل حيويتها، وظهرت الغضون من جديد حول شفتيها.

قررتُ الانصراف، فلم يعترض أحد، وقالت تانيا إنها ستنصرف بدورها.

غادر ثلاثتنا المسكن، وانتظرنا أنا وتانيا على الدرج حتى أغلق فاليرى بابه بالمفتاح. لحظتُ أنه نسى النور مضاء بالداخل. قلت له، فقال وهو يهبط الدرج خلفنا: أنا أترك النور دائماً مضاءً؛ لأنى أكره دخول المسكن فى الظلام.

قلت وأنا أخطو إلى الطريق أنى أفعل مثله.

رافقنا تانيا إلى منزلها، وعندما مررنا بالمنزل الذى يسكن به ياكونوف رأيناه واقفاً فى ظلمة المدخل، وابتسم لنا ابتسامته الصافية وهو يضحك ضحكته الصغيرة الخجولة، وكان يبدو ثملاً.

تبادل فاليرى معه بضع كلمات، وانتهزت الفرصة لأسأل تانيا فى صوت خافت، إذا كان يمكن أن نلتقى فى الغد.

أجابت على الفور: لا أعرف، لا أعتقد لأنى سأكون متعبة.

قلت: لكننا اتفقنا على القيام بجولة فى المدينة.

قالت: لا أظن أن هذا ممكن.

ثم أضافت: سأكون فى النادى بعد غد، تعال إذا كان لديك وقت.

أنهى فاليرى حديثة مع ياكونوف، ولوحنا له بأيدينا، ثم واصلنا السير حتى منزل تانيا. انتظرنا حتى صعدت، ثم عدنا أدرجنا، وأصر فاليرى على مرافقتى إلى محطة السيارات. وبقى إلى جوارى حتى جاءت سيارة المهندسين وصعدت إليها.

****



القسم الثانى

تكاثف الغبار وأشرفت قافلة القلابات على هوة المحجر الهائلة التى تألف جدارها من ثلاثة طوابق برز من كل منها شريط ضيق من الأرض استقرت فوقه حفارة كبيرة نقشت الحروف الروسية التى تشكل اسم الاتحاد السوفيتي على صندوقها الذى كان يدور فوق محوره فى حركة سريعة وجرسه يدق محذراً وتدور معه الذراع الطويلة التى تنتهى بالكباشة ذات الأنياب الحديدية البارزة وتزمجر الآلة وتصر تروسها ثم يتوقف الصندوق عن الدوران وتمتد الذراع إلى الجبل وقد ازدادت طولاً على طول حتى تصطدم بسفحه الجرانيتى أكثر الصخور شيوعاً وأساس القارات جميعاً الذى تكون من مواد مصهورة صعدت من أعماق الأرض وتجمدت عندما تعرضت للجو فتبلورت معادنها وتلاصقت دون أن تترك مكاناً لفراغات الهواء فأصبح وسيلة الضغط الأولى فى بناء السد بعد أن استخدم فى بناء خزان أسوان ونحت منه مختار تمثال نهضة مصر وقبل ذلك نحت منه الفراعنة أبا الهول ومن ترسب فتاته تكون الحجر الرملى الذى بنى منه رمسيس الثانى سلسلة معابده على شاطئ النيل بعضها شيد تشييداً والبعض الآخر نحت فى الصخر الحى وتصدرته تماثيل فرعون فى حجم خرافى يتطلع باسماً إلى حيث تشرق الشمس لأنه كان يخشى غروبها فى العالم السفلى وتضرع لأمون استجب لابتهالاتى يا أبى وسيدى اجعل الخصوبة تتفتح فى كل أعضائى ولعل فى مقدورك أن تمنحنى الملك لمائتى عام وقرناً بعد قرن هبت الرياح محملة بالرمال وعندما اصطدمت بالجبل حطت حملها الذى تراكم فوق واجهة المعبد فحماه من عبث اللصوص وأنقذه من أن يتحول إلى كنيسة على يد الأقباط ومسجد على يد المسلمين وصان لنا التماثيل سليمة إلا من أثار التعرية المتواصلة فتغير درجات الحرارة بين الليل والنهار يحدث تمدداً وانكماشاً فى الصخر يؤدى إلى تفككه وتفتته وتكتسح الرياح والأمطار الفتات وتسقطها عند أقدام المرتفع التالى وما تلبث إفرازات الحيوانات وبقايا النباتات أن تنضم إليها وتتحول هذه الرواسب المفككة الرخوة إلى صخور متماسة بتوالى تراكمها وتستوى طبقات تظهر فيها أثار نقط الأمطار وأرجل الحيوانات وكل ما وقع من أحداث ثم تجف فتنكمش ويتضح ما بها من مواطن ضعف تتكسر عندها إلى زلط ورمال متنوعة الأحجام والأشكال تتراوح بين الخشن والناعم تنطلق بها شاحنات الماز والبيجماز والكراز إلى جسم السد فتدور كل منها حول نفسها وتتراجع بمؤخرتها ثم يرتفع صندوقها تدريجيا وتتساقط

حمولته في ضجة وغبار حتى يصبح الصندوق فى وضع عمودى على السيارة ويخلو تماماً وعندئذ يعود إلى وضعه الأفقى فى بطء بينما تمضى العربة خفيفة سريعة لتأخذ مكانها من جديد أسفل الكباشات التى تخطئ الهدف أحياناً فترتفع فى الهواء فارغة ولكنها توالى العمل حتى تنتزع القشرة الصخرية عن سفح الجبل وتتكشف للعيان طبقات الطمى ذات الألوان الحمراء والصفراء والزرقاء تبعاً للأكاسيد المكونة لذراتها الرخوة التى تنهار تحت أبسط ضربة وتتخذ هيئة حبيبات متناهية في الصغر بينها مسافات دقيقة للغاية إذا ما أضيف إليها قليل من المياه تكونت منه بتأثير الجذب الجزيئى بينهما أغلفة ثابتة تحول دون مرور الماء خلال الحبيبات وبذلك تتحول المادة الهشة إلى عنصر قوة وتماسك يؤلف ذلك الحائط المنيع في قلب السد المسمى بالنواة الصماء التى تمتد منها فرشة أفقية فى جسم السد الأمامى المطل على البحيرة وأخرى رأسية تحت سطح الماء وداخل الطبقات الرسوبية المكونة لقاع النهر حتى الأساس الجرانيتى الصلب مؤلفة الحاجز الرئيسى فى وجه جريان الماء المستمر الذى يجرف أمامه كل شئ من صخور تمثل الشيء الحقيقى غير المجرد الذى لا يناقش من أى نقطة إلى الرمال التى تحمل آثار الأحداث هى وطبقات الطمى تصعد فيها الكباشات مخلفة فى حائط الجبل جراحاً طولية تشبه آثار أصابع هائلة لسجين عملاق حاول فى لحظات يأسه أن يتسلق الحائط فحفرت فيه أظافره مسارات لها كما فعلت الأظافر القذرة للحارس العجوز فى ظهورنا وقد أرسلوه يداوى جراحنا لنتلقى المزيد أما شهدى فلم يكن بحاجة إلى مداواة وعبثاً حقنوه بالكورامين وقد أشفقوا أن يفلت بهذه السهولة لكن الحياة كانت قد فارقت الجسد العملاق وأغمضت عيناه فى سبات الراحة العميق كما رقد المسيح فى حجر أمه وهو ما لم يفعله نحات من قبل ميكل انجلو الذى أدرك منذ البداية أن الأمر سيكلفه حياته كلها لكن ما من إثارة محملة بخطر الموت تفوق إنساناً وحيداً يسعى ليخلق شيئاً لم يوجد من قبل فتفتت الصخر تحت ضرباته كما يتفتت الكعك بينما التحم إيقاع الحركة الداخلية لتنفسه بالحركة الصاعدة الهابطة للمطرقة فى يده وهو يزلق الأزميل فى الثلم الذى صنعه فى الصخر وأرسل وقع الضربات موجات من القوة صعدت فى ذراعيه إلى كتفيه وصدره وهبطت إلى حجابه الحاجز وساقيه وقدميه وتعلم أن الصخر هو السيد و إذا ما ضرب في المكان الملائم كشف عن نفسه للفنان الذى يعرف بالأوضاع الدقيقة لتمثال الرجل

بتركيبات لا تقوى النيران على حرقها ولا تستطيع المياه إذابتها وربما ذابت آلام السياط فى الأصابع التى تحسست الصخر لتشكل صورة رمسيس إلهاً بين الآلهة المنتظرة فى المعابد حتى يحقنها الخبراء لتقاوم الزمن دهراً آخر هى وصور التعذيب والقتل وأكاذيب رمسيس ومزاعمه وصخور السد التى يحقنونها بطبقة رفيعة من مزيج أربع مواد اثنتين منها من روسيا تخلطان برمال وطمى مصر الممتدة من أدناها إلى أقصاها مجموعة من القرى المظلمة ترتعش فى جنباتها ذؤابات مصابيح الزيت والمدن المتشابهة بسجونها التى تقع عليها أشعة الشمس فى نفس الاتجاه وتتسلل إلى زنازينها فى نفس الموعد دون أن تفلح فى تبديد البرد الجاثم وعبثاً حاولت أن أبعث الدفء إلى شفتيها وقالت إنها خائفة فأطفأنا النور ووقفنا فى الظلام ننصت إلى أصوات الشارع وميزت ضحكة ياكونوف وقالت إنه عائد ولا شك من اجتماع متأخر بحثت فيه مشاكل الحقن فى النواة الذى كان من عشر سنوات يعتبر أعجوبة تدانى ذلك العمل من أعمال الخلق الذى لا بد فيه من طعنة اختراق النبض المتوتر الحفر إلى أعلى نحو قمة جبارة من الامتلاك الكامل فعل الحب نفسه الجماع بين النماذج الذهنية والأشكال الكامنة فى الصخر وقالت نييت فلم أعبأ وواصلت نزع الرداء فقالت يجب ألا تفعل لكنها حركت فخذيها تساعدنى على انتزاع القطعة الأخيرة وقالت شيئا بالروسية ثم بالإنجليزية لكنى لم أع فقد كان بصرى معلقاً بفتحة الممر الضيق الذى يمتد بطول جسم السد ويبدو من الخارج كقطار طويل موشك على التحول فى إحدى المنجنيات وقد بدت فواصل عرباته التى كان بعضها لا يتعدى هياكل حديدية تغطيها صناديق خشبية يجرى ملؤها بالخرسانة بينما تجلب قلابات زيل الرشيقة الطمى تكومه على جانبيه ويتولى الصعايدة رشه بخراطيم المياه ثم تقترب منه البلدوزرات وقد ارتفعت دروعها الأمامية كأنها جيش من المحاربين يستعد للقتال وتتقدم فوق التراب ثم تهبط الدروع فى بطء حتى تلامس الأرض وتبدأ فى دفع الطمى وتمهيده حتى تدكه الهراسات وعما قريب ترتفع أكوام الرمال والطمى حتى تغطى إلى الأبد ممرات التفتيش الثلاثة التى ستصبح الطريق الوحيد إلى قلب السد حيث تبقى حية أجهزة تمتص ما قد يتسرب إليه من مياه وتقيس ما قد يتعرض له من تطورات أما الآن فليس بها غير آلة التخريم الدقاقة التى ترتعش فى ذبذبة متواصلة وعمودها يتحرك صعودا وهبوطاً متقدماً إلى أسفل داخل ماسورة عمودية من الصلب وصاح

العامل محذراً فقد وقعت قطعة حجر على العمود ولا بد من الاستعانة بقليل من الديناميت لتفتيتها وهي مشاكل مألوفة تقابل التخريم في الأرض غير المتجانسة التي تنوعت مكونات المعادن في بلوراتها يتحطم بعضها إذا ما ضرب الأزميل في الصخر ضربة عشواء ولم أفهم حتى كررت أنها تتألم دائما منذ كانت المرة الأولى قبل سنوات ولا بد من الرفق فالمادة الغنية الدافئة تفقد توهجها أمام التعنيف والهرولة وتلتف الصخرة بنقاب حجري صلب يمكن تحطيمه بالعنف لكن لا يمكن إرغامها على أن تعطى فهي تستسلم للحنان وتزداد إشعاعاً ولمعاناً وتلمست أصابعي سطوح الجسد العاري وثناياه حتى حركت رأسها في بطء وشعرت بشفتيها تلينان وأخذ جسدها يتلوى تحت أصابعي وانفرجت ساقاها وهناك كانت مبتلة أيضاً وتوقفت الآلة عن الحركة وسرت فيها رعشة خاطفة تكررت عدة مرات وأخرجوا العمود وهو ما زال يرتجف فاستبدلوه بآخر أكثر سمكاً ينتهي بما يشبه الكرة وعاد العمود يهبط الحفرة بينما صعدت الكباشة في الصخور التي فتَّتها أصابع الديناميت بعد قرون من فعل الرياح التي تكتسح ما يقابلها من رمال وحصى وتضرب به صخور الجبال في عنف فتأكل في جنباتها وتجعل فيها بروزات ونتوءات تاركة الحصى الملقى على الأرض في شكل أهرامات مثلثة صنعه اتجاه هبوبها وربما كان هذا هو السبب في أن الفراعنة عندما أرادوا أن يصونوا قبورهم أبد الدهر بنوها في شكل الأهرامات الذي اتخذته رؤوس الروافع الثلاثة العملاقة فوق مبنى الأنفاق المرتفع أحد عشر طابقاً عاماً بعد عام سيرتفع السد كله ليصبح في مستوى هذه القمة أما الآن فهو بعد هياكل حديدية وأخشاب و أسمنت ودرجات حديدية . رفيعة وأسياخ مشرعة وجدران عالية مائلة ومواسير حمراء وأخرى سوداء سميكة تمتد بعرض السد وثالثة رفيعة تنتصب عمودية عليه هي أعمدة آلات التخريم التي يخرجونها بسرعة من الحفرة بينما يسيل الماء ممزوجاً بالطمي من الكرة المثبتة في أطرافها وعندما يتم إفراغ الكرة تماماً من محتوياتها تعاد إلى الحفرة من جديد وتتكرر العملية والعمود يتقدم نحو الأعماق حيث تغلي الحمم وتتحرك المادة المصهورة حركة بطيئة بحثاً عن موضع لين تنطلق منه ضاغطة على طبقات الأرض الخارجية فتتثنى جبالاً ووهاداً وطرقات متعرجة منحدرة نقلت خطواتي فوقها في اعياء بين قطع الصخور التي تدحرجت من حول الكباشة دون أن تستقر فيها حتى اصطدمت أسنانها بواحدة كبيرة ودار صراع عنيف بين الحديد

والجرانيت كانت الغلبة فيه للآلة واستقرت قطعة الصخر فى قاع الكباشة التى دار بها صندوق الحفارة فى حركة سريعة إلى اليسار مقترباً من مؤخرة قلابة وهو يدق جرساً حاداً بإلحاح جعلنا نرتجف ونلتصق فى الظلام منصتين وقد سرت البرودة فى أطرافها حتى توقف رنين الجرس وسمعنا صوت خطوات تهبط السلم الذى قادتني درجاته الحديدية الضيقة إلى حيث جلس الصعيدى المعمم القرفصاء وسط الخراطيم والكابلات واللمبات والأدوات الكهربائية إلى جوار زير امتلأ بالماء وبرزت منه زجاجات الكازوزة وأمامه موقد جاز يحمل براد الشاى وحوله عشرات الصعايدة الذين يحملون الأتربة في المقاطف ويرشون الطمي بالماء يتناولون منه أكواب السائل الأسود ويتطلعون إليه في بلادة بينما يجذب قلمه من ثنايا عمته ويسجل لكل منهم حسابه في كراسة بالية قذرة فما زالت الأرقام والحروف لديهم ألغازا غامضة والفرصة قد فاتتهم إلى الأبد وإلا لكانوا عرفوا طريقهم إلى الفصول التى خرجت آلاف العمال المهرة والملاحظين اللذين يديرون اليوم حفارات الديزل الكهربائية والبلدوزرات والهراسات والرافعات الهوائية والرافعات الكهربائية وأجهزة الحقن يخرجون قضيب التخريم عندما يصل إلى العمق المطلوب ويستبدلونه بماسورة مزركشة بثقوب على أبعاد متساوية تغلفها أغطية من المطاط يدفعون إلى داخلها بأنبوب الحقن الذى يحمل ثقوباً مماثلة ويديرونه قليلاً حتى يسد بعض الثقوب فى جدار الماسورة الأولى ويصبح مواجهاً لثقوب أخرى بينما يستقبل خليط الحقن تدفعه إليه المضخة الماصة الكابسة فينتفخ المطاط الذى يغلف ثقوبه كما ينتفخ الجلد الذى يغلف طبقة الشحم المتراكم فوق جسد مقاول الأنفار وقد جلس إلى مقود سيارته وبجواره زوجته السمينة يلتف الذهب حلقات حول ساعديها وهؤلاء هم الذين سيحكموننا وقد سبقتها سيارة رحلات قادمة من كامبريدج أحاط بها ثلاثة من السياح الإنجليز رفعوا كاميراتهم إلى عيونهم وقبل ذلك جاءوا غزاة ومحتلين وصعدت جحافلهم إلى أعالى النيل تنشر الموت والفناء وامتزج ماء النهر بدماء الألوف الذين سقطوا برصاصهم عبر المستنقعات والغابات والسهوب والطرقات المتعرجة الضيقة التى تتتابع صعوداً وهبوطاً تزحف فوقها الشاحنات والقلابات المحملة بالصخور والزلط و الرمال والطمي والأخرى الفارغة تنطلق سريعة وتتقدم من خراطيم المياه بمؤخرتها بعد أن ترفعها إلى أعلى ليتسنى للعامل الواقف على درج بجوار الخرطوم أن يغسلها جيداً لتمضى

بعد ذلك إلى موقعها تحت الخلاط أكثر نشاطاً فوق طرقات لم تكن هنا بالأمس وستردم فى الغد صانعة طرقات جديدة مضيت فوقها حائراً دائخاً أبحث عن مداخل الأنفاق الستة ماراً بروسي يرتدى قميصاً ملوناً وقبعة سميكة من الفلين ويتدلى من كتفه ترموس كبير امتلاء بالشاى أو الماء المثلج جعلنى منظره أشعر بعطش لم يروه منظر المياه التى انبثقت تحت أقدامى فجأة فى مجرى ضيق بين حائطين من الصخور الحادة غير المستوية التى استسلمت فى مكان وقاومت فى مكان آخر صنعته القناة التى أجبر النهر ذات الصباح أن يتحول إليها فعرف لحظة قصيرة مرعبة من الظلمة المفاجئة بعد رحلة شمس طويلة مرحة عندما ارتطمت مياهه بجدار النفق واصطدمت بقواعد التوربينات ثم اجتازت البوابات ليجرى مكسوراً هادئاً مستكيناً تحت عدد لا حصر له من الجسور الحديدية والخشبية تتسرب قوته خلال آلاف القنوات التى يلعب فيها الصبية عرايا وتستقر فى قيعانها قواقع البلهارسيا مخترقاً المدن بلا صوت حتى يدفن نفسه فى البحر الواسع وهو الذى ولد فى ضجة وهدير أتانى من على بعد عدة أقدام حيث وقف عدد من المهندسين الروس والعمال المصريين يطلون على مياه الفيضان العالية السمراء تنحدر إلى القناة الضيقة من النهر الذى ارتفع بمياهه إلى حد البيوت يضرب بها العتبات برفق مجبراً خمسين ألفاً من سكانها على الرحيل حاملين أكياساً من تراب الوطن وحجارته تاركين خلفهم فوهات سوداء تزحف إليها المياه حتى تغطيها تماماً وتختفى فى الأرض التى ظلت قروناً منجماً للذهب والرجال ينتشرون فى أرجاء المدن خدماً وبوابين بينما تنتظرهم نساؤهم فى رعب أعواماً تتلو أعواماً فى قرى لا تضم سوى العجائز ستتحول إلى بحيرة هائلة تقام عليها مصايد الأسماك ومصانع التعليب وتنطلق منها الشاحنات السريعة فوق طرق ممهدة تشرف عليها واجهة مبنى الأنفاق بفوهتها السوداء التى تشبه أطلال معبد فرعونى ارتقيت إليها سلماً حديدياً رفيعاً حتى ضرب الهواء وصوت تشى تشى قوى كالهواء المضغوط ساقى من فتحة فى ماسورة وتساقطت قطرات من المياه فوق رأسى إلى أن صرت فى مدخل النفق أواجه رنيناً هائلاً مفاجئاً كاصطفاق ألواح هائلة من الحديد وتشبثت بسلم حديدى ضيق التصق بجدار النفق المائل إلى أسفل وهبطت فوق درجاته معطياً ظهرى للجدار الذى انحدرت عليه بجوارى قطع من الزلط والأسمنت فى قليل من المياه بللت ملابسي وانتشر الظلام رويداً رويداً حتى اختفى الضوء

الآتي من خلفي وامتد لسان منه أمامي تلاشى عندما انتهى السلم والجدار المائل وامتد النفق في مستوى أفقي إلى ما لا نهاية كتلة من الظلام أتتنى عبرها أناتها متتابعة وقد التف ساقاها حول وسطى تجذبانني في إصرار وتناثرت حولى جنيهات ذهبية متطايرة من الدائرة الحديدية في السقف التي زحف عليها العمال كالعناكب في المسافة الضيقة بينها وبين الجدار يحملون شعلات الأكسجين الساطع تطلق عند اللحام عاصفة طاردتني وأنا أتقدم ببطء شديد إلى أعماق الأسطوانة الهائلة حتى تبينت فجأة المصابيح الصغيرة المثبتة فوق الجدران على مسافات متباعدة فلا تكاد أشعتها الواهنة تبلغ قلب الظلام الذى بزغ منه بلدوزر هادر يرتج فوق جنزيره ودرعه الأمامي مشتبك بالصخور يدفعها ويكومها إلى جانب الجدار أمام حفارة وقفت على سبعدة وقد اختفى جسدها في ظلام النفق ولم تظهر منها سوى ذراعها المنتهية بالكباشة حامت فوق كوم الصخور ثم انقضت عليه كالصاعقة فارتج الصخر وارتجت الحفارة بكاملها ونشبت معركة مدوية حيناً صامتة حيناً آخر كان لها نهاية واحدة محتومة فقد ارتفعت الكباشة بحمل الصخور ودارت بسرعة ناحية اليمين ثم توقفت وكشرت عن ابتسامة كبيرة انفصل فيها فكها الأسفل وتساقطت قطع الصخور والرمال في قمع كبير مثبت في كسارة فتّتها إلى زلط صغير انزلق على سير من المطاط إلى ماسورة ستقذف به إلى الخارج بينما الكباشة ما زالت تطل على القمع من أعلى وقد تدلى فكها متأرجحاً في حركة بطيئة مسترخية مرة إلى الأمام ومرة إلى الوراء تسيل منه بقايا أتربة ثم عاد الفك إلى موضعه واستطال عنق الكباشة وهي تدور عائدة لتنقض على كوم الصخور لكنها ارتطمت بأرض فارغة إذ أخطأ السائق الحساب وجعلت تتطوح فوق الأرض يمنة ويسرة من أثر الصدمة ثم ارتفعت عنها قليلاً لتقترب منها مرة أخرى خافضة الرأس وأخذت تناطحها وتزيح الأحجار بصدغها ثم تحمل بعضها ولكنها لا تمتلئ فتعاود كحت الأرض وتكويم الصخور وكبشها وتصبب العرق على وجهي وغطى جسدينا وامتلأت أذناى بالهدير المكتوم مختلطاً بصرير الكباشة بجرس الحفارة بأنفاسها اللاهثة والتصقت بالجدار مفسحاً المجال لطابور من العمال يحملون أخشاباً على أكتافهم تتبعهم شاحنة تحمل أنبوبة طويلة ذات درجات حديدية رفيعة مثبته على جدارها تؤدى إلى منصة في قمتها وتوقفت الشاحنة وارتفع ظهرها فرفع السلم التلسكوب رأسه حتى ارتطم بسقف النفق وتأوهت فجأة وقد

تصلب جسدها فتقدمت بحذر بين صناديق مغلقة عليها جمجمة التحذير من الاقتراب وداخلها المحولات التى تغذى الحفارات والكسارات والمصابيح العاملة داخل النفق تمتد منها على الجدران إلى أعمق أعماقه الأسلاك التى كانت توصل عندما بدأ حفر الأنفاق بأصابع الديناميت وتوضع فى الخروم التى صنعتها آلات التخريم ثم تنسف ويرفع حطام الصخور الناتج بواسطة الحفارات إلى القلابات إلى الخارج ثم تزال الأحجار المخلخلة ويبطن موقع الحفر بالخرسانة المسلحة التى تنهمر مرة واحدة من قمع الخلاط الضخم فوق ظهر القلابة فترجها رجاً وتتشبث إطاراتها القوية بالأرض فى يأس ويتراقص السائق على مقعده ثم تستكين وتسترخى أسفل القمع الذى تتساقط منه بضع ذرات أخيرة تتحرك القلابة على أثرها مبتعدة فى جهد لتنساب واحدة أخرى وينطلق طابور القلابات يئن ويلهث بين عنفوان الحركة الأولى وحشرجة الحركة الرابعة المسماة بالعجوز ثم يصب فى الفوهة السوداء الهائلة لكن أطنان الخرسانة لم تحل دون انهيار النفق وكان أعتى الرجال يبكون أمام الكارثة فقد عجزت كل الدراسات عن معرف طبيعة الجبل لأن مصر كانت مسرحاً لتفاعلات بركانية عنيفة كونت فى تربتها التواءات وفيالق شديدة لم تكن تتكشف إلا أثناء التخريم عندما تتعرض للجو فقاعات الهواء التى لا ترى من الخارج لهذا علموه منذ الصغر كيف يتنبأ بوجودها عندما يطرق الصخور بمطرقته فتعطى القطع الصلبة صوتاً كرنين الأجراس أما المعيبة فيكون رجعها بارداً وتعين عليه أن يقضى الليل إلى جوارها بعد أن غطاها ليقيها من البرد وفى الفجر انحنى فوقها يتأملها فى ضوئه الذى جعلها شفافة وكان هذا هو الموعد الذى ينهار فيه النفق دائماً عندما يلين الصخر بتأثير البرد فيقبر أسفله ورديات كاملة من الرجال لا يصعد منهم أحد وكان الكل مستعداً لأن يضحى بحياته فى بساطة فلم يكن هناك وقت للتفكير ويوم تحويل مجرى النيل كانوا شعلة من الحماسة وشعروا بزهوة الفخر لأن مصر قالت لا لدول لم تتعود أن تسمعها أما نحن فكنا نلوك فى الظلام حكايات معادة وضوء ضعيف يتسلل من القضبان التى تقف حاجزاً بيننا وبين الفعل وعنده كان العمل فى الاسكتشات ومع النماذج هو التفكير أما الفعل فكان النحت مباشرة بالضربة الحية بجسده كله خلف المطرقة والأزميل يتقدم مخترقاً طيات المادة الطيعة حتى يبلغ الذروة ويتدفق سيل قوته ورغبته وعاطفته فى الشكل الذى يريده وتستجيب قطعة

الصخر فتعطيه من أتونها الداخلي وسيولتها حتى يلتحم النحات بالصخر ويصبحان شيئاً واحداً بعد أن تبادلا العطاء مثلما يحدث لقضيب الحقن عندما يدور بسرعة حول نفسه ويكاد يشتعل هو والبلف من الحرارة ويندفع الخليط داخله إلى أن تنتفخ به الأغلفة المطاطية التى تغطى ثقوبه ويتزايد ضغطه عليها حتى يخترقها وينتشر فى التربة ملتقياً بالخليط المتدفق من الثقوب الأخرى ملتحماً به فى ستارة صلبة تمتد أسفل النواة الصماء داخل الطبقات الرسوبية المكونة لقاع النهر حتى الأساس الجرانيتى الذى تكون عندما خرجت الحمم من أفواه البراكين وسالت على جوانبها ثم بردت فجأة وتجمدت صخراً لا يستسلم إلا للمهارة والحب الذى جاش فى الصدر عندما انقسم النفق فجأة إلى نفقين يؤدى كل منهما إلى توربينة من توربينات المستقبل وظهر بشير ضوء فى نهايتها وقفزت من فوق إفرازات آدمية وأنا أحبس أنفاسى عن رائحتها وكدت أتعثر فى قطعة ضخمة انتزعتها المياه الهائجة يوم التحويل **14**مايو **1964**من مدخل النفق وحملتها إلى القرب من مخرجه وأصبحت أخيراً فى الضوء والهواء الطلق الحار الشمس اللاسعة إلى جوار شاب روسى يغطى رأسه بخوذة من البلاستيك ويشير بيده إلى عامل مصرى تعلق بسقالة فوق فوهة النفق الفاغرة التى ابتلت جوانبها ورددت طرقات كيما ذات المنازل المتوازية أصوات باعة الخبز واللبن المصريين ينادون بالروسية خليب مالاكو فجاءنا الصوت عبر النافذة المغلقة التى يعلوها صندوق جهاز التكييف وكادت تفقد معالمها بعد أن تلاشى ضوء الغسق وانفردت النجمة الكبيرة بصفحة السماء وفى ضوء القمر ضربنا قطع الزلط الواحدة بالأخرى فتولد عنها ذلك الشرر الملون الرائع وأتت من النافذة المفتوحة التى تصدرتها قلة الماء همهمة بعيدة هادئة هى أصوات الأسرة فى الصالة المضاءة التى يلتمع بلاطها النظيف ويفصلها باب عن دورة المياه كان زجاجه ما زال سليماً لأن الشرخ حدث بعد ذلك وحمل إلينا الهواء صوتاً نائياً عذباً بالروسية وقالت إنها ضواحى موسكو بالليل عندما تتكسر على طرقاتها أوراق الخريف وتتراكم فوقها طبقات الجليد ثم تتنفس الحياة فى البراعم الدقيقة ويصبح الليل كله فجراً وهى المهرب من المدينة ذاتها بشوارعها الفسيحة المتدرجة صعوداً وهبوطاً ومبانيها الضخمة المجردة من الجمال وأنفاقها الهائلة وكتلها البشرية المتدافعة عند أبواب المترو والمسارح والمطاعم والمحلات أسفل الشعارات المكررة والأفيشات الضخمة لأناس يبتسمون فى

سعادة بينما يتطوح السكارى عند مفارق الطرق أو يركعون على الأرض فى عرضها أما النساء فيغرقن تعاستهن في الطعام وكلنا بدأنا بأحلام عريضة وثقة لا حد لها وضاعت بهجة الطفولة والشباب بين قنابل الطائرات وعربات السجون والصور الغامضة عن الجنس الآخر تجمع خفية وتدس فى مكان فى متناول اليد كل واحدة منها وعد بتلك اللذة الغامضة بين الساقين حتى تفجر الينبوع فأصبح للأسى معنى كلمة واحدة كانت كافية لفتح الجرح الذى لا يندمل فإشارة اهتمام قد ترقى إلى مرتبة العاطفة المفتقدة وهناك لذة لا تدانيها لذة فى حفر الجرح الغائر إلى الأعماق حتى يترسب الحزن طبقات من الصخور المفتتة والرمال تكومت تلالا إلى جوار مخرج النفق تحت أقدام درج عمودى ضيق صعدت عليه أربعين درجة حتى بدأت ألهث وكدت أفقد توازنى عندما نظرت إلى أسفل ورأيت الدائرة الخرسانية الكبيرة تحيط بها شبكات من الأسلاك والقضبان الحديدية أشرعت أطرافها المدببة في الهواء لكن رأسه تجاوزتها ارتفاعاً والتفت أصابعه الطويلة حول أسنتها وكان عبثاً أن راح يجادل بالمنطق ويتساءل كيف يمكن أن يتآمر أحد ضد حكومة تبنى السد ففى الأعلى أسند الجنرال قائد الجيوش البرية خده إلى راحته اليمنى مستمتعاً بالموقف لأن كل شئ كان جاهزاً على الأوراق والحكم معداً للتنفيذ وقديماً نصح ميكيافيلى بقتل بروتس وأبنائه وعندما حلت بالنحات لعنة محكمة التفتيش بسبب قديسيه وشهدائه العراة لم يجده دفاعه بأنها الصورة التى خلق بها الرب آدم ألم يقل لورنزو أن قوى التدمير تسير دائماً فى أعقاب الخلق والإبداع وانتقلت من درج خشبى إلى آخر حديدى وهبط بالقرب منى وعاء حديدى ضخم يحمله خطاف رافعة هائلة توقف لحظة متمايلاً بينما تبادل عشرات الناس المجهولين المتفرقين وسط المئات إشارات خفية تحرك الوعاء على أثرها قليلاً ناحية اليمين ثم اتجه إلى اليسار وواصل الهبوط حتى استقر وسط دائرة التوربين ومد أحدهم يده فجذب أحد جوانب الوعاء فانهالت الخرسانة فى المكان الذى ستصنع فيه أرخص كهرباء فى العالم حتى تختفى الآلات اليدوية وتضاء مصر من أدناها إلى أقصاها وتموت وحوش الليل وبلغت قمة الدرجات فقفزت إلى الشرفة الصغيرة المطلة على مخرج القناة فوق بوابات الأنفاق الضخمة التى يجب أن تفتح اليوم لتمر منها مياه الفيضان العالية وإلا اجتاحت المحطة كلها وأساساتها ومضيت بمفاصل مرتعشة متشبثاً بحاجز حديدى ساخن فوق جدار

مرتفع متحاشياً التطلع إلى أسفل حيث استقرت على جانبى الجدار اثنتان من قواعد التوربينات فاغرتى الفيه حتى بلغت نهاية الجدار وصعدت درجاً حديدياً ثم ارتميت فوق شريط من الأرض المتربة تراكمت فوقه أكوام الأسلاك والأخشاب والآلات المختلفة وأشرفت من مأمن على القاع الذى تجمع فيه عدد من الصعايدة يقودهم عامل وضع فوق رأسه غطاء معدنياً أحمر قد يكون روسياً أو مصرياً ويجمعون كل ما تناثر فى قاع حوض التوربين من قطع الحديد والأخشاب والعدد والأجهزة فى وعاء حديدى كبير لم ينتظره خطاف الرافعة حتى يمتلئ فمضى يحمل هو أيضاً مجموعة من القضبان الحديدية حزمت بالحبال وارتفع من القاع حتى أصبح فوق الشرفة وخفض الواقفون هناك رؤوسهم حتى مر الخطاف من فوقهم وصاح أحد المهندسين بجانبى على عمال القاع أن يصعدوا قبل أن تدهمهم المياه فجرى بعضهم يتسلق السلم الحديدى الرفيع الذى حمله إلى جدار جرى فوقه إلى سلم آخر عريض بينما تزاحم الباقون على قاعدة السلم الرفيع وحاول أحدهم أن يصعده من جانب فكاد أن يقع وتدلى منه آخر متأرجحاً فى الهواء وفضل ثالث أن يتسلق الجدار بقدمين كالمخالب وتبقى ثلاثة من الصعايدة فى قاع الحوض يجمعون فى بطء ألواحاً من الأخشاب ثم قاموا بحزمها ووقفوا ينتظرون الخطاف ليحملها وانبطح إلى جوارى مصور روسى ينتظر فى صبر ليصور لحظة اندفاع المياه من النفق إلى الحوض ومنه إلى الخارج حيث ستنطلق دائماً فى وفرة تروى أرضاً جديدة سينتفخ جسدها المتعطش للمياه وتعطى بدل المرة مرتين فى مأمن من نزوات حابى الذى ولد من الشمس عبر سيل من الأمطار فصار قبل قرون إلهاً ابن اله بل أبو الآلهة عندما يعلن الكاهن فى صحن المعبد وسط البخور أنه سيأتى فى موعده بعد أن كاد يفقد نفسه فى العالم الآخر مع بقية الآلهة التى قرر رمسيس أن ينضم إليها فى قدس الأقداس حيث تجرى الشعائر السرية فى الظلام بعيداً عن الشعب فسهر الفنانون على أضواء مصابيح الزيت يعملون بالمطارق والأزاميل وأدوات الصقل والنقش يحفرون بالضربة الحية من أعلى إلى أسفل وعيونهم تحاول أن تتبين مسبقاً الشكل الذى يحتويه الصخر فهذا الفن لا يتيح لهم ترف الخطأ والتصحيح وخاطبهم قائلاً أمامكم الطعام والشراب وكل ما تشتهيه الأنفس لتقولوا إن حبكم لى هو الذى يدفعكم للعمل من أجلى فأضفوا على وجهه المتغضن سمات الشباب الدائم وارتعدوا من الرهبة والإيمان أمام الابتسامة الخفيفة التى

نحتوها بأصابعهم فوق الشفتين الحسيتين ثم غمسوها في دمائهم وكتبوا اسم ستالين على الجدران وهم سائرون إلى حتفهم بأمره وتفطرت أكبادهم عندما سمعوا بموته فتجمعوا من كل حدب وصوب للوداع الأخير وما لبث الرجال الذين أودعهم وراء القضبان بالملايين أن خرجوا للنور بوجوه شاحبة صفراء وشفاه جافة وكانوا يحتشدون من البقاع كافة ليتقربوا إلى المعبود وعلى الباب ينتظر الكهنة في مآزرهم الطويلة وصدورهم العارية فهم وحدهم الذين يتمتعون بحق دخول قدس الأقداس حيث استقرت حتحور الفاتنة في تاج من قرص الشمس يحيط به قرنا بقرة وقالت إنها المرحلة الأولى هي التي خلقت تلك الشبكة من التجاعيد الغائرة في وجه الروسي القصير أبيض الشعر الذى بنى العديد من السدود وتعرض للعديد من الأخطار وكم ترك من ذاته في كل منعطف كم من المساومات الصغيرة والكبيرة اضطر لها لينقذ جلده أما هو فلم يبغ سوى أن يكون نحاتاً لكن الظروف أجبرته على أن يكون رساماً ومهندساً ومعمارياً وشاعراً وقضى نصف حياته العملية بعيداً عن الصخر الذى عشقه وهو ما كان يدفعه لليأس الذى عرفه أول مرة في الصغر عندما حطموا له أنفه وجعله هذا يعشق الجمال والصحة في الآخرين ويقف مبهوتاً أمام الحفريات الناطقة بأن اليونان تعلموا أسس النحت من المصريين الذين تركوا ورائهم آلاف التماثيل الضخمة ملقاة في وجه الصحراء اسمى اوزيمانديا س ملك الملوك ولم يبق إلا ذلك التمثال غطته الرمال حيناً من الدهر والآن تهدده المياه التى ستجتاح آثار ما تعرض له المسيحيون الأوائل من التعذيب وتملأ الأحواض الجافة التى تحيط بها سفوح شرسة تلسعها شمس حارقة حتى أدارت رأسي وإمتصت كل بلل في حلقى فتشقق لسانى من العطش كما تشققت الأراضى بعدما جفت إذ تراءت ليوسف البقرات السبع العجاف وأكل الناس الجيف والميتات ولم يبق لخليفة مصر سوى ثلاثة أفراس جعلت على هيئتها تلك الروافع الحمراء التى تحركت على قضبان مثبتة فوق أرض تستعد لرفع أبواب الأنفاق وظهر اسم جمال عبد الناصر مسجلاً فوقها بالطباشير وتحته وقف صعيدى يبيع الماء البارد في قلتين من الفخار وفي قاع الحوض بدأ فك السلالم وتقطيعها بالأكسوجين إلى أجزاء رفعها الخطاف إلى أعلى حيث جرى لحامها على الفور ولم يتبق إلا السلم الحديدى الرفيع الذى بدأ فكه ودوى جرس الرافعة الهوائية التى أرسلت خطافها من جديد ليعود بسلم خشبى حلق فوق رؤوسنا بينما تجمع الصعايدة

فوق الشرفة يتفرجون وتزاحم الروس بقبعاتهم الثقيلة معتمدين على السياج الساخن بأيديهم وتوترت أصابع الروسى المنبطح بجوارى فوق كاميرته وكنا نبسطها أمامنا ظهر لبطن حتى يهبط عليها عبد السلام أفندى بسن المسطرة ثم يستقر خلف منصته العالية رافعاً يده إلى فمه يقضم ما تكون على سطحها من قشور جلدية إبيض لونها من أثر الطباشير وهو حجر جيرى تكون من رواسب الحيوانات والنباتات الميتة ثم يرفع عصاه يتتبع بها على الخارطة مجرى النهر الذى خاض سلسلة من المعارك منذ ولد فى أعالى الجبال حتى جاءنا متعباً منهكاً وانتهت مقاومته هنا فجرينا بين ضربات العصى الغليظة حتى الساحة التى استوى فى أقصاها جنرال آخر بملابسه العسكرية والشارة الحمراء الناطقة بعلو رتبته وحوله النظارة الذين جاءوا خصيصاً ليشاهدوا الحفل من خلف عوينات سوداء فتسمرت عيناى على إصبع مبللة بالدماء فى قبضة سمينة شقت الهواء ثم تكومنا على الأرض الحجرية تنزف من دون الجسم العملاق والوجه الذى لم تشوهه آثار الجدرى وكان يكره التشويه فى الجسم الإنسانى ولو أتيح له لصنع مثل النحات أجساماً عملاقة تنفجر قوة وصحة وجمالاً لكنه رقد على الأرض عارياً كواحد من تماثيله الضخمة أسقطته قوى التدمير داود العملاق برقبته القوية والعروق النافرة فى ساعديه ويديه اليسرى التى انفرجت وارتفعت قدمها قليلاً عن الأرض متحفزة للفعل ووجهه الذى استدار فى حدة إلى اليسار مقطب الجبين فى عينيه الخوف والتردد والشك فهى اللحظة التى اتخذ فيها قراره بقتل جالوت ومن وهب نفسه للفعل باعها لسيد عنيد لا يرحم يسلبه حريته لكن الفعل هو الطريق إلى الحرية وأنشد داود ملكاً على مزموره يا بنى البشر حتى متى يكون مجدى عاراً فقد كان وقت فى المساء عندما رأى المرأة المستحمة واضطجع معها وعندما حبلت استقدم من الحرب زوجها الذى أبى أن يستمتع بها بينما رفاقه يواجهون الموت فى الصحراء فبعث بمكتوب إلى قائده أن يجعلوه في وجه الحرب الشديدة ويرجعوا من ورائه ليضرب ويموت ولعله لقى حتفه وهو يردد بوجد اسم مليكه ذلك الذى صوره مايكل أنجلو فى شباب كل منهما عملاقاً للروح والجسد مؤمناً بقدرته على قهر ما شاء أما موسى فقد صوره ناضجاً بقدرة داخلية على تحريك الجبال وقيادة الأمم وقد تجلى فى عينيه الناريتين الغضب على تمرد شعبه أم هو رعب الإدراك المفاجئ بأنه ضللهم فى البرية أربعين سنة من الحرمان

والعطش والجوع عبر طريق لا يستغرق اليوم أكثر من ثلاثة أسابيع وقال الرؤساء إن ما تجلى من حكمة السلطان وأمانته وإيمانه يجعله فى غير حاجة إلى مشورتهم وانتهت رحلة النحات قبل أن يبلغ التسعين بأسبوعين شهد خلالها الحروب والثورات وتعرض فيها لنزوات البابوات وأهواء الكرادلة لكنه كان يسير دائماً فى جنازاتهم بعد أن ينحت لهم قبورهم وصار الصخر هو الشيء اليقينى فى عالم تسوده الفوضى والفن هو أرفع تعبير عن الحرية وأسبل جفنيه في سبات الراحة الأخير مثل مسيحه الذى استقر فى حجر أمه وقد انحنى فوق يده المستقرة على قلبها وعلى وجهها الحزين تساؤل يائس عن جدوى هذا كله فعلى مرمى البصر جرى النيل عند مخرج قناته الجديدة فى هدوء وظهر قارب وحيد ركن إلى الشاطئ عند الحنية التى تلتحم فيها القناة بالمجرى القديم وشب المصور الروسى برأسه وتوتر جسده استعداداً للعمل فلم يعد بالقاع غير شخص واحد جعل يصعد بسرعة الفأر درجات حديدية صغيرة تركت فى جدار الحوض ثم ظهر خلفه فأر آخر وعلى حافة ضيقة للغاية فى مستوى رأسى وقف روسى يلوح بيده يميناً ويساراً وهو يصرخ وينحنى بجسده إلى الأمام ثم يعود إلى الوراء معرضاً نفسه للسقوط فى أية لحظة وارتعشت مفاصلى وتجمدت يداى على الأرض ثم أطبقت قبضتيهما على حفنة تراب وتحتى مباشرة كانت مياه الفيضان متحفزة تقرع الباب وعندما ترفع البوابات الحديدية ستندفع إلى الأمام ولابد قبل ذلك من ادخال المياه إلى الأحواض بالعكس حتى تصبح فى مستوى منسوبها ثم يفتح لها الباب حتى لا يحدث اندفاعها ضغطاً يحطم الجدران كما حدث مرة من قبل وجرت الرافعة الحمراء التى اتخذت شكل الجواد على قضبانها فهى التى سترفع البوابات الخارجية الهائلة لتدخل المياه بالعكس وتسمرت عيناى على البوابة التى كانت فى مجال رؤيتى وتوهجت أمامى حمرة طلائها البالى وسط جدران وقيعان شديدة الجفاف تكاد تشتعل من حرارة الشمس وران صمت بالقاع وفجأة انثال منه قليل من الماء وصفقت الأيدى واهتزت أعطافى لرؤية المياه وربما كان العطش هو السبب وتسمر الفأر على السلم يتطلع الى المياه مبهوتاً وقد سحره منظرها وواصلت البوابة ارتفاعها واتسع الخط الرفيع أسفلها ثم اندفعت المياه فى دوى عاصف وسرعان ما غطت قاع الحوض وهى تقفز إلى أعلى ثم تهبط ثانية فى انطلاق تحول إلى شئ كالبغتة عندما اصطدمت ببوابات النفق الداخلية التى تنتظر خلفها مياه

الفيضان متحفزة وحاولت ان ترتد من حيث جاءت لكن البوابة كانت تواصل الارْتفاع ومزيداً من المياه يتدفق منها صاخباً مرعداً حتى أدركت أنهـا محاصرة فتحولت فى غضب حائر عاجز تهاجم الجدران المحيطة بها وامتد منها لسان خاطف صوب الفأر المسمر على السلم وتوهجت فى عينى ألوان الطيف وقد تجمعت على حافة الحوض وامتزجت خضرة حديقة المعمل على الضفة الغربية بصفرة الرمال والسيارات والأكشاك وسواد أعمدة التخريم والفناطيس الثلاثة المنتصبة وبرتقالية قلابات البادفورد وبياض مبنى المباحث بينما تندفع فى شدة ويتطاير رذاذها فى الهواء منعقداً فوق الرؤوس التى شرعت تجرى مهللة فى كل اتجاه

القسم الثالث

[4]

أشـار لى عبـاس أن أجلـس، وهـو يقـول بصـوته المتكاسل: لقدْ بعثت إليك، لأنى لم أرك منذ سافر سعيد.

قلت: كنت أبحث عن صندل يحملنى إلى أبى سنبل.

قال: وماذا فعلت؟

قلت: وجدت واحداً سيسافر بعد أيام.

قال: إذن لن تبقى هنا طويلاً؟

قلت: أبداً. فى اللحظة التى سيقوم فيها الصندل سأكون فوقه.

سأل: ومتى تعود؟

أجبت: لا أعرف، لكنى سأعود إلى أسوان، ومنها إلى القاهرة مباشرة، ولـن ترانى هنا.

استرخى في مقعـده، ومـر بيـده السـمينة علـى فـارق شـعره: ألم يوحشك سعيد؟ ليته ما سافر، فموجة الوباء قد انحسرت فيما يبدو.

– طبعاً وحشنى. عندما كان هنـا، كنـت أشـعر بالاطمئنـان. أمـا الآن، فأنـا أشعر أنى متطفل، وأنتظر أن أطالب في أية لحظة بمغادرة الاستراحة.

قال: إنها غلطتك. لماذا لم تفعل مثل سعيد؟

قلت: ماذا تعنى؟

قال: ألم يقل لك أنه ذهب إلى المباحث وسوى أموره معها؟

قلت: أية أمور؟ إنه لم يفعل أى شئ يعرضه للمؤخذة، لقد كان يقوم بعمله فقط.

قال: هذا مفهوم، لكن المباحث تحب دائماً أن تكون هناك خيوط متفاوتة الطول، تربط بينها وبين مختلف أنواع الناس.

انهمك فى تقليب بعض الأوراق أمامه، وساد بيننا الصمت. قال بعد لحظة: سأقول لك خبراً خاصاً ليس للنشر. اليوم سقط لوح من الأسمنت على عامل روسى فصرعه، وربما كان أحد عمالنا هو المسؤول عن هذا الحادث.

– كيف؟

– لا أعرف التفاصيل، فهذا هو كل ما سمعته بالتليفون هذا الصباح.

تطلعت إلى الجهاز ألذى استقر على يمينه. سألته إذا كان متصلاً بالهيئة مباشرة، فأجاب بالإيجاب.

قمت قائلا: الأفضل أن أذهب إلى الهيئة بنفسى، فربما كان هناك ما يصلح للنشر.

خرجت إلى الطريق، ومشيت إلى مكتب البريد. أعطيت أحد الموظفين رقم المكتب الذى تعمل به تانيا، فطلبه وناولنى سماعة يتدلى منها سلك مهترئ.

جاءتنى أصوات متشابكة تتحدث الروسية. طلبت من احدهم أن يصلنى بتانيا، فاستفسر عما أريده بلهجة عدائية. أوضحت له أنى صحفى وأن الأمر يتعلق بموعد مع أبراسيموف.

سمعت صوت تانيا أخيراً، وعندما عرفتنى اضطرب صوتها. سألتها عما حدث فقالت: لا شئ. انت تريد موعداً مع مستر أبراسيموف؟

قلت: أنا أريدك أنت. لقد انتظرتك أمس أمام المنزل، ولكنك لم تأت... أين كنت؟

قالت فى صوت ذى صبغة باردة رسمية: فيما بعد. مستر أبراسيموف مشغول اليوم.

قلت: سآتى إلى منزلك بالليل.

سألت: بمفردك؟

أجبت: أجل.

قالت: متأسفة. أنا متعبة. سأراك فيما بعد.

قلت: غداً الجمعة، نلتقى فى المساء.

قالت: لا أظن. سأقضى اليوم كله فى حمام السباحة وسأكون متعبة.

سمعت صوت إغلاق الخط وظللت برهة أنصت إلى طنينه الفارغ، ثم أعدت سماعتى بدورى، وعدت إلى الاستراحة.

أشعلت سيجارة، وتمددت على الفراش. ثم غادرت الفراش، ومضيت الى الخارج. وقفت أمام الاستراحة فى الشمس، لكن الحرارة أجبرتنى على العودة إلى الداخل.

استجمعت طاقتى بعد قليل، ووضعت قبعتى على رأسى وخرجت. انحدرت إلى الطريق الرئيسى، ووقفت فى الشمس حائراً. وأخيراً قررت النزول الى أسوان.

اتجهت الى حيث يقف جندى البوليس الحربى عادة. وجدت هناك جندياً رقيقاً شاحب البشرة. عرفته بنفسى، فطلب منى أن أقف بعيداً عنه حتى لا يتجمع الناس من حولنا.

ابتعدت عنه بضع خطوات، ووقفت أنتظر بجوار عدد من العمال والصعايدة. أقبلت علينا سيارة بوكس من طراز فورد تابعة للشركة، فتنحى الجندى عن طريقها. وعندما حاذتنا، أشار اليها اشارة واهنة بأصبعه، فواصلت السير دون أن تتوقف. وجاء فى أعقابها أتوبيس أخضر اللون من سيارات الأقاليم، لم يكن به موضع لقدم. ثم ظهرت سيارة رمادية تابعة للهيئة، توقفت بعد أن تجاوزتنا بخطوات. أشار الجندى لى ولمن يقفون حولى إشارته الواهنة أن نركب، فجرينا خلف السيارة، لكنها استأنفت سيرها قبل أن نتمكن من اللحاق بها.

خطوتُ عائداً فى بطء الى موقفى السابق، وأنا أتذكر الجندى الآخر الممتلئ رجولة الذى كان يحرك اصبعه فى الهواء حركة مسرحية قوية، فيخشع أجدع سائق، وتقف أية سيارة على مسافة ربع كيلو من اصبعه. تكررت مهزلة الإصبع

الواهن مرة أخرى حتى يئست من الركوب، فعدت الى الاستراحة.

أدرت جهاز التكييف وأظلمت الغرفة، ثم بحثت عن فقير، ليجلب لى شيئا مثلجاً. ووجدته خلف المبنى منهمكاً فى تقشير كوم البطاطس.

قال عندما رآنى إن أحد موظفى الشركة كان هنا منذ قليل، وسأل عن موعد مغادرتى الاستراحة.

سألته فى إعياء عما إذا كان يعرف هذا الموظف من قبل.

قال: أول مرة أشوفه. قال إنه يشتغل فى الشركة، وفى الأول سألنى عن مواعيد خروجك، واللى بيزوروك.

عدت إلى الغرفة، واستلقيت على الفراش أدخن. وجاء فقير بعد لحظة، فأخذ الترموس وملأه بالليمون المثلج.

❋ ❋ ❋ ❋

ذهبت إلى كيما فى المساء بعد أن حلقت ذقنى بعناية. ووجدت شقة تانيا مظلمة. ولم يستجب لى أحد عندما دققت الجرس، فانتقلت الى الشارع المجاور وصعدت إلى مسكن فاليرى.

كان الضوء يبدو من أسفل الباب. ضربت الجرس عدة مرات، ثم ألصقت أذنى بثقب المفتاح، لكننى لم أسمع حركة بالداخل. وتذكرت أنه يترك النور مضاء عندما يغادر المسكن.

مشيت فى الشارع الفرعى الذى يفصل بين مجموعتين من العمارات المتوازية. ومررت بفريق من الأطفال الروس يلعبون وقد عروا النصف العلوى من أجسادهم. وأتانى من أحد الشوارع الجانبية صوت بائع لبن صعيدى ينادى بالروسية مالاكو.

لمحت مجموعة من الشبان الروس بينهم فتاتان طويلتان بجوار أحد الأكشاك التى تبيع السجائر والبيرة، اقتربت منهم لكننى لم أتعرف على تانيا أو فاليرى. واتجهت الى النادى، وأنا أتلفت حولى بين الحين والآخر آملاً فى أن ألمح أحدهما.

كان النادى هادئاً على غير العادة. كانت هناك بضع عائلات روسية جلست فى الحديقة بصمت، وفى الداخل كان الرجال الذين تناثروا حول الموائد، يتطلعون

أمامهم بوجوم. تذكرت حادث الصباح، فتراجعت فى هدوء.

مضيت فى الطريق الرئيسى حتى السينما. كانت تعرض فيلماً مصرياً يدعى "أيامنا الحلوة". وقفت على الناحية الأخرى من الطريق، أتأمل مدخلها الخالى، ثم استدرت عائداً إلى النادى.

ابتعت زجاجة بيرة من الداخل، ووقفت حائراً أبحث عن مائدة خالية، ثم حملت زجاجتى الى واحدة جلس إليها ثلاثة شبان، أحدهم مصرى، وأمامهم عدة زجاجات فارغة. هززت رأسى للمصرى محيياً فرحب بى، ودعانى للجلوس الى جواره. وتعارفنا، فعلمت أنه يدعى أنور، وأنه من خريجى مركز تدريب المطرية، ويعمل كهربائياً فى محطة التشغيل. ثم عرفنى بالروسيين الذين يعملان معه. اتضح أن أحدهما أو كرائينى وليس روسيا. كان ضخم الجسم، يكشف قميصه المفتوح عن صدر كثيف الشعر، يحمل وشماً أخضر. أما الثانىَ، فكان من سيبريا.

أحنى لى الأوكرائينى رأسه الضخم، واضعاً يده على صدره وقال: منيه أوتشين برياتنا.

قال أنور: يقول لك أنه مسرور بالتعرف إليك.

لم يبد على السيبيرى أنه يشعر بوجودنا أو يعبأ به. وقال لى أنور أن الروس جميعاً حزانى بسبب زميلهم. وأن السيبيرى خفيف الدم عادة، ويجيد كلمات كثيرة بالعربية، ويقدم نفسه للمصريين على أنه صعيدى، متزوج من ثلاثة، ملقباً نفسه بمحمود رمضان.

كان السيبيرى فعلاً ببشرته التى لفحتها الشمس، وعوده النحيل أقرب إلى شاب من الصعيد. كان وجهه يحمل تعبيراً ساخراً ثابتاً، وبدا على النقيض من الأوكراييني الضخم الذى ربض إلى المائدة، يتطلع أمامه فى هدوء شديد ودعة.

سألت أنور عما إذا كان يعرف الروسية، فقال إنه قضى عشرة شهور تدريب فى مدينة ستالينجراد التى تسمى الآن فولجا جراد.

قال السيبيرى فجأة شيئاً بالروسية وهو يرفع كوبه إلى شفتيه. وأوضح لى أنور أنه يقترح أن نشرب نخب لقائنا.

أفرغنا أكوابنا ثم ملأناها ثانية، وأعدنا الكرة بعد لحظات. وقام الأوكرائينى، فأحضر أربع زجاجات جديدة. واتصل بيننا حبل الحديث، وأنور يقوم بمهمة الترجمة. حدثنا الأوكرائينى عن زوجته التى ستأتى بعد أسبوعين، وقال إنه سافر خصيصاً منذ شهرين ليتزوجها. وسخر منه السيبيرى متعجباً من هذا الذى يقطع كل هذه المسافة من أجل امراة، بينما النساء حوله فى كل مكان.

روى السيبيرى كيف قرر أن ينسب لنفسه ثلاث زوجات: كلما تعرفت بأحد العمال المصريين، ذكر لى أنه متزوج باثنتين أو ثلاثة. وأدركت أنهم يتفاخرون بتعدد زوجاتهم، ويتباهون علينا بعددهن.

فرغت الزجاجات، فقمت وابتعت أربعاً أخرى. وشربنا نخب الروس والأوكرائينيين والصعايدة والنوبيين والأوزبيكيين. وروى لنا السيبيرى نكتة المغامرة النسائية التى قام بها خروشوف وعبد الناصر عندما كان الثانى فى موسكو، وكيف أجمعا على رأى واحد بشأنها.

بدا وجه الأوكرائينى شديد الاحتقان، كأنما تجمع به كل ما فى جسمه من دماء. وقلت لأنور إنه ثمل تماماً، فقال إن الروس فى بلادهم يسكرون بشدة، لكنهم يعملون على الأقل أضعاف ما نعمل. وأهم ميزة لديهم هى الصبر، أما نحن فكسالى لا صبر لدينا، نريد أن نحصل على كل شئ دون مجهود وبالفكاكة.

أمنت على حديثه، فقال: العامل منا كان يرفض رفع الكابل من الأرض على أنه من عمل العتالين. فى حين أن الروسى مهما كان مركزه لا يترفع عن شئ مطلقاً.

أحنينا رأسينا فوق الشراب، وقد ران علينا حزن جارف. سألته عن الفتيات الروسيات، فقال فى لوعة إنهن يتعاملن مع الرجال فى بساطة، ولا يعقدن الأمور مثل فتياتنا.

شعرت برأسى يدور، وأحضر أحدنا عدة زجاجات جديدة. وبدأت أحكى لأنور عن تانيا سائلاً إياه الرأى. فقال فى حكمة مستوحياً تجاربه فى مدينة الفولجا: الفتاة الروسية تحب سماع كلمة الزواج.

قررت أن أذهب الى تانيا وأعرض عليها الزواج، وعندما حاولت الوقوف لم

أتمكن وانهرت في مقعدي.

واصلنا الشراب، وأحسست أن أنور يقول لى أشياء هامة، لكنى كنت عاجزاً عن استعابها. وتنبهت إلى أنور يكاد يحملنى على ذراعيه. كنا نقف أمام سيارة جيب فى عرض الطريق. وتعاون أحد الجالسين فى صندوقها الخلفى مع أنور على حملى إلى داخلها.

اعتمدت برأسى على كتف الجالس بجوارى، ورحت فى النوم. وأفقت على هزات رفيقى، فتحاملت على نفسى، وغادرت السيارة، وقادتنى قدماى إلى الاستراحة.

****

استيقظت قرب الظهر غارقاً فى عرقى. اكتشفت أنى لم أدر التكييف قبل النوم. وشعرت على الفور بصداع حاد.

جلست على حافة الفراش واضعاً رأسى بين يدى. وأحضر لى فقير ترموس قهوة، فشربت عدة أكواب، وابتلعت قرصين من النوفالجين. ثم ارتديت ملابسى، ووضعت رداء استحمام ومنشفة فى سلة من القماش. وضغطت قبعتى على رأسى، ثم انطلقت الى الخارج.

وجدت سيارة ذاهبة الى السيل، فقفزت إليها. وغادرتها أمام النادى الروسى فى كيما. ومضيت على قدمى الى حمام السباحة، فولجته بعد أن ابتعت تذكرة.

خلعت ملابسى، وارتديت المايوه. ووقفت أتأمل الموجودين الذين انتشروا حول الحوض فوق السور الحجرى وتحت المظلات. كانت الرؤية صعبة بسبب أشعة الشمس، فجعلت أبحث عن مظلة. وشعرت بالانظار تتجه إلىَّ وتتابعنى.

وجدت مائدة خالية، مظلتها مغلقة. جلست إليها دون أن أبسط المظلة، وشعرت بأن الأنظار ما زالت مسلطة علىّ.

أشعلت سيجارة كان لها طعم الأشياء المحروقة. وأخذت أتأمل المستحمين. كان أغلبهم من الروس. تأكدت بعد قليل أن تانيا غير موجودة. أما فاليرى فربما كان فى الماء أو ممدداً بعيداً فوق السور. فقد كان هناك كثيرون فى مثل قامته وحجمه.

وزعت اهتمامى بين مدخل الحمام، والتعليقات الصادرة من مجموعة من

الشبان المصريين تجلس خلفى. كانوا جلهم فى ملابس الطريق الكاملة. وكانوا يتابعون فتاة روسية متناسقة الجسم ارتدت لباس استحمام أرجواني اللون. كانت دائبة الحركة بين الماء ومجموعات الشبان الروس التى تناثرت أسفل وفوق السور. وسمعت أحدهم يقسم أنه رأى شعر ما بين فخذيها.

ظهرت تانيا بعد ساعة. ورأيتها تتجه الى الكبائن بصحبة فتاة سمينة. ثم عادت فى لباس أخضر اللون من قطعة واحدة، وقفزت الى الماء.

نهضت واقفاً، وسرت الى الناحية الأخرى من الحوض حيث المياه غير عميقة، فنزلت الى الماء، وجعلت أسبح قليلاً. ورأيتها تغادر الحوض، وتجلس على السور فى الناحية المقابلة لظلتى، ولم يبد عليها أنها لحظت وجودى.

صعدت من الماء، ووقفت أمام مائدتى أجفف صدرى وساقى. ولمحت صديقتها تنضم اليها فوق السور. ثم قامت فجأة وقفزت الى الحوض.

ألقيت بالمنشفة فوق المائدة. ودرت حول حافة الحوض متجهاً الى حيث تجلس تانيا. وشعرت بأنظار الشبان المصريين تتبعنى.

رأيتها ترفع رأسها فى مواجهة الشمس، وتغلق عينيها. وعندما اقتربت منها بدا لى وجهها شديد الشحوب، وقد ظهرت الغضون حول شفتيها.

جذبت مقعداً من أسفل مظلة مجاورة، وجلست أمامها. وفتحت هى عينيها فظهرت عليها البغتة عندما رأتنى. وأسرعت تضع نظارة شمسية وهى تتطلع حولها فى اضطراب. وفى هذه اللحظة، اقتربت منها صديقتها والماء يتساقط من جسدها. ووقفت الى جوارها تتأملنى من خلف عوينات سوداء ذات إطار أحمر قبيح.

قدمتنى تانيا الى صديقتها فى لهجة من تقول: هذا هو الذى حدثتك عنه. وتمددت الصديقة على السور الى جوارها. فكرت أنها فى الأغلب لا تعرف الإنجليزية وبوسعى أن أتكلم مع تانيا بحرية. فقلت لها إنى ذهبت الى منزلها مرة أخرى بالامس.

قالت: ما كان يجب أن تفعل.

قلت: لماذا؟

لم تجب.

تطلعت إلى لباس استحمامها الذى ظهر عليه القدم، وبدا مهدلاً على جسدها.

سألتها: أين كنت؟

أجابت: ذهبت مع فاليا الى أسوان، وقضينا الليلة فى كازينو على النيل.

سألت: من يكون فاليا؟

قالت: ألا تعرف؟ إنه اسم الدلع لفاليرى. وأمالت رأسها على كتفها، وتطلعت إلىّ باسمة. شعرت برغبة جارفة أن أقبل شفتيها المنفرجتين.

تلفتُ حولى، فرأيت الأنظار متجهة إلينا. كانت المجموعة المصرية قد كفت عن متابعة ذات المايوه الأحمر، وركزت انتباهها على ابن بلدها الذى جرؤ على العبور الى الناحية الأخرى من الحوض.

قلت: هذا مكان غير مناسب للحديث. هل أراك الليلة؟

تلاشت ابتسامتها، وقالت فى وجوم: فى وجود فاليرى.

قلت منفعلاً: ما هى حكاية فاليرى هذا؟

قالت: إنه أعز أصدقائى.

قلت: لكننى لا أريد أن أره.

قالت فى حماسة: إنه شخص ممتاز وقد ساعدنى فى بداية مجيئى.

قلت: إنه شديد الثقة بنفسه، ولست أحب هذا النوع.

قالت: بالعكس هو ضعيف جداً، وهو يتظاهر بهذه الثقة ليحمى نفسه.

انحنيت عليها ولمست ركبتها بأصبعى: ثانيا أرجوك. لم أت لأناقش شخصية فاليرى. قولى لى. ما الذى حدث. أنت لست كما كنت فى آخر مرة... فماذا حدث؟

قالت: لم يحدث شئ.

قلت: اذن ماذا...

قالت: لا فائدة من أن نلتقى مرة أخرى. فأنت ستعود إلى القاهرة، وأنا سأرحل بعد عدة شهور. والرسائل لا معنى لها، وتصبح بعد قليل زائفة.

قلت: ربما كنت مخطئة. اسمعى، دعينا نلتقى هذا المساء، ونتكلم فى الأمر.

قالت: كلا. لا أريد. لقد ضقت ذرعاً بكل العلاقات.

تكلمت صديقتها لأول مرة وقالت بالانجليزية لتانيا: ماذا قلت؟

كررت تانيا الجملة. وتحولت الىّ الأخرى قائلة: لقد ضاقت بك.

ثم أضافت: إنها مزحة فلا تغضب. واعتدلت جالسة، ثم قامت واتجهت الى الحوض.

قامت تانيا بدورها وسارت الى مائدة مجاورة، فأخذت من عليها علبة سجائر وكتاباً. وعندما عادت تبينت في الكتاب طبعة شعبية بالانجليزية من رواية "وزارة الرعب" لجراهام جرين.

قالت وهى تقلب صفحات الرواية: سأمتنع عن التدخين من غد، وأركز على تحسين إنجليزيتى.

نادت عليها رفيقتها من الحوض، فوضعت علبة السجائر والكتاب جانباً، ومضت إلى حافة الحوض، ثم قفزت الى الماء. وخرجت بعد قليل، فوقفت تجفف نفسها أمام مائدة جلس تحتها رجلان روسيان.

لمحت أنور فجأة يقترب منى. وجذب مقعداً وهو يحيينى ويسألنى عما فعلته بالأمس.

قلت: وصلت الاستراحة بمعجزة.

قال وهو يبتسم مشيراً الى الحوض: وكيف الحال؟

قلت: لا بأس. اسمع عندما تجئ أرجو أن تتركنا.

قام أنور على الفور وسار مبتعداً. بعد لحظة أقبلت تانيا على مهل برفقة صديقتها. وتهالكا على السور. وقالت الصديقة كم أنا عطشى.

قلت إنى سأحضر لهما شيئاً يشرب. ذهبت الى البوفيه، فابتعت ثلاث زجاجات دافئة من المياه الغازية. ولمحتهما تغادران السور وتجلسان الى مائدة بصحبة روسى، فابتعت زجاجة رابعة. وقفلت عائداً بالزجاجات وأنا عاجز عن الرؤية في الشمس، وضعت الزجاجات على المائدة، ثم قدمت واحدة الى كل من تانيا وصديقتها. ووضعت أخرى أمام الرجل، فلم يعبأ بى. وواصل حديثاً كان يدور

بينهما. وسمعت اسم أنور يتردد وكلمتى: أرابيسكى وباروسكى.

حملت زجاجتى وجلست أمامهم على حافة السور. ولحظت أن أنظار الموجودين حولنا من روس ومصريين مسلطة علينا.

نهت تانيا بعد أن انتهت من زجاجتها، فتمددت على السور بالقرب منى، وقفزت صديقتها الى الماء، بينما ظل الرجل فى مكانه دون أن يلمس زجاجته. كان يضع نظارة شمسية ذات عدستين عاكستين كالمرايا تجعل من المستحيل رؤية عينيه. لكن وجهه المتجهم كان ناحيتى.

برز رأس الصديقة من الماء بجوار حافة الحوض. ونادت على تانيا، وقالت لها شيئا بالروسية فى لهجة حادة. اعتدلت هذه جالسة ثم قالت لى: سأنزل الماء.

قلت: ألن أراك مرة أخرى.

قالت بلهجة قاطعة: كلا.

وقفت قائلا: حسناً، سأذهب. وأشرت بيدى مودعاً لصديقتها. فقالت هذه: أتمنى لك حظاً سعيداً.

حملت زجاجتى الفارغة الى المائدة، فوضعتها بجوار زجاجة الروسى التى لم تمس، ومددت يدى اليه مودعاً فتجاهلنى.

شعرتُ بالدماء تندفع الى وجهى. لم أدر ماذا أفعل، فاغتصبت ضحكة وأمسكت بساعده الأيمن وأجبرته على أن يبسط كفه وتصافحنا.

مضيتُ الى المدخل، فارتديت ملابسى. ولحق بى أنور متسائلاً عما حدث، ولماذا انصرفت هكذا سريعاً. فقلت إن لدى موعداً.

غادرتُ الحمام، ودرت حول سوره الخارجى فى اتجاه الطريق العام. مررت بمحطة الخط الحديدى، فتحولت إليها وصعدت الدرجات المؤدية الى رصيفها. اكتشفت أن حافة السور التى كنا نجلس فوقها أصبحت فى مجال رؤيتى، فوقفت أتطلع إليها منتظراً القطار. ورأيت تانيا من بعيد فوقه. ثم قامت، وجلست على مقعد من القماش، وبعد قليل عادت تستلقى على السور. ووقفت أتطلع اليها حتى جاء القطار.

❋❋❋❋

قبة الجامعة تربض فى الظلام بغير أثر لضجة الصباح، وأمامهـا يقبـع نصب الشهداء، ويمتد الشارع العريض الخالى من الكائنات، تحف به الأشـجار وأعمدة النور الشاهقة الارتفاع التى أغرقت المنطقة فى ضوء أقوى من القمـر، وعلى اليمين تهتز أشجار حديقة الحيوانات فى غموض، وعـبر التـرام تصـل الشوارع الجانبية المظلمة الى شاطئ النيل، وهنا يلسع الـبرد الأنـوف ويـدفع بالأيدى الى الجيوب، ومع ذلك يمكن المشى ساعات، وفى مناطق الضوء يمكن أن تلتقى العيون، وفى مناطق الظلام يمكن أن تتلامس الأكتاف، الطائر الصغير مـا زال يحبو على الأرض، وليس من سبيل غير الانزواء فى ركن الأتوبيس الأنيـق الذى خلا من الركاب، والاستلام لصفعات الهواء البارد التى أثارهـا انطـلاق السيارة الخفيفة مسرعة الى حيث ينتظر العجوز فى لفاعته الصوفية، وقد اسـتقر فوق فراشه ملتجئاً إلى كتب الأولين، وخطوتان فوق بساط ممـزق تؤديـان الى الفراش الحديدى الصغير الذى تفككت أسلاك مرتبته المعدنية، فأسفل أغطيتـه يمكن البكاء بلا توقف،

❋❋❋❋

انطلقتُ في الطريق المعتاد الذى يمر بمحطة الكهرباء، وعندما بلغت جسم السد تحولت الى اليسار. ومضيت فوق قطع ضخمة من الصخور الرمادية التى ظهـرت بها عروق حمراء وبيضاء. وتذكرت أن هذه المنطقة كانتِ تغطيها الرمال منذ أيام.كان بوسعى أن أتبين مبنى الهيئة ناحية اليمين على الشاطئ المقابـل. وبـدا أشبه بعلبـة صغيرة من الكرتون. وفي امتداده يساراً كـان هنـاك معبـد كلابشـة الـذى يتجلـى هـو الآخر للرائى من أية نقطة فى الموقع.

انتهـت الصخور فجـأة، ووجـدتنى أخـوض فـى رمـال اختلطـت بقطـع الـزلط الصغيرة. وما لبث الزلط أن اختفى وأصبحت اسير فى مستوى واسع من الرمال الخالصة.

أرهقتنى أشعة الشـمس الملتهبـة. فاحتميـت بظـل عربـة مـاز كانـت تفـرغ حمولتها من الطمى. ووقفت أجفف عرقى، وأرقب بلدوزراً يتقدم مـن شـحنة الطمـى

رافعاً درعه الأمامى قليلاً عن سطح الأرض. توقف البلدوزر أمام كوم الطمى. وهبط درعه حتى لامس الأرض. ثم تحرك البلدوزر من جديد، فاكتسح درعه الطمى دافعاً إياه إلى الأمام. وظهر فجأة عدد من الصعايدة يحملون خراطيم المياه. ومضوا خلف البلدوزر يرشون الطمى المهد بالماء.

انتهت مهمة الماز، فابتعدت عنها. وانطلقت السيارة تترنح فى شبه طريق حتى اختفت عن مجال رؤيتى. لكن صوت محركها ظل يأتينى، تتغير نغمته كلما تغيرت السرعة. وميزت كلاً من عنفوان الحركة الأولى، وحشرجة الحركة الرابعة التى يسمونها بالعجوز.

كان البلدوزر ما زال مستمراً في تمهيد الرمال. وكانت الضجة الصادرة عنه وحيدة النغمة لا تتغير ارتفاعاً أو انخفاضاً. ولا تتوقف إلا عندما يرفع السائق يده عن مقبض ويضعها على مقبض آخر، فيرتفع الدرع الأمامى عن سطح الأرض. ثم يتغير اتجاه البلدوزر ويهبط الدرع من جديد فتعود الضجة.

شهدت بلدوزراً يجر ضاغطاً اسطوانياً كبيراً جعل يدك الطمى. تبعه آخر يجر صندوق الضخور الغريب، وظهرت في أعقابهما فرقة الهراسات.

واصلت السير بجوار ماسورة رفيعة بيضاء اللون مؤلفة من عديد من الالتواءات والانحناءات. وانبثق تحت قدمى فجأة جانب من ماسورة تجريف فتتبعتها. لكنها ما لبثت أن اختفت أسفل طبقات الطمى.

انحدرت بي الأرض الى مستوى من الرمال. وبرزت للعيان نهاية ماسورة التجريف السوداء. كانت الرمال تنساب منها مختلطة بالماء، وكان ثمة مضخة كبيرة تسحب المياه إلى ماسورة تمتد فى اتجاه مجرى النهر.

عبرت كوما من المواسير الصغيرة المفكوكة. ومررت من أمام كشك خشبى أصفر اللون، بدت داخله منطقة رائعة من الظل. وعلى مقربة وقفت حفارة تدلت كباشتها الفارغة. كانت الحروف الأولى من اسم الاتحاد السوفياتي واضحة على جدارها، وتحتها كتب أحدهم بطلاء أسود "عاش جمال عبد الناصر".

عدت أدراجى بضع خطوات الى الكشك، ووقفت فى مدخله حتى تعودت

عيناى الظل. كانت هناك مائدة خشبية فوقها بضع ملفات انكب عليها شاب مصرى.

رفع رأسه إلىّ متسائلاً، فقلت وأنا أخطو إلى الداخل: دخت من الشمس. هل يمكن أن أستريح عندك قليلاً؟ أشار إلى مقعد أمامه قائلاً: تفضل.

جلست واضعاً قبعتي على ساقي. وأحسست به يتأمل ملابسي. وعندما تطلعت إليه حول بصره إلى الورق المنتشر أمامه.

كان يرتدى قميصاً هفهافاً، ويتصاعد منه عطر فاخر. وأحاطت بمعصمه ساعة ذهبية. ووشى وجهه الوسيم بنوع الطبقة التى انحدر منها.

تشاغل بتقليب أوراقه، ثم رفع وجهه وسألنى: صحفى؟

أومأت برأسي. عاد إلى أوراقه ثم تركها واستند بمرفقيه إلى المائدة.

– أخذت أحاديث كثيرة؟

أجبت: يعنى.

قال: وأكدوا لك جميعاً أنهم سعداء بوجودهم هنا فى هذا الجحيم؟

قلت: لم يقل أحد أنه يود الرحيل.

قال: وماذا يحدث لو قال لك أحد إنه موجود برغمه. هل تستطيع أن تنشر كلامه؟

قلت: لم يحدث هذا بعد.

قال: وإذا حدث؟

قلت: لا أعرف. لا أظن أن أحداً سيقول ذلك.

مال على المائدة ورفع يده إلى صدره فدق عليه: أنا أقول لك.

تطلعت إليه صامتاً.

قال: لست أريد البقاء هنا لحظة واحدة.

قلت: وماذا يقيدك بالبقاء؟

بسط ذراعيه حوله فى حركة مسرحية: أمر تكليف يا بيه. لو تحركت من هنا دخلت السجن.

قلت: لكن التكليف على ما أظن لمدة معينة.

قال: أربع سنوات.

قلت: ستمر بسرعة. ثم أنك ستستفيد كثيراً.

قال: وسأخسر كثيراً. عندما جاءنى أمرالتكليف كنت قد بدأت أقف على رجلى. كان عندى مكتب هندسة، وكنت أكسب. وفى خلال هذه السنوات الأربع كنت سأعوض شيئاً مما أخذته الحكومة.

تطلعت إليه عاجزاً عن الفهم. فابتسم قائلا: لم أعرفك بنفسى. وذكر اسماً يوحى بأنه لإحدى العائلات الاقطاعية القديمة.

قال: هل تنشر كلامى؟

قلت: لا أظن.

قال: ألم أقل لك؟

نهضتُ واقفاً وأنا أقول: سأتركك الآن، وربما التقينا فيما بعد.

كان لا يزال يبتسم فى شئ من السخرية وهو يرد: كما تحب.

غادرتُ الكشك، ومررت بالحفارة التى تحمل اسم جمال عبد الناصر. وواصلت السير بين قطع الصخور الضخمة المتعددة الأشكال والألوان. أدركت أنى خلفت جسم السد الرئيسيى ورائى وبدأت أهبط جزءه الأمامى.

أشرفت بعد قليل على شبه خليج يفصل بين السد على يمينى، والانفاق على يسارى. كان هناك كوم من الأخشاب طافياً فوق سطح الماء. وبدا المكان غارقاً فى هدوء شامل. وتعلق بضعة عمال بواجهة مبنى الانفاق فوق السلالم، وانهمكوا فى أعمال اللحام. وفى أعلى استقرت الروافع التى طليت هياكلها باللون الاحمر الفاقع، واتخذت قممها شكل الاهرامات.

سرت على حافة الخليج فى مساحة من الصخور الدقيقة الحجم تتخللها الرمال، ومضى بعض الوقت قبل أن أبلغ المجرى الرئيسى للنهر.

وقفتُ أتأمل مياهه تنساب فى هدوء وتراخ. كانت المياه عالية بعض الشئ عن المعتاد، وقد اتخذت لوناً بنياً داكناً من أثر الغرين الذى جاء به الفيضان. وركن إلى الشاطئ قارب صغير بمجدافين. وغير بعيد جلس رجل القرفصاء يقضى

حاجته. بدأت الرمال تحت قدمي تترك مكانها لصلصال جاف حفر فيه الجفاف خطوطاً، كأشكال هندسية متكررة. انحنيت وتناولت قطعة من أهم مادة يتكون منها السد، وضغطتها بين أصابعي، فتفتتت وتحولت إلى تراب.

تحولتُ أرقى جسم السد من جديد، جاعلاً المعبد وجهتي. وتجاوزت مساحة واسعة من المياه الناعمة، تلتها صخور ضخمة يكاد حجم الواحدة منها يبلغ حجم غرفة واسعة فى منزل قديم. بلغت شبه هضبة، استقر فى أعلاها كوخ خشبى مفتوح الجوانب ذو سقف من الخيش، تدلت بداخله قطع من اللحم المذبوح مغطاة بقماش. وجعل الجزار يصب عليها الماء من جردل معدني.

شعرت بقدمي شبه متصليبتين، وألفيت ساعتي قد التصقت بجلد معصمي. تطلعت إلى المياه التي كان الجزار يصبها بوفرة على الحم، ثم حولت بصرى الى الأريكة الخشبية التي احتلها زبائنه. عندئذ لمحت مخلفات السيارات المتناثرة التي تحولت إلى مقاه لشرب الشاى.

تقدمت من أقرب سيارة وأحنيت قامتي، لأمر من تحت حاجز لعله كان فيما مضى يحمل القماش الذى يغطى مؤخرتها. وتهالكت على قطعة من الحجر الى جوار عدد من الصعايدة فى جلابيبهم المغبرة.

كان براد الشاى الكبير مستقراً فوق موقد كيروسين أمام البائع الذى لف رأسه بعمامة بيضاء ضخمة، وجلس القرفصاء مسنداً ذراعيه الى ركبتيه، وعيناه لا تفارقان فتحة البراد. وبدأ البخار يندفع فى قوة منها لكن البائع لم يحرك ساكناً. وبعد قليل رفع البراد، وصب منه سائلاً أسود فى كوبات صغيرة الحجم.

تناولتُ كوبى، وانتظرت لحظات، ثم أخذت منه رشفة. وتكشف السائل الأسود عن شاى حريف الطعم. انتهيت من كوبى بسرعة شاعراً بعطشى قد تضاعف، فطلبت من البائع كوباً آرخر. وكان منهمكاً فى تسجيل حساب الزبائن فى كراسته.

أعاد البائع البراد إلى مكانه فوق الموقد. واشعلت سيجارة وأنا أصغى لحديث يدور بين الصعايدة حول "الطريشة".

كان أحدهم يقسم أنه رآها تقفز على رجل يمتطي جملاً، فتلدغه ويسقط جثة

هامدة في الحال. وقال إن طولها لا يزيد عن نصف ذراع، وإنها عمياء تسعى على الرائحة. وجادله الثاني قائلاً إنه رأى واحدة ميتة، وتبين أن رأسها يعلوه قرنان صغيران، وأسفل كل قرن عين صغيرة للغاية بلا جفون. وأكد أنها مبصرة. وتساءل ثالث عن الفرق بينها وبين الثعابين، فقال الثاني الذى صار المرجع الأساسى فى الأمر إن لون جلدها أصفر مزركش بنقط بنية فاتحة.

تناولتُ من البائع كوب الشاى الثانى، وارتشفته وأنا أتذكر ما سمعته من أن العلاج الوحيد المعروف للدغة الطريشة هو بتر العضو المصاب فى الحال، قبل أن يتسرب السم إلى باقى الجسم.

انتهيتُ من الكوب، فأعدته الى البائع وأعطيته قرشين. وظللت فى مكانى بلا حماسة للنهوض.

تحاملتُ على نفسى بعد لحظات، وغادرت السيارة. جعلت قمم الروافع التى تعلو مبنى الأنفاق من ورائى، واتجهت صوب المعبد.

دققتُ النظر فى الصخور والرمال التى تتابعت تحت قدمى وأنا أفكر فيما سمعته عن الطريشة. وأخذت أستعرض الأعضاء التى يمكن بترها من الجسم، والأخرى التى يستحيل معها ذلك، أو لا يمكن الحياة بدونها.

بدا المعبد أشبه بالسراب. فكلما أشرفت على أحد التلال الصخرية أو الرملية خيل إلىّ أنى أصبحت قريباً منه، وأن الخطوة التالية، ستضعنى على بابه. ومضت ساعتان كاملتان قبل أن أبلغ الشاطئ الغربى الذى يقوم المعبد عليه. كانت هناك عدة قوارب، وباخرتان صغيرتان وواحدة كبيرة تحمل اسم رمسيس. وكانت بيضاء الطلاء أنيقة الشكل. وعلى سطحها استلقى نوبيان في جلبابين أبيضين نظيفين. وكان أحدهما ينصت الى راديو ترانزستور فى يده، بينما انهمك الثانى فى حياكة طاقيته.

وقفت أتأمل النوبيين اللذين ران عليهما هدوء لم يبدده صوت الراديو. ثم تحولت أعبر الممشى التقليدى المنحدر الذى يفضى إلى المعبد.

كان مدخل المعبد يتصدره عمودان، تعلوهما زهرة اللوتس، ويتوسطهما قرص الشمس. وكانت هناك لافتة تحمل تاريخ فكه ثم إعادة تركيبه فى مكانه الجديد.

دلفتُ الى صحن غير مسقوف، حفلت جدرانه بنقوش الآلهة. كان أحدهم قد زين وجهه بمنقار كبير، وأحاطت به مفاتيح الحياة. ودارت بالصحن عدة أعمدة ذات تيجان على هيئة الزهور، ونقوش يحمل بعضها طابعاً مسيحياً. كانت كل الجدران والاعمدة تحمل آثار أرقام رسمت بالطباشير على مسافات متساوية، ورموزاً أخرى حديثة بالطباشير، لعلها من مخلفات الفك والتركيب.

اجتزتُ الفناء الى بهو مسقوف، أدى بى الى بهو ثان، ثم غرفة كبيرة فى الخلف كانت الغرفة خالية تماماً يحمل جدارها الخلفى نقوشاً عديدة. وتبينت صورة ايزيس الجميلة التى كشفت عن ثديين ممتلئين بارزى الحلمتين.

أدركتُ أنى أقف فى قدس الأقداس، مقر الأله الذى لم يكن يحظى بدخوله إلا صفوة الكهنة. وحيث كانت الشعائر السرية تتم فى الظلام بعيداً عن الشعب.

❋ ❋ ❋ ❋

فيتطهر الكاهن فى البركة المقدسة، ويشعل المبخرة. ويتقدم نحو المذبح مطهراً الأماكن المحيطة به برائحة البخور. هنا يرقد التابوت الذى يحوى التمثال الخشبى المذهب للمعبود. ويفض الكاهن الختم المنصوع من الطين، ويسحب المزلاج، ويفتح المصراعين، فيظهر التمثال المقدس. عندئذ يسجد الكاهن ويبخر التمثال، ويدهنه بالطيب، ويسبح بالأناشيد التعبدية. ويهب الكاهن الحياة للتمثال بأن يقدم إليه عين حورس التى انتزعها منه عدوه ست، وعثرت عليها الآلهة. ويتبع العين بتمثال آلهة الحقيقة ابنة رع. ثم يسحب المعبود من التابوت ويبدأ فى تزيينه. فيبخره، ويلبسه ثيابه، ويعطره، ثم يعيده إلى داخل التابوت. ويضع أمامه كل أنواع الطعام. وبعد تمام التطهير النهائى بالنطرون والمياه، يغلق التابوت ويسحب المزلاج ويضع الخاتم. ويتراجع الكاهن إلى الخلف ووجهه للإله، مزيلاً آثار خطواته.

❋ ❋ ❋ ❋

لمحتُ باباً صغيراً في أحد جدران الغرفة، فاتجهت إليه، ودلفت منه إلى ممر دائرى عاد بى إلى البهو الأول.

عثرتُ على درج جانبى ارتقيته. كان ضيقاً يأتيه الضوء من كوات فى جدرانه

عبارة عن فجوات طبيعية ماثلة فى مكان التقاء أحجار البناء. وانتهى بعد أربعين درجة بباب وضعنى على سطح المعبد. اتجهت الى الحافة التى تطل على النيل. ووقفت فوق الواجهة مباشرة أتأمل السد. ورأيت قمم الروافع الثلاثة التى تعلو مبنى الانفاق قد اتحدت فى هرم واحد.

عدتُ أهبط الدرج، ثم غادرت المعبد من فجوة فى جدران فنائه. كدت أتعثر فى رجل يرتدى جلباباً أو عمامة استلقى على الأرض. ونهض الرجل مضطرباً وهو يفتش فى جيبه. وأخرج بضع أوراق وهو يقول: تذكرة؟

قلتُ إنى لا أريد، فتطلع إلىّ فى بله، ثم حول بصره الى الثغرة التى بزغت منها. تركته يتأملها، وانطلقت فى طريق منحدر، أفضى بى الى آخر شبه داشرى، مضيت فيه جاعلاً قمم الروافع قبالتى.

توقفتُ بعد فترة أمام كباشة استقرت على الأرض، بينما كانت إحدى القلابات تقترب منها بظهرها. ثم ارتفع الظهر، وانهمرت حمولة الأسمنت فى الكباشة. ومسح العامل الواقف إلى جوار الكباشة عرقه، وجعل يشير بيديه لسائق الحفارة. وارتفعت الكباشة فى الهواء، ثم قامت بدورة كاملة قبل أن تختفى عن بصرى خلف تل من الاتربة.

بلغتُ بداية المستوى الرئيسى فى السد. مضيت فوق الطريق شبه الممهد وأنا أتلفت بحثاً عن سيارة. ومرت بى عربة بارفورد، قذفت فى وجهى بعادمها الثقيل، ثم أغرقتنى فى عاصفة من الغبار بعد أن ابتعدت.

لمحتُ بعد عدة خطوات شاحنة، تجمع على ظهرها عدد من العمال، فصعدت إليها. انطلقت الشاحنة بمحاذاة ممرات التفتيش حتى بلغنا الضفة الشرقية وإذا بها تتجه يساراً، وتنهى رحلتها بعد عدة دورات فى جاراج الحقن.

عدتُ أدراجى سيراً على الأقدام حتى المستوى الرئيسى، ثم واصلت السير فى إتجاه محطة الكهرباء. أشرفت على خلاطة الأسمنت، فوقفت أتأمل طابوراً من سيارات الماز أسفل خرطوم تندفع منه المياه فى شدة. كانت كل سيارة تتقدم من الخرطوم بظهرها، وهى ترفعه الى أعلى، ليتسنى لعامل وقف على سلم بجوار

الخرطوم أن يغسلها جيداً بمياهه. عندئذ يهبط ظهرها، وتنطلق خفيفة إلى موقعها تحت قمع الخلاط.

تعلقتُ بباب عربة ذاهبة فى طريق الاستراحة. وعندما بلغنا الجاراجات، أطاح الهواء بقبعتى. فكرت بأن أتركها وشأنها من فرط التعب. لكن السائق كان قد شهد الحادث، فأبطأ السيارة. وقفزت إلى الطريق، بينما استأنف هو سيره، فاستعدت قبعتى.

ومضيت على قدمى حتى الاستراحة.

❋❋❋❋

أحضر لى فقير فى الصباح بعضاً من علب اللحم والسمك المحفوظ، وعدة أرغفة من الخبز. ووقف يتأملنى أعد حقيبتى، وهو يهز رأسه فى بطء.

قال: حتفوت على بلدى "بلانة".

قلت: هى قبل أبو سنبل، ولا بعدها؟

قال: بعدها.

قلت: يمكن. وأشوف البيت إللى انت كنت عايش فيه.

قال مواصلاً هز رأسه: ما حتلاقيه، الميه غطت كل حاجة.

رفعت عينى إليه عندما لمست رنة الحزن فى صوته. قلت بعد لحظة: لكن الكل بيقولوا إن المعيشة فى القرى الجديدة أحسن بكثير من القديمة؟

قال: والنيل؟ البيوت الجديدة بعيدة عنه خالص... النيل ضاع منا خلاص. مش حنشوفه تانى أبداً.

أغلقت الحقيبة فانحنى عليها، ورفعها إلى كتفه. تبعته إلى الخارج بعد أن تأكدت من وجود خطاب صيام إلى زميله فى جيبى.

كانت الشاحنة التى أرسلها لى عباس يقودها سائق نوبى. جلست إلى جواره بعد أن أعطيت فقير نصف جنيه. انطلقنا فى طريق متعرج مرصوف إلى الميناء الذى أقيم على الشاطئ الشرقى فى نقطة تواجه مرسى الباخرة رمسيس ومعبد كلابشة، وصلناه بعد دقائق، فألفيناه مرسى صغيراً، يضم سفينة قديمة مهجورة استقر الصندل

إلى جوارها. مضيت إلى كشك خشبى يحمل اسم الشركة صاحبة الصندل، بينما سار السائق بخطوات متمهلة إلى حيث يدور الشاطئ صانعاً خليجاً صغيراً.

سألته: انت متأكد من الموعد؟

قال: ما تبقى من شحن لن يستغرق أكثر من هذا.

قلت: بوسعى أن أنصرف الآن ثم أعود في الثالثة. فهل تضمن لى أنه لن يقوم قبل هذا الموعد؟

ضحك: كيف؟ ما أدرانى ما سيحدث.

وقفت حائراً، ثم استدرت، ومضيت الى حيث وقف السائق. كان يتأمل عدداً من مراكب الصيد الصغيرة، غطتها مياه الفيضان. قال عندما رآنى: شايف مراكبنا. سابوها كده من غير ما يحاولوا يشيلوها. ولما شكينا قالوا إننا ملناش عندهم حاجة، لأننا أخذنا التعويضات.

وقفنا نتأمل أشرعة المراكب التى برزت من المياه السمراء، وجعلت تتمايل يمنة ويسرة، ثم استدرنا عائدين الى الشاحنة.

قلت للسائق إنى سأبقى، فساعدنى على انزال حقيبتى، وانصرف. حملت الحقيبة إلى الكشك، فوضعتها بجوار صبى أسمر اللون، اقتعد الأرض أمام موقد الكيروسين المعهود. فوجئت به يقدم لى كوباً من الشاى. فاعتمدت بظهرى على جدار الكشك، ومضيت ارشف الشاى متأملاً الصندل.

كانت هناك عارضة خشبية تصل بين الشاطئ وحافة الصندل. وفوقها تدافع عدد من الصعايدة ينقلون اليه أسلاكا حديدية. ووقف يرقبهم رجل عريض طوى ذيل جلبابه ودسه في سرواله الطويل. كان وجهه يحمل الملامح النوبية، وإن بدت بشرته قمحية. وسمعتهم ينادونه بعم مهدى.

انتهيتُ من كوبى، فأعدته للصبى. وأعطيته قرشاً، فرفض أن يأخذه قائلاً إنى ضيف. حملت حقيبتى، وعبرت العارضة الى ظهر الصندل. ووجدت أكوام الرمال والزلط تكاد تغطى مساحته كلها. وكانت حركة الشحن المستمرة تحول دون الاستقرار بينها.

لمحتُ سطحاً معدنياً بارزاً على مقربة من أحد طرفى الصندل، بدا بمعزل

عن كل ما يجرى حوله. وفوقه استلقى شاب فى قميص من المربعات الملونة، وبنطلون من قماش رخيص أزرق اللون. اتجهت إلى السطح المعدنى ورفعت حقيبتى، فوضعتها فوقه. اكتشفت أن السطح ليس سوى ظهر القمرة التى تضم المحرك. وكان ظهر الراقد إلىَّ، فلم أر وجهه. وبدا نائماً.جلست فوق حقيبتى معتمداً بذقنى على ركبتى. وأخذت أرقب حركة العمال.

❋ ❋ ❋ ❋

وصاح العمال: نحن نموت جوعاً ولا يزال أمامنا ثمانية عشر يوماً حتى الشهر القادم. وتجمعوا فى أحد الميادين على مقربة من أحد الصروح يصيحون: لن نعود إلى أعمالنا. أبلغوا هذا إلى رؤسائكم المجتمعين هناك. وتوجه الجائعون جماعات كبيرة نحو الحوانيت، ولكنهم لم يحاولوا اقتحامها. وقام أحدهم خطيبا: لقد جئنا يدفعنا الجوع والعطش. ولم تعد لدينا ملابس نرتديها. ولم يبق لدينا زيت ولا سمك ولا خضار، أرسلوا لسيدنا فرعون أرسلوا لملكنا وسيدنا حتى يعطونا ما يمكننا من الحياة.

❋ ❋ ❋ ❋

أحسستُ بمن يرقبنى. والتفت إلى النائم، فوجدته قد اعتدل على ظهره، وطفق يتطلع الىَّ.هززت رأسى محيياً فاعتدل جالساً. وانتصبت أمامى رأس حليقة كالسجناء والجنود. لكن شعر ذقنه كان طويلاً. ورأيت مصباحاً كهربائياً يتدلى من خصره وإلى جوار المصباح مطواة.

عرفنى بنفسه قائلاً أنه جوال، ويدعى ذهنى. وذكرت له اسمى بدورى. وعندما سألنى عما أعمل، قلت إنى صحفى.

سألنى باهتمام: فين؟

ذكرت اسم مجلة. فانفعل فجأة، وسألنى عما إذا كنت أعرف أحد كتابها.

تطلعت إليه فى حدة، ثم قلت: أيوه أعرفه.

قال إنه تعرف عليه عندما كان في السجن، سألته: وإيه إللى وداك هناك؟

قال: كنت بأزور واحد قريبى.

قلت: ما قلتليش بتشتغل إيه.

قال: فى شركة.

– هنا فى السد؟

– لا. فى القاهرة. أنا عضو كمان فى جمعية الجوالة.

مد يده فى جيبه، فأخرج دفتراً أخضر قدمه إلىّ قائلاً إنها بطاقة عضويته فى الجوالة. تناولت الدفتر، وألقيت عليه نظرة سريعة. كان يبدو جديداً للغاية، وكانت الصورة الملصقة به تمثله بشعره المحلوق، ونفس ملابسه.

قال: أنا قطعت حتى الآن عشرة آلاف كيلو. وقلت ما دام وصلت لهنا لازم أشوف أبو سنبل. وأنت؟

قلت له إن وجهتنا واحدة، وأعدت اليه البطاقة، ثم لزمت الصمت. وتابعت سرباً من الطيور البيضاء ذات الأجنحة السوداء، كان يطير فوق سطح الماء متجهاً الى السد.

اقترب منا عم مهدى، فرحب بى قائلاً: أهلاً وسهلاً بالأفندى. ثم صاح منادياً على صبى الشاطئ: شاى للأفندى يا وله.

سألته عن موعد قيام الصندل.

قال: قريب بإذن الله.

قلت: فاضل إيه؟

قال: مواسير الحديد والأخشاب. وبعدين الأدوات الصحية. مش حيخدوا كتير.

جاء الصبى بكوبين من الشاى، أعطانى أحدهما وقدم الثانى إلى عم مهدى. وقدم هذا الكوب بدوره إلى ذهنى قائلاً إنه شرب لتوه. ثم غادرنا عائداً الى موقفه بجوار العارضة الخشبية.

قال ذهنى ونحن نرتشف الشاى: كنت خايف أبقى لوحدى على الصندل.

لم أعلق.أضاف بعد قليل أن مجموعة من الجوالة كانت معه بالأمس، ولكنهم تخلوا عنه اليوم، وفضلوا العودة إلى القاهرة.

ظهرت فى مدخل الميناء باخرة تحمل العلم المصرى، توقفت لصق السفينة المهجورة. وما لبثت الحياة أن دبت فى الأخيرة، وتحولت إلى مكاتب للجمرك

والرقابة الصحية. وأصبحت معبراً إلى الشاطئ لركاب الباخرة القادمة من السودان.

ظهر عدد من الأجانب على سطح الباخرة. وغادرتها فتاة شقراء ترتدى بنطلوناً قذراً من بنطلونات رعاة البقر. وبرزت فى الطابق الأعلى للباخرة شقراء أخرى فى رداء قصير للغاية، ووقفت على رأس السلم تتطلع فى تردد الى خمسة مصريين، اعتمدوا على سور السفينة الأخرى تحتها مباشرة بطابقين، ورفعوا رؤوسهم الى ساقيها. وأخيراً استدارت وجعلت تهبط بجنبها.

فرغ العمال من نقل المواسير، وبدأوا يجلبون الأخشاب. وانضم إلينا فوق سطح المحرك نوبيان فى جلبابين نظيفين من قماش سميك داكن اللون. وكان كل منهما يحمل لفافة من القماش.

كان أحدهما ممتلئاً شديد الوقار، بادى الطيبة. وكان الثانى طويلاً نحيفاً، شديد الخجل. وقدم لنا الوقور نفسه على أنه يعمل فى إدارة الشركة بأبى سنبل، ويدعى فهمى. أما الخجول فكان اسمه أحمد، ويعمل فى الورشة الميكانيكية بأبى سنبل أيضاً. وكان الإثنان فى زيارة زوجتيهما وأولادهما فى القرى الجديدة.

سألت فهمى عما إذا كان المعبدان قد فصلا عن الجبل فأجاب: الشغل ماشى.

وجهت السؤال بطريقة أخرى. التماثيل الكبيرة إللى فى وش المعبد زى ما هى والا شالوها.

قال: التماثيل لسه موجودة.

مر عم مهدى بجوارنا، فتوقف يحيى أبناء بلدته قائلا: ماسكاجيرو.

ورد عليه الاثنان: ماسكاجيرو.

سألته عن الوقت الذى ستستغرقه الرحلة.

أجاب: المسافة مش كبيرة.

قلت: يومين ولا تلاتة؟

قال وهو يتحرك مبتعداً: مش حيزيدوا باذن الله.

قال ذهنى: مش أكثر من يومين.

قال فهمى: أربعة عشان الصندل ما بيمشيش بالليل.

قال أحمد: الصندل سريع.

سألت فهمي عمن يكون عمى مهدى فقال إنه مساعد الريس.

قلت: وفين الريس؟

أشار إلى عجوز ضئيل الجسم، وقف فى الطرف الآخر من الصندل، وقد غطى رأسه بعمامة كبيرة بيضاء، وبدت بشرته فاتحة السواد.

تجاوزت الساعة الثالثة، وما زال العمل جارياً فى نقل الأخشاب. ولم يبدأ بعد فى الإسمنت والأدوات الصحية. وجعلت أنقل بصرى بين العمال والمياه العالية والمعبد الذى استقر على الشاطئ الآخر.

اقترب منى فهمي زاحفاً فوق الصاج وقال مشيراً إلى نقطة فى الماء على مبعدة خطوة واحدة من شاطئنا: شايف الفنطاس ده؟

كان هناك فنطاس من الحديد يعلو على سطح الماء، وتحته عدة درجات حديدية رفيعة.

سألنى: شايف كم سلمة؟

عددت ثلاث عشرة درجة.

قال: السلم ده فيه ميت سلمة. كلهم الوقت تحت الميه. اللى انت شايفه ده كان شطنا قبل السد. كان بيوصل لغاية نص البحر.

انتهى نقل الأخشاب، ورأيت مجموعة من العمال تحمل أكياساً من الإسمنت إلى الصندل. وجاء فى أعقابهم شخص أسمر البشرة يرتدى جلباباً صوفياً داكن اللون، ويحمل فى يده سلة مخروطية من القش اختفت محتوياتها خلف ورق الصحف. وفى يده الأخرى استقرت حقيبة متوسطة الحجم.

تقدم منا الرجل فى هدوء، واضعاً حمله على أرض الصندل، ووجه إلينا التحية فى لهجة صعيدية أصيلة.

أفسحنا له مكانا بجوارنا. فتربع، وأخرج علبة بلمونت دار بها علينا. ولاحظت عمامته البنية النظيفة، وجلبابه الذى صنع من قماش غير رخيص، جرى كيه حديثاً، ثم الحذاء ذا الرقبة. كان كل ما فيه ينطق بالاعتناء الشديد، وربما أيضاً

بقيراطين من الأرض.

دخنّا ونحن نتأمل باخرة خشبية متهالكة تقترب من الميناء فى بطء، ثم تتوقف خارجه. ولاحظتُ أن حركة الصعايدة قد هدأت عن ذى قبل، لكنهم كانوا ما زالوا ينقلون أكياس الأسمنت.

قلت: الظاهر مش منقولين من هنا النهار ده.

قال ذهنى: يمكن الصندل يبيت هنا.

أشار الصعيدى الى الباخرة التى وقفت فى عرض النهر، وقال: مش ممكن. لازم نخلى مكان للمركب.

شرع أحمد يفك لفافته، وأخرج منها عدة أرغفة من الخبز المستدير. وبسط منشفة نظيفة على سطح الصاج، ووضع الخبز فوقها، ثم أضاف إليه أربع بيضات مسلوقات، وقطعة من الجبن، وبضع حبات من الطماطم. وبحث طويلاً بين محتويات لفافته حتى عثر على قطعة صغيرة مطوية من الورق، تكشفت عن حفنة من الملح المخلوط بالفلفل الأسود.

اعتدل فهمى بجوار زميله، ودعانا إلى مشاركتهما طعامهما. اقترب منهما ذهنى على الفور، بينما أخرجت من حقيبتى علبة بولوبيف، فتحها ذهنى بمطواته. وجذب الصعيدى سلته ونزع غطاءها مخرجاً منها لفافة من الورق، وسكيناً. وفتح اللفافة، ثم قطع بالسكين جزءاً من قطعة لحم ظهرت عليها حبات الفلفل الأسود. ومزق جانباً من لفافة الورق، ووضع فوقها قطعة اللحم، وأضافها الى المائدة المشتركة. ثم قام الى حقيبته، ففتحها وأخرج منها رغيفين من الخبز الشمسى السميك وضعهما أمامنا.

ناديت على رمضان أن يأتى لنا بالشاى. وسألت الصعيدى عن اسمه، فقال إنه يدعى جرجس. وأضاف أنه من سوهاج ويعمل فى أبى سنبل.

قلت: تبقى تعرف أحمد وفهمى؟

حرك رأسه حركة خفيفة، لم أفهم معها إذا كانت إجابته بالإيجاب أو النفى، وصدرت عن أحمد همهمة غير مفهومة. سألتهم عما إذا كانوا يعيشون فى

عنابر، فقال جرجس إنهم يقيمون فى خيم لأن العنابر لم ينته بناؤها بعد.

لاحظت أن العمل يجرى الآن فى نقل الأدوات الصحية. وخلا الشاطئ إلا من بضع أحواض من الخزف.

هبطت من فوق القمرة. واعتمدت على حافة الصندل. أخرجت منديلى ودليته فى الماء، ثم عصرته ومسحت به وجهى وعنقى. ودرت حول القمرة حتى أصبحت فى الناحية الأخرى المطلة على الشاطئ. رأيت الصعايدة قد شمروا ملابسهم وغاصوا فى الماء يغتسلون. ولمحت رمضان بينهم. كان الكشك مغلقاً. ورأيت عاملاً يحمل آخر قطعة من الأدوات الصحية ويعبر بها العارضة، ثم يضعها على الرمال ويتهاوى الى جوراها مجففاً عرقه بساعده.

اختفى عم مهدى فى باب القمرة. وما لبث صوت المحرك أن ارتفع، ثم توقف وعاد يتردد من جديد فى خفقات مضطربة حتى استقر أخيراً على نغمته العالية. وظهر الريس عند مقدمة الصندل.

انتهى رمضان من الاغتسال، فأسرع الى الكشك، وتناول من الأرض موقد الكيروسين وكراسة ثم عاد جرياً الى الصندل، فقفز إلى سطحه. كان الصندل قد تحرك بالفعل وسقطت العارضة الخشبية فى الماء.أشعلت سيجارة وأنا أتأمل الشاطئ والصعايدة الذين قاموا بشحن الصندل وجلسوا الآن بلا حركة يرقبون ابتعاده. تحولت أرقب الناحية الأخرى. رأيت أننا نسير بعرض المجرى فى حذاء السد، ونقترب بسرعة من الشاطئ الآخر أسفل المعبد، وسرعان ما رسينا بجوار الباخرة رمسيس.

سكت صوت المحرك، واختفى الريس فى قاع الصندل. ولحق به عم مهدى. ثم ظهر الإثنان من جديد، وقد استبدلا ملابسهما. وبدا الريس شخصاً آخر فى رداء أسود مهيب وعمة بيضاء تعددت لفائفها فوق رأسه.

عبر الريس الى الشاطئ، ومشى بنشاط وهو يلوك شيئا بين فكيه الخاليين من الأسنان. وخلفه انطلق عم مهدى فى رداء مماثل منتعلاً حذاء. وجاء فى أعقابهما رمضان فى جلباب أبيض نظيف وصندل. وانطلق الموكب الثلاثى على الشاطئ، يتقدمه الريس ملوحاً بيديه برد تحية بحارة رمسيس، وعدد من النوبيين والصعايدة يشربون

الشاى على الشاطئ، وسرعان ما اختفى الثلاثة عن الأنظار.

صعدت فوق القمرة وأنا أسأل: هم راحوا فين؟

أجاب جرجس: روحوا.

قلت: روحوا على فين؟

قال: على أسوان.

قلت: يعنى إيه؟ إحنا مش حنمشى النهار ده؟

قال فهمى: لا حنبيت هنا. الدنيا خلاص ليلت.

شعرت بدمائى تفور.

قال فهمى: لو كنا فضلنا فى الناحية التانية للصبح، كانت الشركة تكلفت عشرين جنيه.

قلت: طب ليه ما حدش قال، أنا كنت فاكر إننا ماشيين النهار ده.

قال جرجس: أنا ظنيت إنك عارف، ما دام الميكانيكى ما ظهرش، يبقى مفيش سفر.

سألت: أى ميكانيكى؟

قال: اللى حيشغل الموتور.

– وعم مهدى؟

قال فهمى: عم مهدى مساعد الريس، ومالوش دعوة بالموتور.

جلست فوق حقيبتى وأشعلت سيجارة جديدة. وعندما انتهيت، هبطت إلى مرحاض صغير بجوار باب القمرة. غسلت وجهى وأسنانى. وتبعنى الآخرون. ثم غادرنا الصندل إلى غرزة الشاى الصغيرة على الشاطئ.

سألنى ذهنى ونحن نشرب الشاى عما إذا كنت سأبقى طويلاً فى أبى سنبل.

أجبت: حسب الظروف.

– وحتنزل فين؟

قلت: فى استراحة الشركة.

وتمنيت لو كنت واثقاً من ذلك حقيقة.

قال: وبعد كده؟

قلت: بعد كده؟ حأرجع.

قال: مش رايح السودان؟ ،

قلت: السودان؟ ليه؟

قال: المسافة بين أبو سنبل والحدود ما تزيدش عن ثلاثين كيلو.

قلت بعد فترة: ولو حبيت أروح ما معيش بسبور.

ضحك قائلا: ومين عاوز بسبور عشان يعدى الحدود.

انتهينا من أكوابنا، فاقترح جرجس أن نشرب دوراً آخر. وتباريت أنا وهو فى تقديم السجائر للجميع.

عدنا إلى الصندل، فاستلقينا فوق ظهر القمرة. انتحى أحمد طرف السطح ورقد على جنبه، واضعاً رأسه على ساعده. وبسط فهمى بطانية على الناحية الأخرى، ونام فوقها. وحذا الصعيدى حذوه، ثم دعانا أنا وذهنى لأن نرقد فوق بطانيته.

رقدنا تحت شمس المغيب. وردد ذهنى بصوت خشن أغنية لعبد الحليم، فسألته إن كان يعرف أغانى سيد درويش أو عبد الوهاب القديمة. لكنه لم يكن يذكرها. وحاولنا معاً أن نستعيد كلمات ولحن "ياما بنيت قصر الأمانى" ولكننا فشلنا.

قال جرجس: أجولكم على لغز، والشاطر يفسره.

قال ذهنى: قول يا عم.

قال: يبجى ايه أخف الخفيف، وأتجل التجيل؟

فكرت وقلت: الرمل.

قال ذهنى: الهوا.

ضحك جرجس وقال: أخف الخفيف هَو كلام الحبيب وأتجل التجيل كلام العدو.

فكر لحظة ثم استطرد: طب فسروا ده: شاب ركب أبوه، ولبس أمه، وأكل الحى من الميت.

لم أستطع أنا وذهنى أن نفكر بإجابة.

قال جرجس: مفيش أبسط من كده. شاب رهن أبوه، عشان يركب جمل.

ورهن أمه، عشان يلبس، ولما جاع شق بطن الجمل فلجى فيه جنين صاحى أكله.

أشعلنا سجائرنا. وتأملت سفح السد الذى ساده الهدوء التام. جعل ذهنى يترنم مردداً "يا ليل يا عين"، فسأله جرجس عما إذا كان يعرف قصة هذه العبارة. وعندما أجاب هذا بالنفى، اعتدل جالساً فى حماسة، وروى لنا كيف انطلق شخص يدعى "ليل" سائحاً فى البلاد بحثاً عن صديق. وعثر عليه الملك وهو يغربل الرمال، فسأله عن السبب، فقال إنه يبحث عن صديق. وعندئذ اصطفاه الملك صديقاً. وقرر الملك ذات يوم أن يسافر للحج، فقطع ليل شخصيته، ووضعها فى علبة أغلقها وأعطاها للملك دون أن يطلعه على محتوياتها، وطلب منه أن يرويها من ماء زمزم.

قاطعته متسائلاً عما يعنى بشخصيته.

قال: لا مؤاخذة قضيبه.

ومضى جرجس يروى كيف سافر الملك وبدأت الملكة تراورد ليل مهددة إياه بأن تتهمه لدى الملك. وقال لها ليل إنه لا يستطيع أن يخون صديقه فأرسلت إلى الملك أنه حاول اغتصابها. وعاد الملك مسرعاً فأرسل فى طلب كل من السياف وليل. وعندما مثل هذا أمامه سأله عن العلبة وطلب منه أن يفتحها، فتأكد الملك من اخلاصه وقال له إنه يئس من صحبة الناس وإنه سينطلق معه فى البلاد سائحاً.

وفى الصحراء برزت لهما جنية رائعة الجمال. كان الملك نائماً فحاولت أن تغرى ليل بقتله لكنه لم يستسلم لإغرائها. ونام ليل فظهرت للملك ونجحت فى إغرائه بقتل رفيقه ففعل ثم طلبت منه أن يفقأ عينه اليمنى فانصاع لها. وعندئذ اختفت. وجعل الملك يبحث عنها بعينه اليسرى بلا جدوى فجلس يندب حظه ويردد باكياً: "يا ليل يا عين".

كان الظلام قد انتشر تدريجياً. وظهرت فوق السد أضواء المصابيح الكهربائية. ووصلت إلى مسامعنا أصوات الشاحنات والقلابات التى تعمل فوقه دون أن نراها. وعلى اليمين تبدت حفارة كانت كباشتها تدور حولها بسرعة كأنما أفلت عقالها.

أخرجتُ من حقيبتى وسادة صغيرة من المطاط، وضعتها تحت رأسى. واستلقيت فى مواجهة السد. واستقبلت على وجهى نسمة خفيفة هبت فجأة.

أغمضتُ عينى، وشردت وأنا أصغى بنصف انتباه لذهنى وجرجس يغنيان معاً "يا بهية وخبرينى على اللى جتل يسن".

❋❋❋❋

الحياة أصبحت مثيرة كما لم تكن من قبل، والورق الأبيض يتحول فى الغرفة الصغيرة فوق السطح إلى سلاح بلا طلقات، الخطر فى كل لحظة وكل ركن، وكل مهمة فيها انتصار على العدو الرابض فى الظلام، وتستيقظ المدينة فى الصباح لتقرأ الرسالة المسطورة، لكن كلمة واحدة كانت كافية لفتح الجرح الذى لا يندمل، فإشارة إهتمام قد ترقى إلى مرتبة العاطفة المفتقدة، وكيف يمكن تفسير الابتسامة والنظرة واللمسة؟ أو التعبير عما يجيش به القلب؟ ولم يبق إلا التجوال على غير هدى فى الشوارع التى تغشاها على أمل لقاء بالمصادفة، فمن السهل تبين القامة الممشوقة، وجدائل الشعر الأسود المسترسلة على الظهر، ولا بد أن يعكس زجاج المحلات تلألأ العينين العسليتين الضاحكتين، والبصر يمتد فى لهفة إلى كل ركن، وإلى كل اتجاه، وفى المقاهى تجمع الناس يتابعون أنباء تأميم القناة، لكن الأذن تتلهف على سماع المغنيين، ويتراءى وجهها فى الصباح والمساء، فى النوم واليقظة، وهناك لذة لا تدانيها لذة فى حفر الجرح الغائر إلى الأعماق حتى تترسب الأحزان طبقات،

❋❋❋❋

فتحتُ عينى، فطالعتنى النجمة الوحيدة وسط السماء. رفعت ساعدى وألقيت نظرة على ساعتى. وجدتها السابعة والنصف.

ظللتُ أتأمل النجمة التى انفردت بصفحة السماء. وغفوت على صوت جرجس يقول: إللى يعيش ياما يشوف، وإللى يمشى يشوف أكثر.

استيقظتُ فى الليل، فطالعتنى آلاف النجوم المتناثرة المتباينة الأحجام. رفعت رأسى قليلاً، وتطلعت أمامى مباشرة، فتراقصت فى عينى أضواء السد. وأتتنى ضجة العمل واضحة كما لو كنت أنام فوقه.

غفوتُ، ثم استيقظت مرة أخرى على صوت حاد صادر من ذهنى الذى كان

ينام إلى جوارى. ظللت يقظاً حتى أدركت أن مصباحه المدلى من خصره، يرتطم بسطح القمرة كلما تقلب في الفجر سمعت أحمد يقوم شاكياً من البرد، وينام بجوار فهمى. وبدأت أشعر أنا الآخر بالبرد، فأخرجت من حقيبتى ملاءة التحفت بها جيداً.

امتلأ جسدى برضوض عديدة من أثر الصاج الصلب. وتزايد شعورى بالبرد، فتطلعت الى ساعتى. وجدت أننا نقترب من السادسة، فقررت النهوض.رأيت فهمى وأحمد قد تمددا متقابلين علي جنبيهما تغطيهما بطانية واحدة أحكماها حول جسديهما، وأبعداها عن وجهيهما بمرفقى ساعديهما فوق رأسيهما. التحفت بالملاءة ونزلت الى مرحاض القمرة، فتبولت وشربت، ثم أشعلت سيجارة. ومضيت الى حافة الصندل المواجهة للسد، فجلست فوق صندوق من الحديد.

كان ضوء النهار ينتشر حولى بسرعة، لكن المصابيح الكهربائية كانت ما تزال مشتعلة فوق السد. وظهرت عربة وحيدة مهجورة فى أقصاه عند الحنية التى تفصله عن قناة التحويل.

شعرت بحركة خلفى فى النهر، فالتفت أرى طابوراً من مراكب الصيد الشراعية يقترب فى هدوء عائداً من رحلة كل ليلة. استقرت المراكب الى جوار الصندل، ثم تجمع الصيادون فى إحداها، والتفوا حول موقد كيروسين، انهمك أحدهم فى إشعاله. وأحاطه آخر بحاجز من الصفيح يحجب عنه الهواء. ظلوا يرقبون الموقد فى صمت حتى انتهى إعداد الشاى، فصف أحدهم عدداً من الأكواب الزجاجية أمامه، وصب فيها الشاى. وعندما شربوا تفرقوا من جديد فى مراكبهم دون أن يتبادلوا كلمة واحدة.

انحنى صياد نوبى فى مركب قريب منى على قاعه. وأخرج سمكة فى حجم الكف، مال بها على حافة المركب، وضربها فى الماء عدة مرات. ثم تناول خرقة من القماش، دعك بها السمكة، وقذف بها الى سلة من الليف تحت قدميه. وتناول سمكة أخرى.

راقبته وهو يتنقل بسرعة بين قاع المركب وحافته، ومن سمكة إلى أخرى. وشعر بى، فرفع رأسه إلىّ عندما رآنى فى الملاءة البيضاء التى لم تظهر منها سوى

عويناتى، تجمدت يده فوق السمكة التى كان يدعكها، وتطلع إلىَّ مبهوتاً، ثم عاد إلى عمله.

هبت على نسمة باردة، فغادرت مكانى، ودرت حول الصندل، وجلست فى الناحية الأخرى أسفل القمرة. وأحكمت الملاءة حول جسدى، وأنا أتشمم رائحتها النظيفة. بعث فىَّ ملمس الملاءة ورائحتها شعوراً بالإنتشاء، فتحسست ساقى الساخنة.

❋ ❋ ❋ ❋

الصور مخبأة في كراسات الجبر والهندسة وكتب التاريخ والجغرافيا، يجرى جمعها عاماً بعد عام، وكل يوم يجرى التقليب بينها خلسة، كل واحدة وعد بتلك اللذة الغامضة في صدر امرأة وبين ساقيها، والكلمات ليس لها بعد معنى ملموس وإن كانت تدفع بالدماء إلى العروق، حتى تفجر الينبوع، فأصبح للأسى معنى،

❋ ❋ ❋ ❋

رفعت رأسى فجأة إلى أعلى، فرأيت وجه فهمى يطل علىَّ من فوق سطح القمرة.

قال عندما التقت أعيننا: صباح الخير.

أبعدتُ يدى عن ساقى قائلاً: يسعد صباحك.

كانت الشمس قد بدأت ترسل أشعتها. وتراجع فهمى هابطاً إلى سطح الصندل من الناحية الأخرى ليغتسل. وقمت خلفه، فغسلت أسنانى. انتظرنا حتى انتهى الباقون من الاغتسال، فغادرنا الصندل الى البر، وجلسنا فى مقهى الأمس.

أخرج جرجس من جيب جلبابه عدة قطع من البسكويت الصعيدى وزعها علينا. وجعلنا نغمس البسكويت فى الشاى ونحن نرقب شجاراً عالياً يدور بين ثلاثة من البحارة الصعايدة على ظهر "رمسيس" وصبى نوبى كان منهمكاً فى تنظيف سياجها. أدركت بعد لحظة أن الأمر لا يتعدى مزاحاً من جانب الصعايدة الذين لم يخفوا إعجابهم بوجه الصبى الوسيم، وجسمه المشوق.

أصر جرجس على أن يدفع حساب الشاى، وعدنا إلى الصندل. وما أن استقر كل منا فى مكانه حتى ظهر الريس على الشاطئ متقدماً فى نشاط، وتحت ذراعه لفافة من القماش، وخلفه موكب الأمس.

[3]

كان موكب الريس سرور يضم عدة وجوه جديدة:
ثلاثة من البحارة فى لبدهم المخروطية، والميكانيكى، ومساعده.
وكان الميكانيكى طويل القامة، يرتدى قميصاً وبنطلوناً وينقل قدميه فى بطء. واختفى هو ومساعده الصبى فى قمرة المحرك على الفور.

استقر عم سرور بجسمه الضئيل، وحركاته العصبية فى مقدمة الصندل، يتطلع الى الأفق. وخلفه وقف مساعده عم مهدى. وانتحى البحارة الثلاثة ركناً على الرمال وسط الصندل.

تحركنا أخيراً ودار الصندل تاركاً السد من خلفه. وشرع يقترب من الضفة الشرقية للنهر، فتبدت لنا بضعة بيوت متناثرة فوق مرتفع صخرى بعيد عن الشاطئ. كانت أشبه بخط من الجدران البيضاء تتخلله فتحات سوداء. وعندما أصبحنا فى محاذاتها تكشفت الفتحات عن أقبية مجوفة تعلو أسطح البيوت. ولم يكن هناك أثر لشئ حى.

عاد الصندل يبتعد عن الضفة الشرقية متجهاً الى وسط المجرى. وأحاطت بنا عشرات من الجزر الصغيرة. وتكلم أحمد فجأة قائلاً: إنها بقايا البيوت التى غمرتها المياه.

سألت فهمى عن الأقبية التى تعلو الأسطح، فقال إنها مجرد فراغات للتهوية. خلفنا القرية الغريقة وراءنا، واقتربنا من الشاطئ الشرقى مرة أخرى.

سرنا في محاذاة صفين من المرتفعات الصخرية، تغلفها قشرة ناعمة من الرمال والاتربة. لم يكن هناك أثر لتلك الصخور الشرسة البارزة التى تسود منطقة السد، حيث أزيلت قشرة الجبل.

أشرفنا بعد قليل على قرية ثانية، تتألف من مجموعات من البيوت تعلو بعضها تلك الأقبية المجوفة. كان بعضها الآخر يبدو أقرب إلى رسوم الأطفال.

كانت البيوت متناثرة فوق حافة الماء مباشرة. ولصقها من الخلف كان يمتد الشاطئ الجبلى.تساءل ذهنى: أمال السوق كان فين؟

قال فهمى: سوق؟ ما كنش عندنا البضايع كانت بتلف بيها مراكب.

قلت: ليه. هو ما كنش فيه سكة عربيات؟

قال فهمى: الناس إللى كانت عايشة هنا عمرها ما شافت عربية.

قلت: طب وكانوا عايشين إزاى. فين الزراعة؟

قال: كان فيه. إنما البحر هنا ضيق خالص. ولما علوا الخزان أول مرة غرقت الزراعة والسواقى. ما فضلش إلا حاجة بسيطة.

مر بنا مركب صيد عائد الى أسوان. واستدرت أتابعه ببصرى، فرأيته يختفى خلف حنية فى النهر. ووراء هذه الحنية كانت الضفتان تلتقيان فى خط واحد من الجبال المتجهمة.

أبطأ الصندل سرعته، ومضى يدور فى بطء حول كتلة ضخمة من الصخور برزت وسط المجرى. وبدت لى الصخور فى صورة جماعة من المماليك الذين لجأوا الى النوبة فراراً من مذابح محمد على، وقد تجمعوا لبحث أمر خطير، وأحنوا رؤوسهم التى تغطيها عمائم ضخمة.

انحنى بنا النهر، ليضعنا تحت أقدام قرية تتألف من بيوت عائمة تحيط بها المياه من كل جانب. كانت البيوت كلها تحمل طلاء أصفر اللون، فيما عدا منزلاً واحداً كبيراً ذا سور حجرى، بدا أشبه بالقصر، طلى بلون أبيض تعترضه مثلثات داكنة فوق النوافذ.

سقطت أشعة الشمس فوقنا عمودية. ولم تكن ثمة وسيلة لتفاديها. المكان

الوحيد الذى كان يمكن أن يقينا منها هو الكهف الذى قبع فيه الميكانيكى ومساعده، أو المظلة التى أقامها عم سرور من قطع الخيش فوق مقدمة الصندل. ولم يكن جرجس يعبأ بالشمس التى عجزت عن اختراق عمامته الثقيلة. وكان النوبيان أيضاً بمأمن منها. أما قبعتى من القش فقد فشلت فى حمايتى من الأشعة النارية. ولم يبد على ذهنى أنه يبالى بالشمس رغم أنه كان عارى الرأس حليقها.

تحول السطح المعدنى الذى تكومنا فوقه بمرور الوقت إلى لوح ملتهب، أصبح من العسير الجلوس فوقه، أو السير عليه بغير حذاء.

فى الواحدة والنصف أصبحنا أمام "بيت الوالى". كانت البلدة الصغيرة تمتد على حافة الماء، وقد تناثرت وسطه قمم أشجار النخيل. وحفر الماء لنفسه طريقا داخل البلدة، وحول المعبد الذى استقر بعد نقله على مسافة آمنة من زحف النهر.

لم يكن بوسعى أن أتبين شيئاً من أول معبد أمر رمسيس الثانى بنحته فى الصخر، وسجل على جدرانه تفاصيل حملته على النوبة.

***

-فلم يكد الأمر يستقر للملك فى الداخل حتى سار جنوباً، فأعاد الأمن إلى ربوعه. وكان عهد خلفه معروفاً بالهدوء والسلام إذ عنى بتشييد المبانى والمعابد إلا أنه من الثابت الآن أنه أرسل أيضا إحدى الحملات إلى النوبة، ولو أن هذا لا يغير من حقيقة اهتمامه بالبناء وجلب المحاصيل منها. ودعت ظروف المحافظة على السلام من جاء بعده إلى ارسال حملة بحرية إلى النوبة، عادت بسبعة آلاف أسير، ومائة ألف رأس من الماشية. وعملت مصر وقتها على استرضاء القبائل النوبية، والتعامل معها تجارياً واقتصادياً إلى جانب روابط المصاهرة فضلاً عن استخدام القوات النوبية فى الجيش المصرى. واضطرت الظروف ملوك الأسرة التالية إلى إعادة غزو النوبة، وفتح مناجم الذهب. وأمر الملك بتسجيل حملته على جدران المعابد، فنقش الفنانون موكبه سائراً فوق جثث النوبيين، وقد علق زعماؤهم فى مقدمته.



دوى صوت انفجار قريب، وانقطع ضجيج المحرك. وفوجئنا بالمياه تصعد إلينا فوق سطح القمرة.

قفز جرجس واقفاً وهو يقول: ماسورة التبريد طقت.

راقبتُ المياه التى انتشرت فوق الصاج وهى تجف سريعاً بتأثير سخونته. ثم تبعت الآخرين إلى قاع الصندل الذى توقف عن السير.كان البحارة الثلاثة قد بسطوا صحيفة فوق الرمال، ووضعوا فوقها طعامهم. ولمحت حبات البصل التى انداحت جوانبها كاشفة عن قلوبها. وأتتنى رائحته المثيرة.

وجه أحدهم التحية إلى فهمى، ودعانا إلى مشاركتهم، فشكرناهم. وسألتِ فهمى عنهم، فقال إنهم خفراء فى أبى سنبل.

ارتفع صوت المحرك من جديد. واستأنف الصندل سيره، فعدنا إلى أماكننا، وتولى جرجس إعداد المائدة التى أضاف إليها كل منا شيئاً عدا ذهنى.

قال جرجس ونحن نأكل إنه يخشى أن يطالبه المصرى بنقود.

سألته: أى مصرى؟

قال: الميكانيكى. المصريين دائماً كده.

أشرت إلى حيث كان الثلاثة بمعزل عن ناظرنا وسألته: ودول كمان؟

قال: أبداً، دول فلاحين. الميكانيكى ابن بلد، ولابس أفرنجى.

أزلتُ بضع فتات من الجبن سقطت على قميصى. وأخرج جرجس من سلته براداً صغيراً قديماً، وضعه أمامى فى زهو. وأتبعه بصندوق صغير للشاى، ومنديل احتوى على قليل من السكر، وملعقة، وكوب من الزجاج. حمل الشاى والسكر فى يد، والبراد فى اليد الأخرى، وهبط إلى سطح الصندل قائلاً إنه سيعد الشاى عند الميكانيكى.

كان المجرى دائم الإنحناء. وشعرت أننا نتجه يسرة. وظهرت يمنة قرية صنعت منازلها من الصلصال، ورسمت على جدرانها نقوش بيضاء تمثل ورق اللعب.

عاد جرجس حاملاً براد الشاى، وكوبين آخرين من الزجاج قال أنه أخذهما من الميكانيكى، وأنه دعاه، ليشاركنا شرب الشاى.

أقبل الميكانيكى، فأفسحنا له مكاناً بيننا. واقتعد الأرض متربعاً. وبدا

رجلاً هادئ الطبع، خجولاً بعض الشئ، فى الحلقة الرابعة.

صب جرجس الشاى، وتطوع ذهنى بأن يحمل كوبين إلى كل من الريس ومساعده. سألت الميكانيكى عما إذا كان من القاهرة، فقال إنه من قرية خارجها، وقال إنه يعمل في هذه المنطقة منذ بدأت عمليات إنقاذ الآثار، وشارك فى نقل أغلب المعابد.

استفسرت منه عن العمل فى تقطيع المعبدين، فقال إن الواجهة ما زالت كما هى وإنهم ربما بدأوا فى تقطيعها فى الشهر القادم.

مررنا ببضعة بيوت على الضفة الشرقية، انهارت واجهاتها الأمامية وظهرت الغرف الداخلية الفارغة كأنها عائمة فوق سطح الماء. قال فهمى إنها قرية "كلابشة"، فاعترض الميكانيكى قائلاً إننا تركنا "كلابشة" خلفنا منذ نصف ساعة، أما هذه فهى "دندور". وأضاف: كان هنا معبد ع الشط الغربى. وكان بتوع الآثار مهتمين به، لأنه كان فيه آثار كنيسة وجامع.

أشرفنا على قرية جديدة عندما صب جرجس الدور الثاني. كانت واجهات منازلها خالية من أية نقوش أو زخارف. وقال الميكانيكى مشيراً الى نقطة على الضفة الغربية وسْط أطلال المنازل: دى "جرف حسين". بصوا بعيد هناك. أهو ده إللى فضل من المعبد.

لم أستطع أن أتبين البقايا التى أشار اليها. وقال إن معبد جرف حسين هو الوحيد الذى لم يتمكن الخبراء من نقله أو رفعه، لأنه منحوت فى الصخر الحى ومتآكل. لكنه نقل فى صندله أجزاء كثيرة منه منها ست تماثيل لرمسيس الثانى.

راقبنا البيوت العائمة تتناقص حتى تلاشت. وشعرت فجأة أن طنين المحرك الرتيب لا يحتمل. فسألت الميكانيكى عما إذا كنا سنواصل السفر بالليل.

قال: لا طبعا. السفر بالليل خطر.

قلت: وحنقف فين؟

قال: الريس هو إللى يعرف. يمكن فى داى السبوع.

عدت أسأل: وامتى نوصل وادى السبوع؟

نهض واقفاً وهو يقول: أحسن تسأل الريس سرور. يعطيكم العافية يا رجالة.

تبعت الميكانيكى إلى قاع الصندل بعد أن تصلبت ركبتاى من طول ثنيهما أثناء الجلوس. اقتربت من حيث جلس البحاروة الثلاثة على الرمال، بمنأى عن ضجة المحرك. وكنت عازفاً عن الحديث، فدرت بأكوام الرمال والزلط حتى أصبحت فى الناحية الأخرى. وتهالكت خلفهم على الرمال.

تناولتُ قطعتى زلط فى يدى. كانت مكونات كل قطعة واضحة للرؤية على سطحها الأملس الذى تتدرج ألوانه وتتنوع بين الرملى والرمادى والأسود والأحمر. وما لبثت سخونة الرمال تحتى أن أجبرتنى على النهوض، فوقفت فى اعياء شاعراً بأعين البحاروة الثلاثة على ظهرى.

لمحتُ ذهنى يشير إلىَّ، فاتجهت نحوه. أمسك بساعدى عندما أصبحت بجواره، وتلفت حوله هامساً: الريس سرور عاوز منا فلوس.

قلت: بتاعت إيه؟

قال: أجرة أو أتاوة. لما وديتله الشاى سألنى عنك. وقال إنه خد مرة جنيه من واحد أفندى زيك.

- وقلتله إيه؟

ضحك وقال: إنك فى مهمة سرية. وأنا المساعد بتاعك. وعطيته صورة خطيرة عنك فسكت على طول.

كانت الساعة قد بلغت السادسة، وبدأت أشعة الشمس تفقد جزءاً كبيراً من قوتها، واتسع مجرى النهر فجأة. ولم يعد بإمكانى أن أرى تفاصيل الشاطئين بوضوح، وما لبث المجرى أن ضاق، وظهر أمامنا خط من الصخور الشرسة، أعقبتها قرية طويلة امتلأت بالنخيل.

فى السادسة والنصف، عاد المجرى يتسع اتساعاً هائلاً. وأصبحنا نسير فى شبه بحيرة. راقبت الشمس وهى تختفى خلف سحابة داكنة صانعة زجزاجاً ذهبياً فى طرفها الأول، وضوءاً مكتوماً فى الطرف الآخر. ثم تبدت لحظة من خلال فجوة وسط السحابة، ثم اختفت من جديد فى ثناياها.

بدا الشاطئ الغربى مؤلفاً من مرتفعات صخرية متناثرة، كالكثبان أو الأثداء

المتكررة. أما الشرقى، فلم يبد منه لفترة طويلة غير مرتفع واحد. ثم ظر كثيب عال تلته أرض فضاء جاءت بعدها سلسلة من الهضاب الشبيهة بالشاطئ الغربى.

أوشكت الشمس على الظهور من طرف السحابة الأسفل. وما لبثت ان تجلت قوساً متوهجاً كالبدر. وأخذت السحابة تتحلل أمام وهجها حتى تلاشت، وتبدى قرص الشمس كاملاً.

كان القرص فى البداية أصفر اللون، ثم ما لبث أن اكتسب لوناً برتقالياً وهو يهبط مقترباً من الهضاب الصخرية حتى التقى بها. واستقر القرص فوق قمم الهضاب لحظة كأنما سيتدحرج فوق خطها الممتد يسرة، لكنه واصل الهبوط بسرعة. واختفى نصفه خلف تل من الصخور. ثم حجبه تماماً عن ناظرينا. لكن وجوده كان ملموساً، فقد أحاط التل بهالة من ضوئه.

تجاوزنا التل الذى أعقبته فسحة من الأرض. فتجلى قرص الشمس من جديد. ولكنه جعل يهبط فى بطء خلف الأفق حتى لم تعد تبدو منه سوى حافته. ثم اختفى كلية.

أصبحنا نسير فى بحيرة هائلة الاتساع. ومر بنا عم مهدى ذاهباً إلى المرحاض. سألته عن الساعة التى سيقف فيها الصندل بالليل، فأجاب وهو يلوك شيئا ما فى فمه:

– علم الله.

بصق فى النهر سائلاً أسود، ثم رفع طرف جلبابه واختفى فى المرحاض. وخرج بعد لحظات، فدار حول القمرة، وجلس القرفصاء على حافة الصندل، وشرع يتوضأ.

استعد النوبيان للإقتداء به. بينما بقى جرجس ممداً على سطح القمرة العارى مغطياً عينيه بمرفقه.

قفزت إلى قاع الصندل، ومضيت فاستلقيت فوق الرمال. كانت حرارة النهار قد أوشكت أن تتلاشى. وبعث فىَّ ملمس الرمال الدافئ شعوراً حسياً. وجاءتنى أصوات البحاروة الثلاثة من خلفى فى حديث متقطع عن الزراعة. وفوقى امتدت

صفحة السماء دانية شديدة الصفاء. وبدت ضجة المحرك نائية.

في السابعة والنصف تماماً، بزغت النجمة الوحيدة. خيل إلىَّ أنها كانت تتجه إلى الغرب ثم توقفت. وفكرت بأن أقوم لأسأل أحداً عنها. فلا بد أن الريس يعرفها. ولعلها تكون نجمة الشعرى اليمانية التي كانت تظهر لقدماء المصريين مع حلول الفيضان. أو الدب القطبي الشهير الذي يسترشد به البحارة والتائهون. لكني لم أجد حماسة للقيام. وأحسست أن أية إجابة أحصل عليها لن تغير من الأمر شيئاً.

انفردت النجمة بالسماء طوال نصف ساعة إلى جانب القمر الذي بزغ نصفاً. وفي الثامنة ظهرت مجموعة جديدة من النجوم الصغيرة المتناثرة، لكنها ظلت محتفظة بمسافة واضحة لا تتغير بينها وبين النجمة الكبيرة. واستمر وضع هذه ثابتاً نصف ساعة أخرى. ثم اختفت.

تناولتُ قطعتين متقاربتي الحجم من الزلط. تحسست سطحهما الزجاجي الملمس، وحوافهما المستديرة الناعمة، ثم ضربتهما الواحدة بالأخرى متوقعاً أن ينبثق منهما الشرر. لكن شيئاً من هذا لم يحدث.

❋❋❋

حبات الزلط التي استقرت امام المنزل تلتمع في ضوء القمر، وتلاشت الضجة التي كان يصنعها عمال البناء في المنزل المجاور طول النهار، وأصبح مبنى مدرسة اليهود المقابل كتلة من الظلام الصامت، والشارع يمتد صعوداً إلى مجاهل ينطلق إليها في الصباح المبكر عمال مسرعون ما زال أثر النوم في عيونهم، يحملون طعامهم في مناديل معقودة تحت آباطهم، يهبطون منها في المساء متثاقلي الخطى منهكين، يتبعهم جنود الانجليز نشطين مشمري الأكمام، يسيرون في مجموعات كدأبهم، وتوارى عن الأنظار الكناس الوحيد الذي كان هنا بالنهار، وكان قش مكنسته لا يفتأ ينفصل عن يدها الخشبية، فيقتعد الرصيف، وينهمك في تثبيته بلفائف من الخرق، وقد تدلى ذيل طاقيته الصفراء على ظهره، والأرض لم تعد ترسل لهيباً، لكنها ما تزال دافئة، وما زال يمكن تبين خطوط الطباشير التي صنعت مستطيلات متعاقبة تنتهي بنصف دائرة، الشاطر هو الذي كان ينقل بقدمه قطعة

الطوب من مستطيل إلى آخر دون أن يمس خطوط الطباشير، وأغلب الأولاد انصرفوا ولم يبق إلا اثنين أو ثلاثة من أخلص الخلصاء، استلقوا فوق الزلط والرمل أو لعلهم بلا أهل والأرجح أن قيظ اليوم قد ألان قلوب آبائهم الحجرية، فسمحوا بالبقاء إلى هذا الوقت فى الشارع، ومن النافذة المظلمة المفتوحة التى لا تعلو عن الأرض إلا بضع أقدام، تأتى همهمة بعيدة هادئة هى أصوات الأسرة فى الصالة المضاءة التى يلتمع بلاطها النظيف، ويفصلها باب عن دورة المياه ما زال زجاجه سليماً، فالشرخ حدث بعد ذلك، ولأن النظام كان ما يزال يسود البيت، فلا بد وأن ينطلق فى أية لحظة الصوت الصارم من النافذة آمراً بالعودة، ولن تفلح معه أية توسلات، ولن يكون هناك مفر من الاستجابة والمضى إلى الداخل فى تثاقل، للإغتسال ثم الإلتجاء إلى طيات الفراش الذى يستقر بين النافذة وباب الغرفة، مرتباً منسقاً يعلوه غطاء من الدانتيلا المتشابكة، أثار الإلتفاف به عارياً ذات مرة دغدغة غامضة، وكل ما يمكن عمله الآن هو التوسل إلى الله فى فسحة من الوقت حتى يمكن حك قطع الزلط الواحدة بالأخرى، فربما تولد عنها مرة ثانية الشرز الملون الرائع،

❋❋❋

جاءنى صوت ذهنى يدعونى لتناول العشاء. فمضيت اليهم، وألفيتهم قد تحلقوا فى الظلام حول إناء من الألومنيوم. أفسح لى ذهنى مكاناً بجواره. ودس جرجس فى يدى قطعة من خبزه المتحجر.

خلع ذهنى مصباحه من خصره، وأضاءه مسلطاً شعاعه على الإناء. غمسنا أصابعنا فيه واحداً بعد الآخر. ثم شربنا الشاى وهبطنا الى قاع الصندل، فاغتسلنا وتبولنا. وعندما عدت إلى سطح القمرة، ألفيت جرجس قد بسط بطانيته، فاستلقينا عليها ثلاثتنا بينما انتحى النوبيان جانباً.

أخذ ذهنى يردد مقاطع غير كاملة من أغانى عبد الحليم حافظ. واعتمد جرجس على مرفقه يدخن مجارياً ذهنى فى الغناء بين الحين والآخر دون حماسة.

انتهزت لحظة صمت فيها ذهنى، فطلبت من جرجس أن يحكى لنا عن قريته.

قال: لا. أحكيلكم حكاية.

قلت: يبقى أحسن.

انطلق جرجس يحكي إحدى حكايات الشاطر حسن. وأخذت أتنقل بعيني بين آلاف النقاط البيضاء اللامعة المتناثرة على صفحة السماء. وأتاني طنين المحرك رتيباً مملاً.

حاولتُ أن أتذكر ممن سمعت حكاية الشاطر حسن لأول مرة. لكنى عجزت وقررت في النهاية أنها ربما كانت أمي. كان جرجس يصف الآن كيف وقف الشاطر حسن حائراً أمام الطرق الثلاثة. وكيف أعانته طيبة قلبه وقوة إيمانه على اختيار سكة السلامة. وكيف انتصر بعد ذلك على مكائد الغولة وزوجة أبيه.

هبت نسمة هواء خفيفة، فأغلقت عينى مستسلماً لها. وبدأ النعاس يداعب جفونى، وجرجس يصف كيف فاز الشاطر حسن ببنت السلطان. ولعلي غفوت لحظة تنبهت بعدها على صوت جرجس يأتي نائياً عبر طنين المحرك. أدركت أن الشاطر حسن أصبح هو السلطان، والناس تقيم الأفراح أربعين ليلة وليلة والأنوار تضئ مآذن المساجد. ومشى السلطان الجديد بين الناس، يعاهدهم على أن يحكم بالعدل، ويستشير رؤساءهم في كل أمر. لكن الرؤساء قالوا إن ما تجلى من حكمته وأمانته وإيمانه يجعله في غير حاجة إلى مشورتهم.

غفوت طويلاً فيما يبدو. ولا أعرف إذا كنت تنبهت قليلاً بعد ذلك، أو أنني كنت أحلم، لكن شيئاً مرعباً كان يحدث في قصة الشاطر حسن. فقد نصبت المشانق، وسالت الدماء، ولم يعد أحد يأمن على نفسه.

أردت أن أعرف كيف بدأ هذا كله. وأدركت أني لو بذلت مجهوداً، لفعلت. فقد ذكر جرجس كل شئ في حكايته. لكنى كنت عاجزاً عن التذكر. وبدلاً من ذلك رأيتنى أقف مع سعيد الذى كان يحمل حقيبتي. كنت أعرف أنه يريد أن يفتشها من وراء ظهرى. وجعلت أبحث عن قبعتي في منزل يجرى نقل الأثاث إليه. فهمت أن صديقاً لى يتزوج. وتوافد بقية الأصدقاء وأنا ما زلت أبحث عن قبعتي. ورأيتنى أقف في بهو أمام باب يصدر من خلفه طنين مزعج. كانت بجوارى مائدة صفت عليها عدة

قبعات متشابهة. واحترت في أيها تخصنى.

أفقت على يد تهزنى بالحاح. وسمعت فهمي يقول أننا وصلنا "أبريم".

وقفت على قدمى بصعوبة شاعراً بنفسى كالثمل. كان المحرك ما زال يطن، ورأيت الصندل يشق طريقه بين سفن شراعية كبيرة، وصنادل أخرى. ثم كف المحرك عن الطنين. وظل الصندل يتقدم فى بطء من الشاطئ الذى تجمع عنده عدة رجال يحملون مصابيح من الزيت وتناثرت خلفهم عدة خيام.

رسا الصندل أخيراً إلى الشاطئ. وعلت أصوات التحيات المتبادلة. سمعت أحد الواقفين على الشاطئ يسأل عن أحمد، وعما إذا كان قد أحضر الأمانة معه. تلفت أبحث عنه، فوجدته ما زال ممداً فى مكانه، يتطلع إلى السماء بعينين مفتوحين.

طلب منى ذهنى سيجارة، فأعطيته واحدة وأشعلت لنفسى أخرى. وسمعت جرجس يقول فجأة: دى وادى السبوع مش أبريم.

قال فهمى الذى كان متربعاً بجوارى يتفرج على الشاطئ: أبداً دى أبريم زى ما قلت.

لكن صوته كان خالياً من رنة الإقتناع.

قال جرجس بثقة: اسمع كلامى دى وادى السبوع. أنا أشتغلت هنا لما كانوا بينقلوا المعبد، وعارف الشط ده حتة حتة. أبريم مفيهاش معابد. والمعبد إللى كان هنا كان لازق فى الجبل، وجدامه صفين سبوعة.

لزم فهمى الصمت، فقلت له مهوناً إن القرى النوبية متشابهة، وكذلك المعابد.

قال جرجس: المعبد يظهر كان فى يوم من الأيام كنيسة، لأن الصليب كان فى كل حتة. وكان فيه رسم للأديس بطرس.

هبطت إلى قاع الصندل لأتبول. وسمعت الميكانيكى يقول إنه سيعود بعد عشرة أيام.

أشعلت سيجارة عندما صعدت الى سطح القمرة. وجلست أدخن بين ذهنى وجرجس.

قلت: باين علينا حنبيت هنا.

تطلع إلىّ جرجس فى دهشة وقال: طبعاً.

ألقيت بعقب السيجارة إلى الماء. واستلقيت على البطانية. وسرعان ما رحت فى النوم. استيقظت فى السادسة صباحاً على صوت المحرك. وشعرت بالصندل يستأنف سيره قبل أن أغفو من جديد.

استيقظت مرة أخرى بعد ساعة، وهبطت إلى المرحاض، لكن رائحة المكان وضيقه أصابتنى بامساك، فغسلت أسنانى. وتلفت حولى بحثاً عن مكان أضع فيه نظارتى، لأغسل وجهى. وسمعت صوت جرجس يقول: إديهالى.

أعطيته النظارة، وغسلت وجهى. وعندما تحولت إليه كان منهمكاً فى تنظيفها بمنديل ثم قدمها إلىّ فشكرته.

سألنى اذا كنت أريد أن أشرب شاياً، فقلت: طبعاً. ودى عاوزة كلام.

قال: يبقى أجيب وأبور م الميكانيكى.

ذهبنا معاً إلى قمرة المحرك. ووجدنا صبى الميكانيكى منهمكاً فى تنظيفها. سألته عن الميكانيكى، فقال إنه يشرب الشاى عند الريس سرور. أخذت منه الموقد، فأصر جرجس أن يحمله عنى. وجعلنا نبحث عن مكان فى منجى عن تيارات الهواء. ولم نجد أفضل من الرمال فمهدنا له مكاناً وسطها بحيث أحاطت به من ثلاث جهات. وتولى جرجس إشعاله، بينما أحضرت البراد والشاى والسكر.

سألنى جرجس وهو يضع البراد على النار عما إذا كنت أعرف ذهنى منذ وقت طويل. قلت إنى تعرفت به على الصندل.

قال: أنا مش مستريحله.

قلت: قصدك إيه؟

قال: باين عليه من رجال المباحث السرية.

قلت: يا شيخ.

قال: طب مسافر كده ليه؟ وفين عفشه؟

قلت: أصحابه ضحكوا عليه.

سكت ثم قال بعد لحظة: انت لازم يكون معاك شخص أمين تعتمد عليه.

لم أفهم ما يعنيه فلم أعلق. انتهى الشاى، فحمل جرجس البراد إلى مجلسنا بينما حملت أنا الموقد إلى قمرة الميكانيكى. وعندما عدت، كان مجرى النهر ينحنى إلى اليمين إنحناءة حادة. وظهرت على الشاطئ الغربى بقايا قرية "كورسكو" التى اكتشفت بها لوحات صخرية من نقش إنسان العصر الحجرى.

كانت منازل القرية بيضاء متلاصقة، تعلو كل منها فوهة سوداء مستطيلة الشكل. ظلت الفوهات السوداء تحدق إلينا فى صمت حتى تجاوزنا القرية. وواصل المجرى إتجاهه يميناً.

❋ ❋ ❋

أثاث غرفة الضيوف اختفى، ولم يعد بالمترل كله غير فراش واحد ونملية خشبية، وضعت فى الصالة، تمرح الصراصير فى جنباها، ومن قبل كان هنا بوفيه خشبى، تصف فوق رخامته فى الصيف أطباق البالوظة، تعلوها قطع الثلج لنأكلها عندما تغيب الشمس، ونجلس إلى جوار النافذة، نطل على مدرسة اليهود الساكنة، وحديقة مدرسة الراهبات التى تتوسطها ساحة دائرية للباتيناج، وفى طرف الشارع، يرش بائع الورد المياه فترقد الأتربة على الأرض، وتأتى نسمات الهواء رطبة منعشة، وإذا مر بائع التين الشوكى ناديناه، وكل هذا مضى إلى غير رجعة، فلم يعد فى المترل غير العجوز الذى وقف بملابسه الداخلية منفرج الساقين، وانحنى مادًا يده، ليحكم رباط حزام الفتاق، وتقلص وجهه من ألم الحزام الذى يدور بوسطه وبين فخذيه ضاغطًا على خصيتيه،

❋ ❋ ❋

وصلنا "عمدة" بعد ساعة. وبدا معبدها بعد نقله إلى أعلى وسط الجبال، كوابور طحين صغير. لم يكن هناك أثر لمنزل واحد على هذه الناحية. ويبدو أن القرية كلها كانت تقع على الضفة الغربية. كانت أسطح بعض منازلها على شكل القارب. ورأيت منزلاً اتخذ بابه شكل السهم المصوب الى السماء.

عدتُ أتأمل المعبد الذى كنا نبتعد عنه فى سرعة. وسرعان ما تلاشى خلف كتلة ضخمة من الصخور. كان للكتلة شكل غريب أقرب الى طفل عار من أطفال "ميكل

أنجلو" المتلئين، جلس فوق الجبال كاشفاً عن أجزائه الحميمة. وتمثلت طفلاً كبيراً يلعب، ويبنى بيوتاً، ثم يزيحها بيده فتتهاوى.

اتجهتُ إلى مقدمة الصندل. ومررت بالبحاروة الثلاثة الذين رقدوا على الرمال بملابسهم الكاملة. كان أحدهم نصف مضطجع وقد شبك يديه خلف رأسه بينما تطلع الإثنان الآخران إلى الأفق في صمت.

حييتهم، ثم مضيت إلى حيث احتمى الريس سرور من الشمس تحت قطعة من الخيش نصبت فوق عصى خشبية. ورحب بى العجوز طالباً منى أن أجلس.

جلست على شبه وسادة صنعت من أكياس الخيش وأنا أسأله عن الأحوال. رفع يده الى فمه وقلبها ظهراً لبطن قائلاً: نحمده. البحر وسع بعد السد ببركة ريسنا جمال. الريس ده والله نبى.

سألته عن موعد وصولنا الى "أبى سنبل"، فأجاب: علم الله. إحناْ فى البحر ملك إيديه. فيه ملايكة شايلين البحر على سلاسل، وفى أيديهم كل حاجة.

قدمت إليه سيجارة، فقال إن المسافة من "عمدة" الى "أبى سنبل" لا تزيد عن عشر ساعات.

سألته عن موعد العودة، فابتسم فى براءة وقال: لما نخلص تفريغ.

ذكرت له ما سمعته أمس على لسان الميكانيكى، فأبدى دهشته. وسألنى بعد قليل: إلا قولى. هو الأخ إللى معاك اسمه إيه؟

قلت: ذهنى.

سأل: هو قبطى؟

كدت أقول إنى لا أعرف، ثم تذكرت أن ذهنى قال له إننا نعمل معاً، فأجبت بالنفى.

انضم الينا جرجس حاملاً كوبين من الشاى لى وللريس سرور. وجلسنا ثلاثتنا نرتشف الشاى، وندخن، ونتأمل صخور الشاطئين فى انتظار بقايا القرى.

كانت القرية التالية هى "الدر". وظهر لنا منها فى البداية مجموعة من البيوت ناصعة البياض، ثم مسجد لونت جدرانه، وانتصبت إلى جواره مئذنة بيضاء

كبرج حمام. ثم رأينا بقايا معبد رمسيس الثانى التى تناثرت على الشاطئ بعد تقطيعه. وإلى الداخل قليلاً، استقرت رافعة هوائية فى حضن الجبل. وظهرت كلابتها الحديدية عالية فى الهواء، تتدلى منها قطعة مربعة من الصخور حزمت بالحبال. كانت الكلابة تقترب من مكان مرتفع على سطح الجبل توجهها صيحات نفر قليل من الرجال تجمعوا على الشاطئ.

❋❋❋

لا يعرف على وجه التحديد متى سيطرت على ذهن رمسيس الثانى فكرة الألوهية. وربما كان ذلك فى العام الرابع والثلاثين من حكمه عندما أوشك معبد "أبى سنبل" الكبير على التمام. واتبع رمسيس فى التبشير بعبادته أسلوب تصويره بين الآلهة أولاً كواحد منها، ثم عمد إلى انتحال أشخاص بعضها. ومن مناظره الطريفة كذلك أن يصور بناسوته فى حضرة شخصه الإلهى يتعبد إليه أو يتلقى منه البركات.

ومهما يكن من شئ، فإن معبد "الدر" كان قمة ما وصلت إليه عبادته من التطور والاكتمال. فقد عبد فى هذا المعبد على صورة "رع" نفسه كأنما اتحد معه، فأصبحا إلهاً واحداً، أو أنه يمثله على الأرض. وهو المعبد الذى انفرد بين معابد النوبة بأن اقتصرت القاعة الثانية فيه على منظرين متقابلين للزورق المقدس وللملك الإله دون أن يظهر الإله "رع" ذاته، أى أن زورق رمسيس قد تكرر حيث كان ينبغى أن يصور زورق الإله.

ومن أبرز الصور وأهمها فى هذا المعبد تعبيراً عن ألوهية رمسيس واتحاده في شخص رع، صورة تعبر عن اسمه (أوسر ماعت رع)، مثل فيها الملك من وراء زورق الإله قائماً فوق رأسه قرص الشمس "رع"، وفى يمناه صولجان يعبر عن لفظ "أوسر"، وفى يسراه ريشة تعبر عن لفظ "ماعت". وكان اسم الملك هذا يكتب كثيراً بهذا الشكل حيث يصور الصولجان والريشة فى يدى "رع" فى هيئة إنسان له رأس الصقر المتوج بقرص الشمس. وبذلك حل شخص رمسيس محل "رع" الذى يكون الجزء الثالث من اسم الملك.

وفضلاً عن ذلك، ورد فى نصوص العبد أن الإله "رع حراختى" إنما يعبد ضيفاً فيه. بمعنى أن المعبد إنما قصد به عبادة شخص رمسيس مع تسميته باسم بيت "رع".

كذلك صور رمسيس وهو فى الطريق إلى أبيه "رع".

وبذلك فقد كان "رع" هو الأب، ورمسيس هو الابن وهما إله واحد.

***

كان مجرى النهر يتسع بصفة مستمرة. وكانت انحناءاته المتكررة توحى إلينا دائما بأننا نجتاز بحيرةمغلقة. فإذا ماتطلعنا إلى الأمام أو الخلف، بدت الجبال الممتدة على الشاطئين، كأنما تلتقى فى خط واحد.

قال لى جرجس فجأة، ونحن نتمشى على ظهر الصندل: ايه رأيك تاخذنى معاك مصر؟

قلت: تعال.

قال: كلام جد؟

قلت: جد. إنما حتسيب شغلك إزاى فى أبو سنبل؟

هز كتفيه فى غير مبالاة: أنا باشتغل غفير بتلاتاشر جنيه. دول يكفوا بايه. أنا عندى أربع عيال.

قلت: وفاكر الحال فى مصر حيكون أحسن؟

قال: على الأقل أكون معاك. أمشى مطرح متروح.

أردت أن أضحك لكنى لم أفعل. تذكرت ماكنت أتجاهله دائماً، وهو أن أول شئ سيتعين على عمله عند عودتى إلى القاهرة هو البحث عن عمل. لكن كيف أقول ذلك لجرجس؟

قلت: بس لازم تعرف إنى لى طريقة يمكن ما تريحش.. يعنى زى ما تقول كده رزقى من يوم ليوم. مبشتغلش ثابت فى أى حتة. أزهق بسرعة.

قال بحماسة: أنا كمان أحب يكون رزقى من يوم ليوم.

قلت: انت عندك أولاد مسؤول عنهم، وأنا مش مسؤول عن حد.

قال: يا سيدى لهم ربهم. انت محتاج لحد أمين زى ما قلتلك الصبح يشوف راحتك. يوضبلك حاجتك. يكون يعنى مساعد لك.

قلت: طب وعاز تيجى معايا إمتى؟

قال على الفور: أنزل معاك وانت مروح مصر.

قلت: لا أنا أقولك. ادينى مهلة أتدبر فيها. أنزل أنا الأول أشوف الجو، وبعدين أبعتلك.

تطلع إلىّ فى استياء طفل صغير.

مضيتُ قائلاً: عشان تيجى على رواقة. أكون شفتلك شغلانة كده ولا كده تشيلك شوية فى الأول، لغاية منشوف نعمل إيه بعد كده.

تفحصنى بعينيه، كأنما يسبر غورى. ثم لانت ملامح وجهه، وأخرج مفكرة صغيرة بالية من جيبه، وفتح إحدى صفحاتها، مقدماً إياها لى: أكتب لى اسمك وعنوانك.

استندت إلى حافة الصندل، وكتبت له اسمى وعنوان أحد أصدقائى.

قال: أنا اسمى جرجس مدبولى. والعنوان أبو سنبل وبس.

قلت: حاجة سهلة.

قال: لازم تكتبه.

أخرجتُ مفكرة، وسجلت اسمه وعنوانه. تحولت أستأنف المشى، فأمسك بذراعى، ورأيته يضع يده الأخرى فى صدر جلبابه، ويخرج شيئاً أطبق راحته عليه.

تطلعتُ إلى يده المقبضة. وبسط هو أصابعه، فطالعتنى صورة ملونة فى حجم راحة اليد. لم أتمكن من تبين تفاصيل الصورة، لأنه أغلق يده بسرعة، وأعاد الصورة إلى مكانها فى صدره قائلاً: إذا نسيتنى افتكر الحاجة.

وأدركتُ أن الصورة للعذراء.

لحظت أننا نمر بقرية جديدة. ورأيت على الشاطئ الغربى بضعة بيوت ملونة الواجهة. سألت جرجس عن القرية، فقال إنها ربما كانت "توماس".

عدنا إلى مكاننا فوق القمرة. وألفينا ذهنى منهمكاً فى إعداد طعام الغداء. تمددت على السطح الساخن. وبدا لى صوت المحرك أعلى من ذى قبل.

انتهى ذهنى من إعداد الطعام. واستقر الإناء بيننا. وكنا فى هذه اللحظة نقترب من قرية "ابريم".

❋❋❋

أسفل الصخر على الشاطئ، نحتت خمسة هياكل فرعونية منها واحد لرمسيس الثانى. أما القلعة القائمة إلى الآن، فتعود الى العصر الرومانى. وقد أقام بها النوبيون حامية حتى أجلاهم عنها القائد الرومانى "بترونيوس" بعد أن هزمهم فى الدكة.

وفى القرن السادس، أقام الأتراك فى "أبريم" حامية من الجنود، وبنوا المدينة التى نجد الآن بقاياها حتى أجلاهم عنها فى أوائل القرن التاسع عشر المماليك الذين جاءوا إلى هذه المنطقة فراراً من إرهاب محمد على.

وفى جنوب المدينة تقع الكنيسة التى لا تزال رغم تحويلها إلى مسجد على يد المماليك، تحتفظ بكثير من عناصرها المعمارية. وبداخل الكنيسة يوجد سرداب يؤدى إلى كنيسة أخرى. ويبدو أن الكنيسة الأولى، تعود إلى عهد المسيحيين الأوائل عندما كانوا يتعرضون للإضطهاد، وقد بنوا الكنيسة الداخلية، لتكون بمثابة مخبأ. ومما يؤيد ذلك أن "أبريم" تضم آثار مدينة كاملة من المعهد المسيحى، مؤلفة من أبراج وشوارع مقببة بها منافذ للضوء.

❋❋❋

فى الساعة الخامسة، أبطأ الصندل من سرعته، واقترب من الشاطئ الشرقي. نهضت واقفاً فوق سطح القمرة، فرأيتنا نزحف الى جوار مجموعة من قمم النخيل، برزت فوق سطح الماء.

كان ثمة جرس في الصندل يدق محذراً. وتحول الصندل يمنة، ثم يسرة شاقاً طريقة فى حذر وبطء بين قمم النخيل. وعلى الناحيتين، وقف عم سرور الميكانيكي ومساعداهما حاملين المناشير. يهوون بها على جريد النخيل يفصلونه عن جذوعه، ثم يلقون به وبما يحمل من بلح في قاع الصندل.

هبطتُ من مكانى، واقتربت منهم. وقال لى الريس سرور: بلح ضانى.

أحسن م الأبريمى.

كان هناك كوم من البلح الداكن فى لون البن المحروق عند قدميه، تناولت واحدة فإذا بها ناضجة تماماً. وانفصلت قشرتها بين أصابعى بسهولة.

لمحتُ ذهنى يخلع ملابسه حتى صار فى لباسه الداخلى، ثم قفز الى الماء. وصاح به سرور محذراً أن يقترب من ريش السكان وإلا مزقه ارباً.

غطس ذهنى بين النخيل، واختفى لحظة عن الأنظار، ثم ظهر حاملاً حفن من البلح الأحمر. كرر هذه العملية عدة مرات. ثم صعد الى الصندل بعد أن استحم.

شرع الصندل يتحرك مبتعداً عن أشجار النخيل. وتعلقت جريدتان من جريد النخيل بحافة الصندل، ثم مالتا عليها. وازداد ميلهما مع حركة الصندل كما لو كانتا تتشبثان به. جذبهما الصندل معه، فامتدت كل منهما إلى أقصاها وتوترت. وظهرت عليهما ثلاث درجات من اللون تبدأ بالأخضر الذى ما يلبث أن تشوبه صفرة جافة، تتحول الى لون الطين أسفل ذلك.

انتظرتُ أن تنفصل الجريدتان عن النخلة، وتسقطان فى قاع الصندل. لكن الذى حدث كان هو العكس، فقد تخلص منها الصندل، وسقطتا فى الماء.

جلسنا فوق القمرة نأكل البلح الأحمر الذى غسله جرجس. كان فهمى قد أحضر بعضاً من البلح الأسود الذى جمعه سرور ومساعده. وأقبل عليه قائلاً إنه أحسن أنواع البلح. ورفض أحمد أن يمس شيئاً منه.

قال ذهنى وهو يقذف بنوى البلح الى الماء: تعرفوا وأنا بجيب البلح اتهيألى أنى حاقع من فوق النخلة.

ضحكنا أنا وجرجس. ولم يبد على أحمد أنه سمع شيئاً. أما فهمى فقد ظهرت على شفتيه بداية ابتسامة مؤدبة.

اقتربنا من مجموعة أخرى من أشجار النخيل. وتكررت حملة البلح، سوى أن ذهنى لم ينزل الماء هذه المرة. وبقى إلى جوارى على حافة الصندل.

استأنف الصندل مسيرته. ومررنا "بتوشكة" التى دارت فيها المعركة الفاصلة بين ثوار السودان، والجيش الانجليزى عام 1889.

❋❋❋

وصدر الأمر إلى النوبيين أن يخلوا قراهم وقتلعت أشجار نخيلهم من جذورها. فثوار السودان عرضوا افتداء عرابى وهم يقتربون ليحرروا مصر كلها. ومن القاهرة وصل الجيش بقيادة جنرال إنجليزى يرتدى الطربوش ويحمل لقب الباشا. ودارت الموقعة على الشاطىء الغربى. فحاقت الهزيمة بالثوار وفقدوا قائدهم. فشلت المحاولة البكر وسقط النهر كله فى العبودية.

❋❋❋

أعطيتُ ذهنى سيجارة، وأشعلت واحدة. وتابعت الشمس تغرب حتى اختفت وبزغ القمر فى الشرق. بحثت عن النجمة الوحيدة دون جدوى، ثم رأيتها فجأة أمامى واهنة صغيرة.

شرع المجرى يضيق. ومررنا ببقايا قرية كانت تضم فيما يبدو بيوتاً كثيرة ومدرسة.

تحول إلىّ ذهنى فجأة، وسألنى عما إذا كنت دخلت السجن.

فوجئت بالسؤال وأجبت بالإيجاب.

قال: أنا برضه حزرت. امتى؟

ذكرت له التاريخ.

قال: أنا كمان كنت معتقل.

قلت: وبتشتغل برضه موظف فى شركة؟

قال فى خجل: إنت صدقت؟ أبداً. من يوم ما خرجت من المعتقل، وأنا بدور على شغل من غير فايدة.

– وقبل المعتقل؟

– اشتغلت سواق. واشتغلت كاتب عند تاجر جملة. اضطريت أسيب المدرسة لما أبويا مات، وعشان أصرف على أمى وخواتى.

– وكنت عايش فين؟ فى القاهرة؟

– أيوه. فى العباسية.

– فين في العباسية؟

– قريب من ميدان عبده باشا. جنب مدرسة ابتدائي قديمة.

❋❋❋

الرصيف المرصع بالحصى الملون، والسور المؤلف من ألواح عالية من الصفيح طليت باللون الأسود، وبائع البطاطا المشوية عند الباب الخلفى، وحنفى الذى نبت شاربه وأودع يده فى جيب بنطلونه، وعبد السلام أفندى رابضاً خلف مكتبه المرتفع يقرض القشور الجلدية التى تكونت فوق يديه السمينتين وغطتها آثار الطباشير، ويشير بعصاته الى الإلتواءات والجنادل على خارطة النيل، وعندما نتعثر أو نتخلف عن إحضار كوبونات الكيروسين، ينهال على أيدينا التى نبسطها أمامه ظهراً لبطن.

❋❋❋

سألته: صحيح ناوى تعدى الحدود؟

أجاب: طبعاً.

قلت: ليه؟

قال: ليه؟ بقى مانتش فاهم إنى هربان.

– من إيه؟

– فيه أمر باعتقالى.

– عملت أيه؟

– ولا حاجة. كنت أقدر عمل ايه يعنى إذا كان الكل بياخدو أرباح ومبسوطين، وبيقولوا آمين وأنا مش لاقى شغل.

– يمكن اتكلمت.

لاح نور مرتعش في الأفق. وسمعت جرجس يصيح: والله وصلنا يا رجاله.

قال ذهنى بهدوء: ما تيجى معايا.

قلت: السودان؟

قال: السودان دى مرحلة. المهم نعدى الحدود.

قلت: نسافر إزاى من غير لا فلوس ولا حاجة خالص.

قال: بسيطة. نتصرف. نتضيف ع الناس لغاية الخرطوم. الناس هنا لسه كرما. حاعمل شنظ صفيح، نقدر نعبئ فيها الميه ونبيعها. لغاية الخرطوم مش محتاجين مليم واحد. وبعد كده نقدر نروح أى حتة. الكنغو مثلاً.

قلت: ونعمل ايه فى الكنغو؟

– نحارب.

تطلعت إليه لحظة، ثم هززت رأسي: لا يا عم. أنا حاربت كفاية.

– وعاوز تستريح؟

– استنى للسنة الجاية. يمكن آجى معك.

قال: ما هو دلوقت يا بلاش.

قلت: مقدرش. فيه شوية حاجات عاوز أفكر فيها على مهلى، وشوية حاجات عاوز أشوفها. ثم ما تنساش النسوان. أنا عشت كتير من غير نسوان ومقدرش أفضل كده على طول.

قال: تعال معايا وفكر زى ما أنت عاوز فى السكة. أما النسوان، فحتقابلنا فى كل حتة.

وضعت يدى على ذراعه: اسمع. انت حتعمل ايه دلوقت؟

قال: مش عارف. تقدر تاخذنى معاك فى الاستراحة؟ عاوز أبات الليلة، والصبح أشوف سكة الحدود، وبعدين أقوم بالليل.

قلت: ما ظنش أقدر آخذك معايا. أنا نفسى مش ضامن ياخدونى.

قال: ايه رأيك فى جرجس؟

قلت: ماله. كويس.

قال: أنا قلبى مش مستريحله. أصله نضيف قوى. وعنده قميص وبنطلون.

قلت: ما تبقاش عبيط.

قال: بافكر أبات عنده فى الخيمة إللى بينام فيها.

قلت: فكرة كويسة. وبعدين بكره أشوفك بالليل عند جرجس، ونبقى نكمل

كلامنا. تعال دلوقت أعطيك الجبنة إللى معايا وشوية شاى وسكر.

أعطيتُ ذهنى كل ما تبقىَ لدى من الطعام وأنا أشعر بنظرات جرجس غير راضية. وجلسنا ندخن ونحن نتأمل أنوار الشاطئ تزداد وضوحاً.

توقفت ضجة المحرك أخيراً، فشعرت بالصداع. واقترب الصندل فى بطء من الشاطئ، فقمت متثاقلاً لأحمل حقيبتى. لكن جرجس أصر أن يحملها بنفسه إلى حافة الصندل وقال إنه لابد أن يرانى فى الغد،فوعدته بأن أمر على خيمته فى المساء.

وقفنا ننتظر حتى انتهت عملية الارساء. وامتدت عارضة إلى الشاطئ الرملى الذى تجمع عنده نفر من الرجال.

أشار جرجس إلى فجوة هائلة فى الجبل على مبعدة قرابة مائة خطوة بها أنوار قوية. وقال: المعبد هناك.

انتقلنا إلى الشاطئ ومشينا بضع خطوات فى شبه ظلام. بلغنا بداية طريق يتجه يمنة. وتوقفنا تحت أسفل مصباح كهربائى يعلو عموداً خشبياً.

وضع جرجس حقيبته وسلته على الأرض قائلاً إنه سيذهب لإحضار سيارة. وانطلق ذهنى برفقته، فوضعت حقيبتى على الأرض وجلست فوقها.

سمعت خلفى وقع أقدام، ورأيت البحاروة الثلاثة يجدون السير، حاملين أقفاصهم وسلالهم. مروا من أمامى، فحيونى ثم انطلقوا صعداً فى الطريق المؤدى.الى الداخل. وتذكرت أنى لم ألمح كلاً من فهمى وأحمد منذ رسا الصندل.

تابعت البحاروة الثلاثة حتى اختفوا عن ناظرى خلف منحنى فى نهاية الطريق. وأوشكت أن أتحول ببصرى عندما ظهر عند المنحنى شخصان آخران يسيران على مهل. وعندما اقتربا منى بعض الشئ، تبينت فى أحدهما ضابط بوليس شاب. وكان الثانى فى الملابس المدنية.

كانا يسيران على الجانب الآخر من الطريق، وقد انهمكا فى الحديث. وعندما صارا أمامى، ألقى ضابط الشرطة بنظره نحوى. ثم توقف عن السير وانقطع حبل الحديث بينهما. وما لبث أن استدار ومن خلفه رفيقه. وانطلقنا متمهلين فى الطريق الذى جاءا منه. واتصل حبل الحديث بينهما مرة أخرى.

أشعلتُ سيجارة، أخذت منها نفسين. وكان طعم الدخان مراً، فألقيت بها جانباً.

أقبلت بعد لحظات شاحنة مسرعة من الطريق المنحدر. ولمحت ذهنى معتلياً ظهرها، فوقفت حاملاً حقيبتى. وعندما توقفت الشاحنة أمامى، رأيت جرجس الى جوار السائق. وأشار لى أن أصعد بجواره.

درتُ حول الشاحنة، وصعدت الى جوار جرجس. انطلقت بضع خطوات ثم دارت عائدة من حيث جاءت. وصعدت الطريق في بطء وجهد. وما لبث الطريق أن استقام، فانطلقت مسرعة.

كان الظلام يغطي هذا الجزء من الطريق. ولم أستطع أن أتبين شيئاً من حولى سوى هياكل الجبال التى امتدت على مرمى البصر. وظهرت بضعة أنوار خافتة على مبعدة.

أخذ الطريق فى الصعود مرة أخرى. وأقبلنا على شبه هضبة، استقر فى طرفها مبنى مضاء أشبه بشاليه خشبي. وقال جرجس إننا وصلنا.

توقفتُ السيارة بالقرب من الشاليه. ورأيت شخصاً فى قميص وبنطلون واقفاً فى مدخله الذى يعلو عن الأرض بضع درجات. حملت حقيبتى وغادرت الشاحنة وأنا أقول لجرجس: حافوت عليك بكرة بالليل.

ابتعدتُ عن الشاحنة، وانتظرت حتى استأنفت سيرها وانطلقت بسرعة مثيرة عاصفة من الغبار. ولوحت بيدى لذهنى الذى انفرد بظهرها ووقف منفرج الساقين وقد مال بجسمه إلى الأمام، واعتمد بساعديه على ظهر قمرة السائق.

تابعته ببصرى حتى اختفى.

***

[2]

رَحب بي الشاب الذى كان يقف أمام باب الاستراحة عندما قلت له إنى صحفى. وقادنى إلى صالة صغيرة بها أريكة ومائدة أحاطت بها مقاعد بعد أن عرفنى بأنه مهندس بناء ويدعى رفعت. جلست على مقعد واضعاً حقيبتى على الأرض، بينما بقى هو واقفاً.

شعرتُ أنه حائر لا يدرى ماذا يفعل بى. وأدركت أنه على الأقل لن يسألنى عما يثبت مهنتى.

قلتُ إنى كنت مضطراً للسفر بسرعة، ولم يكن لدى وقت لإخطارهم بقدومى. لكن موظفى الشركة فى أسوان أكدوا لى أن هناك مكاناً يمكننى الأقامة فيه يوماً أو يومين.

أسرع رفعت يقول وهو يستقر أمامى على الأريكة: طبعاً. طبعاً. على الرّحب والسعة.

سألته إن كان يعرف مهندس آثار يدعي خليل فقال: أجل أعرفه.

ولحظت أنه وجم بعض الشئ.

أسرعت أقول: أنا شخصياً لا أعرفه، لكنى أحمل له خطاباً من صديق له.

لم يعقب بشئ، وتحول إلى شاب بدين ولج الصالة، فقدمنا الى بعض. ودب النشاط فى الشاب البدين الذى يدعى حلمى عندما علم بأنى صحفى، وقال وهو يجلس بجوار رفعت: أنا لدى شكوى من الصحافة.

قلت: ما هى؟

قال: أنتم لا تحترمون الإنسان الذى يعمل فى شرف وصمت.

أراد رفعت أن يخفف من وقع كلماته، فقال: بعض الصحفيين وليس كلهم.

قلت: ممكن.

قال حلمى: هل قرأت سيادتك الموضوع الذى نشرته المجلة المصورة عن أبى سنبل؟

قلت: لا أذكر. أظن قرأته.

هز أصبعه فى وجهى: هل هذه هى أبو سنبل؟

سألت: ماذا كان فى المقال؟

قال رفعت: صحفى مخنث أمضى هنا بضعة أيام وأكرمناه للآخر. وظلّ طوال الوقت يطارد بنتاً ألمانية، ويصورها بالبكينى على الجبل وفى البحر. وعندما عاد كتب أن المهندسين المصريين هنا لا شاغل لهم غير هذه البنت.

قلت: ولم يكتب عن أحد منكم، أو عن الدور البطولى الذى تقومون به فى صيانة تاريخنا؟

قال: ولا كلمة.

قلت: ليس له حق. لكن ليس معنى هذا أن كل الصحفيين على شاكلته.

تراجع حلمى قائلاً: طبعاً لا. إنما حادثة كهذه تجعلنا نفقد ثقتنا فى الصحافة كلها.

كنتُ منهكاً أشعر برائحتى لا تطاق، وأتوق الى حمام وفراش آدمى.

قلت: لقد جئت لأعطى الصورة الحقيقية عن العاملين فى هذا المكان النائى.

لم يعقب أحدهما، فسألت: بالمناسبة. أى مرحلة بلغها العمل فى المعبد؟

قال رفعت: المعبدان انتهى فصلهما من الجبل تقريباً. وبدأوا يقطعون

أجزاء منهما.

سألت: هل قطعوا الواجهة؟

أجاب: لا. ما زالت كما هى. لقد بدأوا يقطعون من الخلف.

قلت: لقد أردت أن أرى الواجهة قبل قطعها.

قال: ستراها غداً.

سألت: ومتى سينتهى نقل المعبدين؟

قال: بعد ست سنوات.

أبديت دهشتى فقال: العمل هنا لا يقل أهمية عن السد العالى نفسه. بل إننا أقمنا سداً كاملاً أمام المعبدين، ليحميهما من ارتفاع المياه. وكل العمليات الموجودة فى السد موجودة عندنا. حفر وتفجير ونقل وردم وحقن.

قلت: وتنويان البقاء طول هذه المدة؟

بدا على رفعت التفكير، بينما قال حلمى: الواجب يحتم علينا البقاء رغم الغربة. ورغم أننا لا نستفيد مادياً.

ألقيت نظرة على ساعتى، فوجدتها بلغت العاشرة.

قلت إننى متشوق لحديثهما لكنى متعب، وأريد أن أحلق ذقنى واستحم. قام رفعت على الفور معتذراً بأنه لم يلتفت إلى ذلك. حملت حقيبتى وتبعته إلى ممر صغير به عدة أبواب مغلقة على الجانبين. وفتح أول باب وأضاء النور، فرأيت أمامى حجرة ذات فراشين جديدين، يفصل بينهما جهاز تكييف.

قال: هذه غرفة الضيوف. أما أنا وحلمى، فننام فى آخر المر وبجوارنا مباشرة الحمام.

أخرجتُ أدوات الحلاقة، وملابس داخلية نظيفة، وأسرعت الى الحمام. وجدت صعوبة فى استخدام الصابون لما تجمد على جسدى من عرق. وعندما عدت الى الحجرة شعرت بأنى جائع. وفكرت بأنه بما أنى قادم لإعطاء الصورة الحقيقية عن العاملين هنا فلا شك أنى أستحق عشاء على الأقل.

ارتديتُ بيجامتى وخرجت الى الردهة، فألفيتها خالية. لمحت رفعت فى

المطبخ المتفرع منها. ابتدرنى قائلاً إنه يعد لى عشاء ثم أضاف: العشاء بسيط لأننا لم نكن مستعدين.

جلستُ إلى المائدة فى الصالة. وأتيت على الطعام الذى تألف من الجبن الرومى ومحشى ورق العنب. وعندما أويت الى حجرتى، ألفيت رفعت قد ترك لى علبة فواكه محفوظة وطبقاً وشوكة.

كانت العلبة مثلجة فأكلت محتوياتها بعد أن أدرت جهاز التكييف. ثم أشعلت سيجارة، واطجعت على الفراش مستنداً برأسى إلى الحائط المجاور له. دخنت حتى انتهت السيجارة، فأغلقت النور، واندسست بين طيات الفراش.

كانت الأغطية ناعمة، والمرتبة وثيرة. تمرغت بينهما عدة مرات، وأنا استنشق هواء الغرفة البارد ثم غفوت.

حملتُ أنى مع أبى الذى أعرف أنه مات. كان يتطلع الى صورة تمثله شاباً ممتلئاً فى ملابس عسكرية، تتألف من سروال أبيض منتفخ الجانبين وسترة صفراء. وكان يحمل بندقية الى كتفه. ووقف الى جواره ضابط انجليزى. فهمت أن الصورة التقطت فى السودان. ويحكى أبى شيئاً عن الصورة، ولكنى متأكد بشكل ما أنه لا يقول الحقيقة. إنه يتحدث عن كيتشنر. لكنى لا اريد أن أوجه إليه أى سؤال، فما جدوى أن أخدش ذكرى هى كل ما يحمل معه. لكنى أفهم الآن حقيقة هذه الأشياء التى تروى. تبدت لى الصورة مثبتة فى مصراع دولاب كبير من المعدن، يتألف من ثلاثة مصاريع. وكانت هناك رسوم عدة محفورة على المصراعين الآخرين صنعها الضباط المصريون والانجليز الذين عملوا فى السودان. ثم يظهر الدولاب محمولاً على عربة كارو، وأفكر بأنه لا بد وأن أحصل على أحد المصاريع الثلاثة وبالذات الذى يحمل صورة أبى، فأنا أحق به من عمتى التى أخذتها جميعاً.

استيقظتُ فى السابعة صباحاً. وألفيت حلمى جالساً إلى المائدة فى انتظار الإفطار. جلست إلى جواره، وانضم إلينا رفعت بعد قليل.

سألنى رفعت عما أريد أن أفعله اليوم. قلت إنى أريد أن أرى المعبدين، ولهذا يجب أن أعثر على خليل.

قال: لا بد أن تقابل رئيسنا أولاً. تعال معنا الى المكاتب. وهناك ستلتقى بخليل لأنه يمر علينا صباح كل يوم.

أفطرنا، وشربنا الشاى، ثم رافقتهما إلى مكتبهما. كان فى شاليه خشبى مماثل للإستراحة. وخلفه كانت تمتد مساحة شاسعة من الأرض الصخرية، وفى نهايتها المساكن المخصصة للأجانب. رأيت مجموعة من الخيام على مسافة خلف الاستراحة، قدرت أنها تلك المخصصة للعمال.

أخذنى رفعت الى غرفة واسعة بها عدة مكاتب، جلس إلى أكبرها شخص أصلع يضع على عينيه نظارة طبية ذات عدستين سوداوين. وقدمنى إليه على أنه رئيسهم. فمد هذا يده إلى وهو جالس دون أن ينطق بشئ.

استأذن رفعت في الانصراف فجلست فوق مقعد بجوار مكتب الرئيس. وانتظرت أن يتحدث إلىَّ، لكنه انهمك فى قراءة إحدى الأوراق. ولم يرفع عينيه عنها إلا مرة واحدة رد فيها على سؤال لأحد الموظفين بوقار شديد وحسم.

مرت بضع دقائق. وما لبث الرئيس أن مد يده، ودق جرساً مثبتاً إلى الحائط القريب. وطلب الفراش أن يحضر لى قهوة. جاءت القهوة، فارتشفتها فى صمت وأنا أتطلع إليه منتظراً فرصة للحديث. ورأيته يبسط جدولاً كبيراً من الورق المقوى يحمل فى أعلاه ما يشير إلى أنه تقرير يومى عن العمل فقلت: لم أكن أتصور أن لديكم تقريراً يومياً عن العمل مثل السد تماماً.

ابتسم الرئيس فى شئ من الزهو، وتشاغل بقراءة بيانات الجدول.

قلت بعد لحظة إن رفعت وفهمى حدثانى بالأمس عن الأثر السئ الذى تركه موضوع المجلة المصورة.

فقال على الفور: كلنا غضبنا من الصورة التى قدمتها المجلة عن المهندسين المصريين.

ثم أضاف: تعرف أن رختا عندما ذهبت الى القاهرة رفضت أن تقابله؟

سألت: من هى رختا؟

قال: الألمانية التى نشر صورها.

ولج الغرفة شاب هادئ على شئ من الوسامة. تطلع حوله ثم اتجه إلىّ، وقال إنه سمع من رفعت أنى أبحث عنه.

أعطيته الخطاب، فجلس على المقعد المقابل بعد أن وجه التحية للرئيس.

قرأ الخطاب على مهل، ثم وضعه فى جيبه، ونهض واقفاً وهو يقول: هيا بنا.

نهضتُ بسرعة، وودعت الرئيس الأصلع ثم أنطلقت خلف خليل.

قال عندما أصبحنا فى الطريق: طبعاً تريد أن ترى المعبدين الآن؟

قلت: طبعاً.

انطلقنا فى الطريق الذى صعدته بالشاحنة أمس. وقال خليل: لن يفوتك الكثير من المعبد الكبير. فنحن لم نمس الواجهة بعد. كل ما فعلناه أننا فصلنا المعبد تماماً عن الجبل الذى شيد فيه. وبدأنا نقطع أجزاء من سطحه.

وقفنا نتطلع حولنا بحثاً عن سيارة. وسألنى: قل لى. ماذا تعرف عن رمسيس الثانى؟

قلت: ليس كثيراً. ما زلت أذكر من أيام المدرسة أنه خاض معركة كبيرة فى آسيا وانتصر فيها على الحثيين.

قال: بالعكس، لقد هزموه شر هزيمة، لكنه زعم عند عودته أنه انتصر عليهم.

قلت: أذكر أيضاً أنه عاش كثيراً.

قال: 92عاماً.

قلت: وكان زير نساء.

قال: 23زوجة و178من الأولاد والبنات.

قلت: وإنه بنى أبى سنبل، وسلسلة كبيرة من المعابد على طول النيل.

قال: واغتصب كثيراً من المعابد التى بناها أسلافه. بل أزال اسم أبيه من أحد المعابد ووضع اسمه مكانه.

سألت: أوديب؟

أجاب: ربما. أزال أيضاً كل أثر لشقيقه الأكبر عندما تولى، ونقش فى أبيدوس أنه أكبر أبناء أبيه.

قلت: إنه إذن فرعون الأكاذيب.

أوقفنا سيارة جيب، حملتنا إلى الشاطئ. ومضينا على أقدامنا بين رمال السد الصغير الذى أقيم لحماية العمل من مياه السد العالى. أشرفنا بعد خطوات على الجانب الأيمن للجبل الذى حفر فيه المعبد. وتبدت الفجوة الضخمة التى لمحتها بالأمس، وقد تناثر فى انحاء متفرقة منها عدد من الرجال والروافع وحفارتان.

أصبحنا أخيراً أمام المعبد. ومشينا قرابة العشرين متراً بين الرمال أسفل سيقان تمثالين ضخمين ثم توقفنا أمام الرحبة المؤدية الى مدخل المعبد. ورفعت رأسى إلى أعلى.

كان هناك مستطيل محفور فى جدار الواجهة على ارتفاع أكثر من ثلاثين متراً فوقى مباشرة. واستقر فى المستطيل تمثال بالحجم العادى لإنسان له وجه صقر وعلى رأسه قرص الشمس الشهير.

أوضح لى خليل ان التمثال للاله "رع حور أختى" رب المشرق الذى شيد المعبد له فى الأصل، قبل أن تسيطر فكرة الألوهية على رمسيس.

حولتُ بصرى إلى التمثالين الهائلين اللذين استقرا على يمينى. كان ارتفاع الواحد منهما لا يقل عن عشرين متراً. وتناثرت بين أقدامهما مجموعة من التماثيل الصغيرة أقربها لامرأة مستديرة الوجه، غليظة الشفتين فى ثوب شفاف. وكان هناك تناسق واضح فى الصورة التى استقرت بها أطراف شعرها فوق قمة ثدييها.

قال لى خليل إن المرأة هى "نفرتارى" أقرب زوجات رمسيس إليه والتى بنى لها المعبد الصغير. أما بقية التماثيل المتناثرة بين الأقدام فكانت لأمه وأولاده.

عدت ببصرى إلى رمسيس الذى جلس فى حجمه الهائل واضعاً يديه فوق ركبتيه. تراجعت بضع خطوات، وصعدت ببصرى فوق الساق الضخمة حتى الإطار البيضاوى الذى زين الساعد أسفل الكتف. كانت هناك مجموعة من الرموز، محفورة داخله قال خليل إنها تؤلف اسم الملك.

استقرت عيناى على الوجه الذى تدلت من ذقنه لحية منتظمة الأضلاع، وبرزت من جبهته أفعى منتفخة العنق متحفزة، وعلا رأسه التاج.

كنت أرى الوجه من مكانى بزاوية جانبية. وعبر هالة الشعر المستعار التى

احاطت به، وتدلت على جانبى صدره، استطعت أن اتبين سمات الهدوء والإطمئنان التى رانت عليه، والابتسامة الخفيفة التى امتدت من العينين الى الشفتين الحسيتين.

* *

انصتوا إلى كلماتى، ها هى الثروات التى تمتلكونها. إنى رمسيس الذى أخلق وأهب الحياة للأجيال... إن أمامكم الطعام والشراب، وكل ما تشتهيه الأنفس... إنى أدعم مركزكم، لتقولوا إن حبكم لى هو الذى يدفكم إلى العمل من أجلى... طالما أنتم على قيد الحياة، فإنكم تعملون من أجلى رجلاً واحداً.

* *

كان التمثال الواقع إلى يسارى، مجرداً من الرأس والصدر. وبدا مكان الذراع اليسرى فى التمثال الأخير فارغاً. وظهرت على التماثيل كلها آثار الآلاف الأربعة من الأعوام التى مرت على نحتها.

قال خليل: وانت تنظر من هنا، تشعر أن التماثيل تحتفظ بالنسب العادية لجسم الانسان. أما اذا نظرت للتمثال مواجهة من فوق رافعة، ستجد الرأس كبيراً، والأكتاف ضيقة والأرداف صغيرة.

سألت: وماذا يعنى هذا؟

قال: معناه أن الذين نحتوا هذا المعبد، كانوا يعرفون الأبعاد الحقيقية لجسم الانسان أى فن المنظور.

عدتُ أرفع رأسى الى قمة الواجهة، فرأيت صفاً من القرود يمتد بعضها فوق رؤوس التماثيل. كانت القرود مقتعدة القرفصاء، تتطلع إلى الأمام فى الاتجاه نفسه الذى تتطلع إليه التماثيل.

قال خليل: كان رمسيس يخشى غروب الشمس، لأنها تغرب فى العالم السفلى، لهذا صمم المدخل بحيث تسقط عليه أولى أشعتها. وكانت القرود فى وضعها هذا أول من يلمح الشمس عند شروقها، فتهلل لرؤيتها حتى يطمئن الملك.

جذبنى خليل من ذراعى، وخطونا إلى الأمام، وهو يشير إلى قاعدة التمثال الأول على يمينى.

كان هناك شريط من الرموز في أعلى القاعدة الحجرية التى ترتفع خمسة أمتار، تبينت بينها تلك المكونة لاسم رمسيس. وتحتها كان هناك نقش يمثل عدداً من الرجال، ركعوا على ركبهم وظهر خط من الحبال يربط بين أعناقهم. وكانت هناك حبال أخرى معقودة على أذرعتهم. ومن آذانهم، تدلت أقراط مستديرة كبيرة الحجم. كانت وجوههم تنطق بأنهم من أهالى النوبة.

مضينا لصق الحائط حتى نهايته، ثم ولجنا المدخل، وسرنا فى ردهة ضيقة. وما لبث نور الشمس أن اختفى. وحل محله ضوء المصابيح الكهربائية الضعيف.

أشرفنا على صالة مستطيلة الشكل، انتشرت بها الدعامات المعدنية، وزين سقفها بالنسر المجنح تارة، وبالنجوم تارة أخرى، فضلاً عن اسم رمسيس. وكانت هناك أربعة تماثيل متشابهة على كل من جانبى الصالة، تمثل رمسيس عاقداً يديه على صدره فى هيئة "أزوريس" إمام الشهداء، ورمز الخلود وإله الحساب. وبدت ملامحه هنا مجردة من تلك الوسامة التى تميز بها تمثاله الضخم فى الخارج.

درنا حول التماثيل التى أعطيت ظهرها للجدار الشمالى. ووقفنا نتأمل النقوش التى حفل بها هذا الجدار.

قال خليل: هذه قصة معركة قادش.

أشار الى لوحة ضخمة، تصدرها رمسيس الثانى فى ثلاثة أضعاف حجمه الطبيعى جالساً فوق عرشه. ووقف خلفه حامل المظلة الذى لم تبلغ قامته ارتفاع عرش فرعون. وأمامه انحنى طابور من القادة العسكريين فى حجم حامل المظلة. وفوقهم شريط من راكبى العربات التى تجرها الجياد، ويعتليها المحاربون بأقواسهم وسهامهم.

وفى منظر مجاور، ظهر الجيش المصرى فى صفوف متوازية من المشاة، يليهم نافخو المزامير النحاسية والضباط، ثم عربة رمسيس، يتقدمها اثنان من حملة المظلات على أقدامهما، إلى جانب أسد طليق. وفى مكان آخر بدا المعسكر المصرى مكتظاً بالجند والعربات الحربية. وفى الوسط أقيمت خيمة كبيرة للملك حولها ثلاثة خيام أخرى أصغر منها. أما أسد الملك، فقد ربض ناعساً على الأرض بعد أن قيدت قدمه إلى قوس. وحلت أربطة الخيل لإطعامها. ورفعت الأحمال عن ظهور الحمير

التى كانت تتمرغ فى التراب، وتنهق وتجرى وترفس بأرجلها.

وكان هناك بعض من عمال السخرة بقيادة جندى، انهمكوا فى إزالة الأتربة بمكانس صغيرة، ورش المياه. وسار آخرون خلف عربات تجرها الثيران. وإلى جانب أكواخ استقرت سقوفها على أعمدة ظهر جواد أدخل رأسه فى مخلاة، بينما كان أحد السياس يعنى بأمر جوادين. وجلس قائد عربة داخل صندوقها، غارقاً فى النوم،. ووقف جندى يرتوى.

قال خليل: لم يكن هؤلاء المساكين يشعرون بالخطر المحدق بهم. وأشار إلى منظر مجاور ضم فرعون جالساً على عرشه، وتحت قدميه اثنان من أسرى الأعداء يجرى جلدهما.

أضاف: اعترف الأسيران بالمكان الذى عسكر فيه ملك الحثيين. لكن اعترافهما كان خدعة. واندفع الجيش المصرى الى الكمين الذى نصب له.

❋❋

أخذ جلالته يطمئن ياوره، وكان جلالته لا يخشى شيئا وقد تركه جنده بحثاً عن الغنائم بدلاً من أن يأخذوا أماكنهم فى المعركة. لم يكن هناك أمير ولا ياور ولا دليل ولا ضابط... وقد سمعت استغاثة الملك فى كل مكان حتى وصلت طيبة، واستجاب لها حليف عظيم يفوق الملايين. فأخذ رمسيس يطلق سهامه على ميمنته، ويحصن ميسرته. عندئذ انقلبت عربات الأعداء البالغ عددها 2500عربة بخيولها. وكان الجند المفزوعون خوفاً، عاجزين عن استعمال أيديهم فى القتال، وقد خفقت قلوبهم فى صدورهم، فكانوا لا يعرفون كيف يصوبون، ولا كيف يقبضون على السيف. وقد ألقى بهم الملك فى الماء كالتماسيح. والجند الذين كانوا يزحفون على بطونهم لم تقم لهم قائمة... وارتدوا مهزومين مبهورين من فرط شجاعة فرعون، وكانوا يصيحون "لينج بنفسه من يستطيع..." وجرى جلالته وراءهم مثل العقاب.

❋❋

عين لى خليل مكان رمسيس على الجدار. كان يقف فوق عربته، باسطاً ساعده الأيمن الذى يحمل القوس إلى نهايته، بينما إنثنى الآخر خلف رأسه ممسكاً بالسهم. وشب الجواد بقدميه الاماميتين. وأحاط به جنود العدو من كل جانب.

وظهرت جيادهم التى اخترقتها سهام الملك، وقد تعثرت وسقطت وهوى ركابها الى الأرض. ثم ظهرت العربة الملكية فى طريق العودة بعد النصر، وخلفها الأسرى الذين تجلى الهلع على وجوههم.

قال: لقد نجا رمسيس من الموت فى هذه المعركة بفضل حرسه الخاص من الجنود الذين أحاطوا به من كل جانب. لكن النقوش لا تشير إليهم بحرف. أما هو فقد صب اللوم كله فيما حدث على جنوده، ووصفهم بأنهم جبناء مع أن المسئولية كلها تقع عليه.

- كيف؟

- هو الذى اتخذ قرار الحرب. وأسرع بجيشه دون أن ينتظر حتى تلحق به بقية قواته. وهو الذى صدق رواية الأسيرين، ولم يعبأ بأن يتحقق من صدقها.

❋❋

لم يكن أحد منكم هناك. لم يكن معى قائد، أو ضابط مركبة، أو ضابط من المشاة، ولا حامل درع، فقد تركنى مشاتى فريسة أمام العدو... لم يقف أحد بجانبى، ويضع يده فى يدى وأنا أحارب العدو... إن الأجانب الذين شاهدونى سوف يخلدون اسمى حتى فى البلاد النائية التى لم يسمع بها أحد.

❋❋

استدار خليل إلى الجدار المقابل قائلا: وهذه كذبة أخرى.

اقتربنا من الجدار بعد أن مرقنا من خلال تماثيل رمسيس المتقابلة. كانت هناك عدة مناظر تمثل رمسيس وهو يحرق البخور، أو يتعبد أمام الآلهة. كما ظهر فى عجلته الحربية، يطلق سهامه على إحدى القلاع التى يتساقط منها الأعداء، بينما يطلب آخرون الرحمة، ويحاول أحد الرعاة اخفاء ماشيته.

كان النقش الذى عناه خليل، يمثل فرعون، وقد وطأ بإحدى قدميه رأس جندى من الأعداء استلقى على الأرض، بينما أمسك بذراع جندى آخر أمامه، وطعنه بالرمح فى صدره. وأشار خليل الى رأس الجندى الذى ارتمى على الأرض. كان وجهه الى أسفل، بينما استقرت قدم رمسيس فى الصندل فوقها.

قال: هل ترى الأنف واللحية؟

استطعت أن أتبين لحية صغيرة مدببة، وأنفاً محدودباً. وكانت اللحية نفسها والأنف واضحة في وجه الرجل، الذى تلقى طعنة فرعون.

قال: هذه سمات الليبيين المميزة. والثابت أن رمسيس لم يلتق بهم فى موقعة واحدة.

ابتعدنا عن الحائط، وغادرنا القاعة إلى أخرى تصغرها حجماً وتحتوى على أربعة أعمدة مربعة عليها نقوش، تمثل رمسيس مع الآلهة.

كان رمسيس فوق أحدهما يحرق البخور فى حضرة المعبودة "ايزيس"، وعلى عمود آخر كانت المعبودة "موت" تقربه منها، وتمد يدها اليمنى، فتمسك بساعده الأيسر، بينما اختفى ساعدها الآخر خلف ظهره، وهمت باحتضانه.

جذبنى خليل إلى نقش ظهر فيه رسمان متماثلان لرمسيس يواجه أحدهما الآخر.

قال: رمسيس الملك يتعبد لرمسيس الإله.

انتقلنا الى نقش غير واضح التفاصيل بسبب ازدحامه بالاشكال والرموز، لكنى سرعان ما تبينت جسم "ايزيس" الرشيق، وبجوارها، ملتصقاً بها جسم رمسيس المألوف ثم شخص آخر له تاج مرتفع يتألف من مخروطين متجاورين، وامتد عضوه التناسلى أمامه على الحائط.

أوضح لى خليل أن الإله الآخر هو المختص بالنسل. وجذب انتباهى إلى أن جسم رمسيس يغطى مساحة كبيرة من النقوش ثم قال: عندما سيطرت على رمسيس فكرة الألوهية، كان بناء المعبد قد أوشك أن يتم. وصدرت الأوامر للرسامين بأن يحشروا الإله الجديد حشراً بين الآلهة الأخرى. فكان هذا النقش وأيضاً ذلك.

كان يعنى نقشاً وضع فيه الإله الجديد فى مساحة ضيقة بين "آمون" و"موت". كانت الأخيرة جالسة على مقعد خلف زوجها، فجعلت واقفة، لأفساح مكان لرمسيس. وظهرت آثار أقدامها عندما كانت تجلس، بينما أصبحت أقدامها الجديدة منخفضة عن المستوى الذى استقرت عنده أقدام الآلهة الآخرين.

قال خليل ونحن نغادر القاعة الى غرفة صغيرة تليها: هذا هو قدس

الأقداس. أهم مكان فى المعبد وآخر أجزائه.

كانت هناك أربعة تماثيل متجاورة، تجلس فى كبرياء فوق منصة حجرية، تواجه الداخل. وكان بوسع الآلهة الأربعة من مكانها هذا أن ترى مدخل المعبد الذى يبعد عنها أكثر من ستين متراً.

كانت التماثيل التى نحتت مباشرة من حائط الجبل، تمثل صاحب الدار إله المشرق، وإثنين من ضيوفه هما "رع" و"بتاح"، بالاضافة إلى رمسيس الذى قرر أن ينضم إليهم. وكانت ثمة بقية ملحوظة من الألوان الأصلية للأحجار وهى الأزرق والبرتقالى والأحمر والأخضر.

عدنا أدراجنا على مهل، وقد بدأت أشعر بشئ من الدوار. فلم تفلح محطة التهوية التى أقيمت داخل المعبد فى تبديد ما تراكم فيه من عفونة على مر الزمن.

نقلت بصرى بين الجدران والاعمدة والسقوف التى ما زال الصخر يحملها كما نحتها الفنانون القدامى. كانت كل نقطة فى سطح الصخر محفورة وأغلب الحفر ملوناً.

سألت خليل: كم عدد الذين اشتغلوا فى بناء هذا المعبد؟

أجاب : لا أقل من عشرين ألفاً، عملوا ثلاثين سنة بلا انقطاع.

– كلهم نحاتون؟

– أبداً. كانت هناك أعداد غفيرة من رجال الجيش والشرطة، وخدم المعابد والكهنة والأسرى والعبيد. وبين هؤلاء كلهم قرابة المائة من الحجارين والنحاتين، وعدد محدود من الرسامين والحفارين بعدد أصابع اليدين.

❋❋

كانوا يعملون فى ضوء مصابيح زيت الخروع. بعضهم بالمطارق والآخرون بالأزاميل بينما يشتغل غيرهم بأدوات الصقل. ويقبض الرسامون على أقلام من الغاب فى يد والمحبرة فى اليد الأخرى. ويبدأون تخطيط الكتابة الهيروغليفية التى ستنقش على الحجر وتلون فيما بعد بالأزرق والإخضر. وفى الوقت نفسه يغمس النقاش فرشاته استعداداً للتلوين. وكانوا يعملون جميعاً وهم وقوف أو جلوس على مقاعد بلا مساند. على أن أكثر العمليات صعوبة كانت هى النحت مباشرة فى صخور الجبل.

فقد كان على النحات أن يرى خلال الصخر ما يحتوى عليه من أشكال ولم تكن الضربة الحية تسمح بترف الخطأ والتصحيح. فلم يكن بوسعه أن يعيد لصق أجزاء محطمة.

* *

قادنى خليل إلى درج حديدى ضيق أشبه بسلالم الحرائق، ارتقيناه إلى سطح المعبد. ووقفنا فى الشمس فوق صف القرود التى تزين أعلى الواجهة. كان السطح يمتد أمامنا حوالى ستين متراً، ثم ينتهى فجأة فى الفراغ إذ تخلص المعبد نهائياً من الجبل المنحوت فيه. وظهر سفح الجبل عمودياً أملس، كأنه جزء من طورطة هائلة، قطعت بعناية شديدة.

قال خليل: إن نسف الجبل المحيط بالمعبد كان معقداً للغاية ودقيقاً. فقد كان الخوف دائماً أن يحدث صدع فى المعبد. ولهذا كان الخبراء يدخلون بالديناميت إلى أعماق بعيدة فى بطن الجبل. وعندما تم فصل المعبد تماماً جرت عملية إزالة القشرة الرقيقة التى تبقت على جدرانه من آثار الجبل. ثم بدأ تقطيع أحجار المبنى بواسطة منشار كهربائى.

تطلع خليل الى ساعته، وقال: لا أظن أننا نستطيع زيارة المعبد الآخر الآن. فهناك تفجير سيجرى بعد قليل.

قلت ونحن نهبط الدرج الحديدى: نذهب غداً إذن.

أصبحنا خارج المعبد، فمضينا ببطء أسفل أقدام رمسيس الضخمة. واشتد بى الصداع، فشكوت لخليل. واقترح أن نذهب إلى العوامة، ليعطينى مسكناً.

مضينا إلى الشاطئ، وصعدنا العوامة المخصصة لموظفى مصلحة الآثار. وعندما بلغنا سطحها، تناهى إلى سمعنا صوت انفجار عنيف على الشاطئ. تطلع خليل إلى نقطة على يسارنا تبعد مائتى متر، وينتهى عندها مدى الرؤية على الشاطئ. ورأيت سحابة من الأتربة الناجمة عن الإنفجار تتجمع فوقها، وترتفع عالياً فى السماء ثم تتلاشى.

قال ونحن ننطلق فى ممر ضيق، تناثرت القمرات على جانبيه: ربما كان هذا آخر تفجير فى جدار المعبد الصغير.

كانت حجرته أنيقة تنم عن ذوق أوربى. وكانت هناك عدة صور على الحائط لفتاة أوربية بالبكينى، وقد ظهرت واجهة "أبى سنبل" فى مؤخرة إحداها.

سألته وأنا ابتلع قرصين قدمهما لى: سويدية؟

ابتسم فى شئ من الزهو: أجل. كانت هنا فى أجازة لدى والدها الخبير، وأصبحنا صديقين.

قلت: يبدو أنك لا تضيع وقتك هنا.

قال: السويديون عندهم حرية. الواحدة منهم تمشى، وتنام معك، وكل شئ بعلم زوجها.

قلت: هل تعمل كثيرات منهن هنا؟

أجاب: أبداً. فى كل أبى سنبل ثلاث فتيات عاملات. واحدة لبنانية، وأخرى فرنسية وثالثة ألمانية هى أحلاهن.

قلت: رختا؟

قال: أجل. كيف عرفت؟

حكيت له.

قال: سآخذك إليهن فى المساء.

سألت: والسويديات؟

قال: الموجودات هنا زوجات فقط وأنا أقضى معهن كل وقتى لأنى أعرف اللغة.

– تعلمتها هنا؟

– أبداً. فى السويد. قضيت هناك عدة أشهر، تعلمت خلالها مبادئ اللغة.

– هذا رائع. لا بد أن تحكى لى مرة عن حياتك هناك.

– خسارة أنك لم تأت منذ شهر. كانت هنا شلة سويديات. وكنا نخرج فى لنشات، وعندما نبتعد عن أبى سنبل، كن يخلعن البكينى نفسه.

أشعلت سيجارة وأنا أتصور المنظر. وسألنى ونحن نتأهب لمغادرة الغرفة: ألم تشعر بالجوع بعد؟

أومأت برأسى. وقال عندما هبطنا إلى الشاطئ إنه سيذهب معى لأنهم يتناولون طعامهم فى النادى القريب من استراحة الشركة.

رأيت مجموعة من الرجال الذين غطوا رؤوسهم بقبعات من الفلين، وقد

تجمعوا على مستوى مرتفع قليلاً من الصخور.

قال خليل: تعال أعرفك بالدكتور شوقي رئيسنا.

صعدنا إليهم وسط الصخور. كانوا يقفون إلى جوار فتحة أشبه بالكهف، متحلقين حول رجل ضخم متقدم في السن أبيض شعر الرأس. وكان هذا يفحص بضعة نقوش على الصخور، بدت لى أشبه بعبث الأطفال.

قال ذو الشعر الأبيض إن بعض النقوش، ترمز إلى الثيران، وبعضها الآخر إلى الغزال. وانحنى فوق نقش غير واضح ثم أضاف: آه... هنا أسد مرتفع الذيل. هذه الرسوم من قبل التاريخ.

سرت همهمة في المجموعة. وقال خليل: معنا هنا صحفى ليسجل هذا الاكتشاف.

قال ذو الشعر الأبيض في استهانة: ليست لهذه الرسوم أية قيمة. فقد عثرنا على الآلاف منها في كل مكان. هل تعرفون لماذا ينتمى رسم الأسد هذا الى عصر ما قبل التاريخ؟ لأن الفراعنة رسموه وذيله دائر على كفله في الإتجاه إلى أسفل علامة الوداعة.

تحول الدكتور شوقي عن الكهف، وبدأ يهبط الصخور ونحن في أعقابه. وجذبني خليل من ذراعي مقترباً منه، ثم قدمني إليه في زهو كما لو كان يعرض عليه اكتشافاً أثرياً.

سألته عما إذا كان قد تم انقاذ كل الآثار القديمة في النوبة، أم أن بعضها سيتعرض للغرق.

أجاب في حدة: لن يغرق شئ.

قلت: لكني سمعت أن بعض الآثار لن يمكن انقاذها، ومنها كنيسة تضم صوراً للتعذيب الذى كان يتعرض له المسيحيون الأوائل.

قال: لقد اخترنا أهم النقوش الصخرية التي يمكن قطعها وعرضها في معارض، واهداؤها. وكل المعابد تم انقاذها.

قلت: ومعبد جرف حسين؟

تردد قليلاً، ثم قال: معبد جرف حسين ليست له قيمة، لكننا أخذنا منه كل ما هو مهم. اسمع، هذا المعبد يستحيل رفعه. ولم يكن من الممكن رفع كل النقوش

الموجودة على الجدران، لكننا اكتفينا بالأهم، وتصوير الباقى.

لحظتُ فى صوته رنة غضب. ولمحت خليل يغمز لى بعينه، فشكرته. تركته يواصل طريقة بين الصخور نحو الشاطئ، وتبعت خليل إلى حيث وقفت سيارة جيب عند أول الطريق المؤدى الى الجبل. وجاء فى أعقابنا بعض من كانوا يقفون حول الدكتور شوقى، وفى مقدمتهم بدين بارز البطن يرتدى شورتاً أصفر.

جلست بين السائق وخليل، بينما تزاحم الآخرون على المقعد الخلفى. وعندما شرع البدين فى الصعود، صاحوا فيه أنه يأخذ مكان ثلاثة، فتراجع وظل خارج السيارة حتى جلسوا جميعاً. ولم يعد ثمة مكان له، فاستند على حافة المقعد بجانب من فخذه الأيمن، وتعلق فى سقف العربة بيده اليمنى، تاركاً بقية جسمه فى الهواء.

كان له شارب صغير للغاية على الطراز الهتلرى، أضفى على وجهه السمين طابعاً غريباً. وكانت حدقتاه صفراوين لهما نظرة ثابتة. ولحظت أن حافة الشورت الذى يرتديه بالية. وقدرت أنه فى الخامسة والأربعين أو الخمسين.

تحركت العربة، فسمعنا صوتاً يصيح بنا أن نقف. والتفت الى الوراء، فرأيت عم مهدى مساعد الريس سرور، يجرى محاولاً اللحاق بنا. وما لبث أن تعلق بالسيارة، واحتل منها على الناحية اليمنى المكان نفسه الذى احتله ذو الشورت الأصفر على الناحية اليسرى.

سأله السائق إلى أين يريد الذهاب، فقال لاهثاً إنه يريد الصعود إلى أعلى، لشراء رطل لحم من الجمعية التعاونية.

واصلت السيارة مسيرها، ومضت تصعد الطريق الصحراوى الصخرى فى صعوبة. وارتفع صوت من خلفى قائلاً: لو شاءت الحكومة لكانت وفرت المبالغ التى انفقت على رصف هذا الطريق.

سأل آخر: كيف؟

أجاب: كان بوسع مصلحة الآثار أن تتولى العملية بتكاليف لا تذكر.

تطلع الجميع إلى ذى الشورت الأصفر، وانفجروا ضاحكين.

أنت السيارة بعد عدة خطوات، فقال الصوت الأول: يا الله حسن الختام.

تحول إليه خليل قائلا: يجب أن نتحمل مصائبنا. ثم وجه حديثه لذى الشورت الأصفر فى صوت جاد: لا تفقد ثقتك فى العلم. المؤكد انهم سيخترعون فى المستقبل العربة المتينة التى تحملك دون أن تشكو.

قال آخر: لكنه على ضخامته، يتمتع برشاقة الغزلان. أنظر كيف يجلس بنصف فخذ.

قال الصوت الأول على الفور: لن يحسبوا قوة السيارة الجديدة بالحصان. سيجعلونها قوة عشرين فخذ ومائة والف وهلم جرا.

لم ينبس ذو الشورت الأصفر بشئ وظل يتطلع أمامه بنظرة ثابتة، كأنه ليس معنا. وعندما أصبحنا على مسافة ثلاثين متراً من استراحة الشركة، انفجر أحد إطارات السيارة. وغادرنا السيارة، فاكتشفنا أن الإطار الذى انفجر كان فى الناحية التى اعتمد عليها ذو الشورت الأصفر.

قال عم مهدى ضاحكاً: الحمد لله أنا مش السبب. أنا كنت فى الناحية الثانية.

مشينا حتى الاستراحة. وسألت عم مهدى عن موعد قيام الصندل فى رحلة العودة فقال: بعد اسبوع.

اتفقت مع خليل على أن يمر بعد الظهر، ثم ولجت الاستراحة، وتابعوا هم المسير. تناولت طعام الغذاء بمفردى من يد عجوز نوبى. وأويت الى غرفتى، فاستغرقت فى نوم عميق، أفقت منه وقد أوشكت الشمس على الغروب.

خرجت إلى الردهة الخارجية، فوجدتها خالية. ولمحت العجوز النوبى فى المطبخ، فطلبت منه أن يعد لى شاياً. جلست فى الردهة أتصفح مجموعة من صحف الأيام الماضية وأنا أرتشف الشاى. عثرت على عدد من المجلة التى يعمل بها سعيد، فقرأت التاريخ وقلبت صفحاتها بسرعة دون أن أعثر على مقال له.

وصل خليل بعد أن ساد الظلام. غادرنا الاستراحة ثم درنا من حولها ومضينا مسافة فى أرض فضاء. وبعد قليل أصبحنا نسير بين فيلات صغيرة أشبه بشاليهات المصايف، قال خليل إنها مخصصة للاجانب.

لم أستطع أن أتبين شيئاً من خلال نوافذ الشاليهات التى لم تكن تعلو عن

الأرض كثيراً. فقد كان أغلبها مظلماً أو مسدل الستائر.

تذكرت رد فعل رفعت أمس عندما ذكرت اسم خليل أمامه. فسألته عما إذا كان هناك شئ بينهما. ظل صامتاً بعض الوقت ثم قال: تشاجرنا مرة بسبب فتاة سويدية، ثم سوينا الأمر.

قلت: علي فكرة. هل تأخذ مرتباً جيداً هنا؟

قال: طبعاً. كلنا هنا نأخذ مرتباتنا بزيادة مائة وخمسين فى المائة.

سألت: وموظفو الشركة أيضاً مثل رفعت وحلمي؟

أجاب: وهم أيضا.

مررنا بمنزل أسدلت على نافذته المضاءة ستارة حمراء. ثم عبرنا شارعاً، ومضينا وسط مجموعة أخرى من الشاليهات حتى وصلنا الشاليه المخصص للبنات.

دق خليل جرس الباب الخارجى مسافة دون نتيجة. درنا حوله الشاليه فرأينا إحدى النوافذ مضاءة، وقد أسدلت ستارتها. وقال خليل إنها غرفة الفتاة الفرنسية، وإنها ليست جميلة لكنها متعلقة بملاحظ إيطالى لا تدعه يفارقها.

عدنا إلى الشارع، واقترح خليل أن نذهب إلى النادى الافرنجى لعلنا نعثر فيه على الفتاتين الأخريين. وألفينا النادى مغلقاً. ورأينا من خلال نوافذه عجوزاً إيطالية منهمكة فى إعداد مجموعة كبيرة من الستائر.

عرض عليَّ خليل أن نزور صديقاً له هو طبيب المستشفى فوافقت. كان المستشفى بجوار الاستراحة الاخرى المخصصة لموظفي مصلحة الآثار، وقد ألحق به مسكن الطبيب. ووجدنا هذا مضاء، وبابه مفتوحاً على مصراعيه. اجتزنا صالة خاوية إلا من ثلاجة، وولجنا غرفة تسودها الفوضى، جلس فى وسطها إلى مائدة صغيرة شاب أصلع قصير القامة محتقن الوجه، أمامه زجاجة من الخمر.

قام الشاب مرحباً بنا. وأصر على أن أجلس فوق المقعد الوحيد بالغرفة، بينما استقر خليل على الفراش الذى تناثرت فوقه الملابس، وتدلت أغطيته على الأرض.

غادر الطبيب الغرفة، وعاد يحمل كوبين من الزجاج وإناء به قطع الثلج. ووضع قطعتين من الثلج فى كل كوب، أضاف إليهما مقدار من سائل الزبيب الذى

احتوت عليه الزجاجة. ثم أضاف قليلاً من الماء، فاتخذ السائل على الفور لون اللبن.

قدم إلى كل منا كوباً، وحمل كوبه منضماً إلى خليل على الفراش. ورآنى أتأمل عدداً وفيراً من زجاجات الخمر الفارغة، صفت الى جوار الحائط فقال: ليس هنا مرضى ولا نساء. ولم يبق غير القمار والخمر. وأنا لا أحب القمار.

قلت: فهمت أن خليلاً أحتكر لعبة النساء.

ضحك وقال: هو الذى أفهمك هذا؟ ضحك عليك. خليل لا هم له إلا تحويش راتبه.

قال خليل: فى عرفك من لا يشرب كل ليلة، متهم بأنه يحوش نقوده.

قلت: ألم يبلغكم الوباء الذى انتشر فى السد فى الإسبوعين الماضيين؟

قال: أبداً. المستوى الصحى هنا مرتفع. تعرف لماذا؟

قال: لماذا؟

قال: هنا عدد كبير من الأوربيين. وهؤلاء صحتهم ممتازة لأنهم تربوا على الزبدة.

قدمت إليه سيجارة، وأشعلت واحدة. استطرد بعد أن جذب عدة أنفاس عميقة: أقول لك الحق.. أنا لم أخلق للشراب ولا للطب.. أنا خلقت للسياسة.

قلت: وماذا يمنعك من الإشتغال بها؟

تطلع إلىّ باستغراب ثم ضحك: كيف؟ أليست أمور البلد فى أيد أمينة ولا مجال لغيرها؟

سألت: أليس هنا إتحاد اشتراكى؟

قال: طبعاً توجد لجنة رئيسها هو المقاول الذى يأتى بالأنفار.وتناول كأسه وهو يقول:

– نشرب فى صحة المقاولين.. حكام المستقبل.

كان مذاق الزبيب المثلج لطيفاً فأفرغت كأسى كله.

قال خليل: رأيى أن السياسة نصب.

تجاهله الطبيب، ومال برأسه ناحيتى: عندما كنت فى الجامعة كانت

هموم البلد تعنينا أكثر من الآن. كنا نفكر بكل شئ، ونتابع كل شئ. ونحلم بيوم التخرج، لنذهب الى الريف ونداوى الفلاحين الذين يعيشون كالحيوانات.

وضع كأسه على المائدة ثم أضاف: أنا هنا الآن، لأنى أريد أن أجمع شيئاً من المال أفتح به عيادة خاصة. فهذه هى اللغة الوحيدة التى تتكلمها البلد كلها الآن.

❋❋

لحظات الغروب على العشب الأخضر تحت الساعة العالية التى يردد الراديو دقاتها الرصينة طول اليوم، رعشة القلب لابتسامة فتاة، الكتب التى تظل مغلقة الصفحات حتى ليلة الامتحان، وفى البداية كان هناك من يحملون على الأعناق، وتشق أيديهم الهواء من اليمين إلى اليسار مع الشعارات المنغمة، فما زالت الجدران تسمع صدى أول هتاف بسقوط الملك، عندما كانت الصحف تتخاطفها الأيدى من الباعة، رعاياك يا مولاى، الثورة الثورة الثورة، ولم تنقطع حلقات النقاش، وجرائد الحائط، لكن سيارات الشرطة وصلت الى أبواب المدرجات، وساد الساحة هدوء الموت الأصفر،

❋❋

قال لى الطبيب: يهيأ لى أنى رأيتك من قبل.

قلت: أين؟

قال: ربما أيام العدوان الثلاثى. فى معسكرات الجامعة.. كنت هناك؟

قلت: أجل. بقينا ثلاثة أيام نطالب بأن يعطونا أسلحة دون جدوى.

قال: وبعد ذلك؟

قلت: لا شئ. انضممنا إلى فرقة للمقاومة الشعبية فى الحى.

❋❋

وصدقنا حقاً أننا سنقاتل، وعلى باب المدرسة القديمة، وقف شاب يحمل بندقية يسألك عن كلمة السر بصوت متوتر، وفى الداخل جلس الضابط السابق فى ملابسه العسكرية، يأكل الكباب، وحوله الحواريون من أعضاء الهيئة التى تضم كل الشعب، وتولى التدريب عريف قال إنه من رجال الثورة. ثم أعطونا البنادق

الجديدة التي لم تلمسها أصبع من قبل، وطفنا بشوارع الحي، يتقدمنا ضابط آخر أصبح فيما بعد من نجوم السينما، وتجمع السكان في النوافذ والشرفات يصفقون لنا، وزغردت النسوة، وبعد ذلك تحدثت الصحف عن الإنتصار الشعبي الرائع،

❋❋

ملأ الطبيب كؤوسنا من جديد وهو يقول: فكروا لنا في نخب.

قال خليل: نشرب نخب أنفسنا.

قال الطبيب: نريد شيئاً آخر أكثر أهمية. رمسيس الثاني مثلاً.

قلت: أو الفنانين الذين نحتوا تماثيله.

قال الطبيب: لكننا لا نعرفهم. ما رأى الآثار؟

قال خليل: ليست عندى أية فكرة.

❋❋

أنا العليم بسر الكلمات المقدسة.. أنا سيد الأسرار.. أعرف تماماً الأوضاع الدقيقة لتمثال الرجل، ووقفة المرأة.. وكيف يتهيأ الرجل، ليطعن بالحربة. أنا عليم بنظرة العين الخاطفة، بالدهشة الطارئة التي تعترى الشخص الذي يستيقظ من نومه. بحركة ذراع رامي الرمح وهو يرفع ذراعه، بمدى ميل جسم إنسان يجرى، أعرف سر تركيبات لا تقوى النيران على حرقها... ولا تستطيع المياه إذابتها.

❋❋

سألني الطبيب: لماذا لا يعجبك رمسيس الثاني؟ إنه اكثر شخصية تتمثل فيها عبرة التاريخ.

تساءلت: كيف؟

قال: ألم يحك لك خليل عن تاريخه؟ سبعون سنة من السلطة، أى الكذب والفجور والقتل والإدعاء والغرور والاستعباد. وها هو ما زال يعيش حتى أيامنا. ونحن الآن نعمل ليل نهار ليخلد اسمه. تماماً كما أراد.

قلت: ولماذا لا نقول أننا نخلد الفنان المجهول الذى نحت هذه التماثيل؟

انفجر ضاحكاً: الفنان المجهول. كالجندى المجهول. الضحية التي ينساها

الإنسان بسرعة البرق.

قال خليل: نشرب نخب الحكيم الفرعوني الذى قال: لا أحد سيأخذ بضائعه معه، ولا أحد ذهب سيعود ثانية.

قال الطبيب: واحد آخر مجهول. لا، أنا مصر على رمسيس الثانى.

قلت: نشرب.

شربنا فى صحة رمسيس الثانى. ووقف خليل، قائلاً إن الوقت متأخر ولا بد له من الذهاب إلى عوامته. ونهضت بدورى.

تمسك الطبيب ببقائنا، وقال إنه ما زالت هناك عدة أنخاب أخرى لنفرتارى، وبقية الزوجات الخمس اللاتى كن مفضلات من بين حريم رمسيس. لكن خليل أصر على الانصراف قائلاً إنه مضطر لأن يمشى حتى العوامة.

تحول إلىَّ الطبيب: اذن تبقى أنت لنفرغ الزجاجة معاً.

قلت إنى أفضل الإنصراف، لأستيقظ مبكراً.

سألنى: إلى متى ستبقى معنا؟

قلت: الصندل الذى جئت عليه سيعود بعد أسبوع.

قال: إذن سنلتقى مرة أخرى.

انطلقنا إلى الخارج. ورافقت خليل مرحلة من الطريق، ثم ودعته بعد أن تواعدنا على اللقاء فى الصباح. عدت أدراجى إلى الاستراحة. وما أن بلغتها حتى تجاوزتها، وواصلت السير إلى الخيم.

كانت أغلب الخيم مظلمة، تكشف فتحاتها عن الرجال الذين رقدوا على الأرض وغطوا فى النوم. وعثرت على واحدة مضاءة، تحلق فيها عدد من الرجال حول مصباح زيتى. سألتهم عن جرجس، فأشاروا الى خيمة مجاورة.

ألفيت الخيمة مظلمة. ووقفت فى مدخلها، أتأمل شخصاً ممداً بداخلها يصدر عنه غطيط منتظم.

ناديت على جرجس بصوت مرتفع عدة مرات، ثم رددت اسم ذهنى. لكن النائم لم يتحرك، فاستدرت وكررت عائداً إلى الإستراحة.

[1]

عندما ولجت الردهة فى الصباح، فوجئت بفهمى يحييني قائلاً: صباح الخير يا بيه. الفطار جاهز.

تمتمت رداً مبهماً على تحيته، وجلست إلى المائدة. جعلت أرقبه وهو يضع الفول والجبن والمربى، ثم يجلب الماء الساخن والشاى. اختلست نظرة إلى وجهه، فرأيته جامداً لا يعبر عن شئ، ولا يحمل سوى تلك النظرة المأدبة المعهودة فى مطاعم الدرجة الأولى. واحترت فى السبب الذى جعله يخفى عنى مهنته الحقيقية.

سألته عن أحمد بعد لحظة فأجاب: بخير.

قلت: هو فين؟

قال: فى الورشة

لعل أحمد ميكانيكى حقاً كما قال.

إنضم إلىّ رفعت، وأقبل على الطعام بحماسة. سألنى عما فعلت بالأمس، فحكيت له. وظهر عليه الاستياء عندما سمع بذهابنا الى مسكن البنات.

قال: ولماذا أخذك إليهن؟

قلت: أنا الذى طلبت. فكرت فى عمل حديث معهن. ثلاث بنات يعملن فى أبى سنبل. هذا موضوع جذاب.

قال: هو يريد أن يستغلك ليتقرب إليهن.

لم أعلق بشئ، ولزم هو الصمت.

قلت بعد لحظة إنى ذاهب إلى المعبد الصغير. فسألنى إن كانت لدى سيارة. وعندما علم أنى أنوى الذهاب إلى الشاطئ سيراً على الأقدام، عرض أن يضعنى فى سيارة تابعة للشركة ستذهب إلى الشاطئ بعد قليل.

أقلتنى السيارة حتى عوامة خليل. كان ينتظرنى أمام مدخلها فانطلقنا على أقدامنا بحذاء الشاطئ. مررنا من أسفل أقدام رمسيس الذى يتصدر واجهة المعبد الكبير، وواصلنا السير مائتى متر أخرى حتى بلغنا المعبد الآخر.

كانت أطراف أعمدة التخريم ترتفع فوق الجبل الذى يحتضن المعبد. ولمحت عاملاً انحنى بكل جسده خلف مثقاب كهربائى كان يرتجف بشدة وهو يزحف داخل الصخر فى بطء.

لاحظت أن واجهة المعبد أكثر اتساقاً من واجهة المعبد الكبير. وربما كان السبب هو صغر كل من حجمه، وحجم التماثيل المكونة لها. كانت مزينة بستة تماثيل، منها أربعة لرمسيس الثانى تمثله واقفاً عارى الصدر وقد إلتف الإزار الشهير حول وسطه وفخذيه. وبدا وجهه أقرب إلى صورته فى التماثيل الداخلية للمعبد الكبير. لكن الابتسامة ذاتها كانت هناك.

كان التمثالان الآخران لنفرتارى فى ثوب شفاف، كشف عن ثدييها، بينما أحاط شعرها بوجهها، وتدلى على كتفيها. واستقر فوق رأسها تاج على هيئة قرص الشمس بين ريشتين. وحول سقان التماثيل الضخمة، وقف أطفال صغار فى ارتفاع الركبة.

علق خليل على تماثيل اللوحة، ونحن نجتاز المدخل الذى ينتصب رمسيس على جانبيه: إنها أول مرة يسمح فيها رمسيس لامرأة أن تقف إلى جواره فى نفس حجمه. ويقال إنها كانت أحب زوجاته إليه ولعلها كانت ذات نفوذ سياسى.

ولجنا قاعة تحف بها ثلاثة أعمدة على كل جانب، وكانت قمة كل عمود يزينها فى الناحية التى تطل على الصالة رأس امرأة بأذنى بقرة وشعر غزير انسدل فى دوائر فوق كتفيها. ظننت الرأس لنفرتارى لكن خليل قال: إنها للإلهة "حتحور" التى خصص المعبد لعبادتها.

كانت جوانب الأعمدة تمثل الملك والملكة بصحبة الآلهة المختلفة وعلى الجدار الشرقي ظهر رمسيس على يمين المدخل ويساره يضرب أعداءه أمام الإله "رع حور آختي" تارة، وأمام "آمون رع" تارة أخرى.

وكان هناك منظر يمثل اثنتين من الآلهة، تضعان على رأس نفرتارى، التى توسطتهما فى ثوب شفاف، التاج المؤلف من قرص الشمس بين ريشتين. وبدا وجه الملكة رائع الجمال بأنف مستقيم. وكانت هناك بقية من الألوان القديمة التى غطته فى يوم من الأيام، ميزت بينها الذهبى والأحمر والأسود والكحلى.

اكتشفت أن العديد من السياح الأجانب الذين زاروا المعبد، قد سجلوا أسماءهم فى أماكن مختلفة من الجدران ابتغاء للخلود ولا ريب، فغطوا بذلك أجزاء من النقوش الأصلية.

غادرنا القاعة مَن باب زينت جبهته بقرص الشمس، تبرز منه حيتان، وينتشر من جانبيه جناحا صقر. واجتزنا صالة عرضية إلى المكان المعهود فى أقصى كل معبد: قدس الأقداس.

كانت جدران هذه الغرفة محلاة بمناظر تمثل رمسيس يحرق البخور فى حضرة المعبود، وزوجته إلى جانبه تهز فى يدها آلة موسيقية، وتحمل فى الأخرى بعضاً من زهر اللوتس. وظهرت خطوط فخذيها واضحة تحت الثوب الشفاف.

استقر تمثال الآلهة "حتحور" فى مركز الصدارة من قدس الأقداس. وبدت فى صورة امرأة فاتنة دقيقة الجسم، يرتفع فوق رأسها قرنا بقرة، يحيطان بقرص الشمس.

استفسرت من خليل عن تخصص "حتحور" بين الآلهة، فأجاب: لم أقل لك؟ إنها آلهة المتعة الجنسية.

قلت: لا أستطيع أن أتصور هؤلاء الناس يمارسون الغرام.

قال ونحن نتجه إلى الخارج. أنت مخطئ، فقد كان بينهم عشاق مشهورون. وعلى ما أذكر توجد بردية تحدث فيها صاحبها عن سواد شعر حبيبته، وحمرة شفتيها التى طغت على حمرة البلح الناضج. رغم أنهم لم يكونوا يعرفون التقبيل بالشفاه.

– كيف كان التقبيل لديهم إذن؟

قال: كانوا يكتفون بحك الأنف.

أصبحنا في الخارج، وسقطت علينا أشعة الشمس حارة ملتهبة. أسرعت أضع قبعتي على رأسي، واستأنف خليل حديثه ونحن نسير على الشاطئ: فيما عدا هذا كانوا مثلنا تماماً. فهناك حكاية عن زوجة كاهن من كهنة رع كانت تخونه، وانجبت من عشيقها ثلاثة أولاد وعندما اكتشف زوجها الحقيقة، قالت له إن الإله "رع" هو نفسه والد الأطفال الثلاث. وحكاية أخرى عن واحدة أغوت شقيق زوجها، لكنه رفض الإستلام لها، فانتقمت منه وزعمت لزوجها أنه راودها عن نفسها.

كنا قد بلغنا منتصف المسافة بين المعبدين. وتحولت أتأمل الصخور التى تصل بينهما. كانت قمتها تبدو متجهمة غير متناسقة. وفى عدد من الأماكن على السفح، تجلى فعل الرياح على مر الأعوام فى خطوط طولية متعاقبة على هيئة طبقات.

سألت خليل: بأى المعبدين كان الناس يبدأون زيارتهم ؟

أجاب: كان لكل معبد عيده الخاص الذى يأتيه فيه الناس من الضفة الأخرى.

❋

وكانوا يحتشدون من البقاع كافة لهذا الغرض، ليتقربوا من المعبود ويسألوه العون فى مشاكلهم. ويقبل الملك فوق محفة تتألف من مقعد كبير ذى مساند جانبية وعلى قفاه يتدلى شعر مستعار يحوطه أكليل معقود من الخلف، يلتف فوقه ثعبان من الذهب انتفخ عنقه فانتصب وسط الجبين. ويتربع تاج الوجهين فوق رأسه الذى تحميه من أشعة الشمس مظلات من ريش النعام يحملها أبناء الملك، وكبار رجال الدولة. وعند باب المعبد ينتظر الكهنة عراة الصدور، حليقى شعر الرأس واللحية والشارب. هؤلاء وحدهم الذين يتمتعون بحق دخول قدس الأقداس ورؤية الآلهة. ويدخل الملك وصحبه إلى حضرة المعبود، بينما ينتظر أفراد الشعب فى الخارج: النسوة تحرك الصاجات والمغنيات ينشدن، والرجال يعزفون على الناى، والآخرون يرقصون ويصفقون بأيديهم. وعندما ينتهى الاحتفال الدينى ويخرج الملك إلى الموكب المقدس الذى ينتظره فى النيل، يبدأ العيد الحقيقى، فيستسلم الآلاف للملذات ويتناولون كميات وفيرة من النبيذ.

❋

صحبت خليل إلى مكتبه بالعوامة بعد أن وعدنى بفنجان من القهوة. جلست

إلى جوار المكتب فى غرفة واسعة صفت فيها عدة مكاتب بحذاء جدرانها. وتركنى خليل بعض الوقت، ليتبادل الحديث مع أوروبى مرح لوحت الشمس وجهه، كان يجلس الى المكتب المقابل.

أحضر فراش نوبى فنجان القهوة وكوباً من الماء المثلج. أشعلت سيجارة. وما لبث خليل أن انضم إلىّ.

قال وهو يجلس الى مكتبه: خبير سويدى. كان يقيم هو وزوجته تحت. وكنت أراهما كل ليلة من الشاطئ قبل النوم وهى عارية تماماً.

تطلعت إليه متسائلاً، فاستطرد باسماً: السويديون ينامون دائماً عرايا. أتعرف ماذا كان يحدث كل ليلة؟ كان الرجل يقبل زوجته عدة دقائق، ثم يتركها وينصرف إلى غرفته.

سألت: دون أن ينام معها؟

قال: الرجل السويدى لا ينام مع زوجته إلا مرة واحدة فى الشهر، ليحافظ على طاقته للعمل.

– وماذا تفعل النساء؟

– لك أن تتخيل. فى أول أسبوع لى فى السويد كنت أقيم عند رجل له بنتان. وفى الليل طرقت بابى إحداهما. وبعد ربع ساعة دخلت الثانية عارية.

أشعلت سيجارة ثانية، وأنا أقول: وقضيتم الليلة ثلاثتكم معاً؟

ضحك: طبعاً.

- والأب؟

– لا شئ. البنت السويدية تأخذك فى حجرتها بعلم أبيها وبرضاه.

قلت وأنا أنهض واقفاً، وأتناول قبعتى: فى المرة القادمة عندما تذهب إلى هناك يجب أن تأخذنى معك.

قال: إلى أين أنت ذاهب الآن؟

قلت: أريد أن أشترى سجايراً وصابوناً.

قال: عليك أن تذهب إلى المستعمرة. انتظر حتى أجد لك سيارة.

غادرنا العوامة إلى الشاطئ. كانت هناك سيارة جيب بلا سائق. فوقفنا في ظلها ننتظر.

قال: لو رأيت عمالنا الصعايدة عندما كانت شلة السويدات هنا، لمت من الضحك. كانت السويديات يستلقين خارج الشاليهات بالبكيني. ويقف الصعايدة الذين لم يروا شيئاً مثل هذا من قبل... يقفون أمامهن ساعات بلا حراك أو عمل.

قلت: سنذهب بعد الظهر إلى منزل البنات؟

قال: لا مانع. سأمر عليك.

تركني ومضى إلى العوامة بحثاً عن السائق. ولمحت أمامها ذا الشورت الكاكى والقبعة الفلين يتبادل الحديث مع شاب صغير، وقد أمسك بذراعه. كان يشير بأصبعه ناحية المعبد، والشاب يهز رأسه نفياً. ثم صعد الشاب إلى العوامة، بينما انطلق البدين إلى المعبد بمفرده. وظهر خليل وبرفقته السائق.

أقلني السائق إلى مستعمرة الأجانب، وأنزلني أمام الجمعية التعاونية. وألفيت في الداخل عدداً كبيراً من المصريين، أغلبهم من العمال، وبينهم بعض الأجانب.

تعلقت عيناى بفتاة أجنبية رائعة البشرة. كان جسدها نحيفاً، وشعرها أشقر قصيراً. وبدت شفتاها رقيقتين للغاية. وعلا بشرة ساعديها وساقيها زغب أشقر خفيف. وكانت حركاتها تنم عن إعتداد شديد بالنفس.

كانت تحاول التحدث إلى البائع الذى انهمك في شجار حاد مع أحد العمال. وفجأة انفجرت فيه صائحة بالإنجليزية: أنا أكلمك يا حيوان، ويجب أن ترد علىّ.

أجاب لها البائع طلباتها، وانصرفت. واشتريت أنا سجائراً وصابوناً. ثم انطلقت في الطريق المؤدى إلى الاستراحة، وأنا أتطلع حولى يمنة ويسرة، لكننى لم ألمح شيئاً من تلك المخلوقات التى زعم خليل أنها تظهر للرائى فى البكينى.

وضعت السجائر والصابون في حجرتى، وعدت إلى الخارج. مشيت حتى الخيم، وبحثت عن جرجس، فقال لى أحد العمال أنه فى الورشة التى تقع خلف الخيم.

وجدت جرجس يعاون أحمد فى تشحيم محرك سيارة. وكان الإثنان يرتديان سروالين أفرنجيين. رحبا بى، ومضى أحمد ليعد لنا الشاى. فانتهزت

الفرصة لأسأل جرجس عن ذهنى.

قال فى صوت خافت: سافر امبارح.

قلت: سافر خلاص؟

قال: تلاجيه الوجت عدا الحدود.

قلت: كنت عاوز أشوفه قبل ما يسافر.

قال: احنا استنظرناك امبارح بالليل.

قلت: أنا جيت لكن ما لقيتش حد.

قال: لازم جيت متأخر. كان لازم نجوم بدرى.

قلت: انت رحت معاه؟

قال: وصلتهَ حبه.

عاد أحمد بالشاى، وقدمت إليهما السجاير.

قال أحمد: عرفت أنك شفت فهمى النهاردة الصبح.

قلت: أيوه.

انتهينا من الشاى فغادرتهما وأعداً بزيارتهما مرة أخرى. وعدت إلى الإستراحة، فأخذت حماماً. ثم تناولت طعام الغذاء بمفردى. وكان فهمى هو الذى قدمه لى.

غفوت ساعة بعد الغذاء. وحلمت أنى على ظهر مركب أمام "وادى السبوع"، كان الشاطئ حافلاً بتماثيل ملونة زاهية لإناث جميلات. وعلى ظهر المركب، استلقت عدة نساء قبيحات يعرضن أجزاء من أجسادهن للشمس. كانت إحداهن تشاركنى الغطاء. وشعرت بها تداعب قدمى باصبع قدمها، فداعبتها بدورى، ثم رأيت ثدياً عارياً لواحدة أخرى، فحولت وجهى أدباً. وكنت أعرف أنهن يتقربن إلىَّ كى أنشر صورهن فى الصحيفة.

أخذت حماماً عندما استيقظت. ولم أجد أحداً فى الصالة أو المطبخ. فأعددت لنفسى كوباً من الشاى، حملته الى الخارج، وجلست أحتسيه على درج الإستراحة.

كانت حرارة الشمس ما تزال قوية. لكن مساحة الظل كانت كبيرة. وقدرت أن الشمس ستختفى بعد ساعة.

أعادتني سخونة الجو الى الداخل. ذهبت الى حجرتي، وفتحت كلاً من مصراعي النافذة الخشبي والزجاجي. تركت المصراع الخشبي مفتوحاً، وأعدت إغلاق الزجاجي. ومرت من أمامي شاحنة تمدد ثلاثة من الصعايدة فوق ظهرها، وراحوا في سبات عميق.

وقفت خلف النافذة، أدخن وأتأمل الطريق، بينما جهاز التكييف يطن في أذني. لم يكن هناك أثر لأحد من الأحياء فيما حولى. ولم أر أية مبان على الناحية المقابلة. وكانت الرمال والصخور تغطيانها وتتدرجان ارتفاعاً حتى مدى البصر.

وأدركت أني بلغت نهاية رحلتي.

*

قلت لخليل ونحن نبتعد عن الاستراحة في اتجاه بيوت الأجانب: ألا تعرف طريقة للسفر؟ الصندل لا يقوم قبل اسبوع، وأنا أريد العودة الى القاهرة بأسرع وقت.

قال: الباخرة مسافرة غداً. لماذا لم تقل لى قبل الآن؟

سألت: ليس هناك مكان؟

قال: غالباً. لكنى سأدبر لك واحداً من تحت الأرض.

وضع يده في جيب قميصه الأعلى. وأخرج صورة فوتورافية قدمها لى وهو يقول: هذه صورتى فربما احتجتها إذا كنت ستكتب شيئاً.

أخذتها منه باهتمام قائلا: كنت سأطلبها منك. طبعاً سأحتاجها.

بلغنا منزل البنات، وقرعنا الجرس دون أن يجيبنا أحد كما حدث بالامس.

قال: آه. نسيت أن فيلماً يعرض اليوم. لعلهم هناك الآن. تحب أن تذهب؟

قلت إنى لا أمانع.

انطلقنا الى النادى الافرنجى الذى يعرض به الفيلم. وكان ملوناً يقوم ببطولته جيمس ماسون في دور الأمير الشجاع سير براك. ألفينا العرض قد بدأ، فأخذنا مقاعدنا في الظلام. وعندما انتهى العرض، واضيئت الأنوار، تحولت أتأمل جمهور المتفرجين. كان معظمهم من الأجانب، وبينهم عدد ضئيل من النساء. وأشار خليل إلى فتاة طويلة ممشوقة القوام وقال: هذه هى ريختا.

كانت ريختا جديرة حقاً بالضجة التى أثيرت حولها. ورأيتها تغادر الصالة

معتمدة على ذراع شاب رياضى فى مثل قامتها ذى ملامح إيطالية. سألنى خليل إذا كنت أريد أن أتحدث إليها، أو إلى غيرها، فأجبت بأنى فقدت اهتمامى وأنى أريد أن أتمشى في الهواء الطلق.

مضينا في اتجاه الإستراحة. ومررنا بحانوت حلاق، ثم شاليه جلس فى مدخله المضاء رجل وامرأة متقابلين. واقتعدت الأرض بجوارهما امرأة ترتدى شورتا. كانت قد مدت ساقيها العاريتين أمامها، فانعكس الضوء عليهما. وقال خليل إنهم ايطاليون.

سألته إن كان قد جرب الإيطاليات فأجاب: كلا اليونيات فقط.

– هلي توجد هنا يونانيات؟

– أبداً. هذا كان في الإسكندرية.

قلت: احك لى.

قال: كنا فى الصيف، وأخذت شقة فى عمارة مزدحمة. ثم اكتشفت أن هناك يونانية رائعة الجمال تسكن تحتى بمفردها. والتقينا عدة مرات فى المصعد، فتبادلنا التحية بالفرنسية. وفى يوم عدت بالليل مبكراً، وشربت زجاجة نبيذ "تليماك" ثم لبست أشيك ملابسى، ونزلت إليها. ضربت الجرس، وكانت الساعة عشرة. ففتحت لى الباب. كانت ترتدى قميص نوم شفاف من النايلون.

قاطعته: وفتحت الباب هكذا دون أن ترتدى روباً أو تغطى نفسها؟

قال: هذا ما حدث. اعتذرت عن دق الجرس، وقلت لها إنى فقدت مفتاحى وكنت فى حفلة وإنى متعب. سألتها إن كان بوسعى أن أستريح عندها قليلا، فقالت تفضل. جلست فى الصالة وسألتنى إذا كنت أحب أن أشرب شاياً أو قهوة، فقلت إنى لا أريد شيئاً. وجلست أمامى، فقمت وجلست إلى جوارها. أخذت أتأمل ساقيها، وكانتا أروع ساقين رأيتهما فى حياتى. وقالت لى إنها رأت سيارتى وإنها تريد أن أعلمها القيادة.

قاطعته مرة أخرى: لم تقل لى أن عندك سيارة.

قال: هذه كانت سيارة أحد أصدقائى.

قلت: وبعدين؟

قال: سألتها عن زوجها فقالت إنه فى اليونان. وجدت نفسى دون أن أشعر

أضع يدى على ساقيها، وأتحسسها وأنا أقول لها: ساقاك رائعتان. فقالت بهدوء: لقد شربت كثيراً يا مسيو خليل. انطلقت يدى رغماً عنى تتحسس فخذها. فأمسكت بها، وجعلت تضغط عليها. المرأة عندما تفعل ذلك تكون قد انتهت. انحنيت فوقها، وأملتها على الاريكة. وصرت كل يوم معها عندى وعندها وفى السيارة. وجن الضباط الذين كانوا يسكنون فى العمارة.

كنا قد تمهلنا أسفل أحد مصابيح الطريق. وسألنى وأنت، ألم تجرب الأجنبيات؟

هززت كتفى.

✵

انحنينا على خارطة مدينتها، وقد تلامست أكتافنا، وحولنا الدائرة الزجاجية التى تتألف منها قمة البرج، وخلفها كتلة من الظلام، تفصلها عن أنوار القاهرة، وعندما حاولنا أن نرى المدينة من خلف الزجاج، لم نطالع سوى وجهينا، وتمددت فوق رمال الشاطئ ثم انحنت وأبعدت حافة القطعة السفلى من المايوه عن جسمها، وتطلعت هناك، وفى ظلام السيارة شعت عيناها بالضوء، وكان الآخر يجلس إلى جوارها من الناحية الأخرى واضعاً ذراعه على حافة المقعد خلف رأسها، وقال بيتاً من الشعر، فضحكت ساخرة، وقالت: ها هو شاعر جديد،

✵

توقفت أمام الاستراحة. وعرض على خليل أن نذهب الى صديقه الطبيب، فاعتذرت بأنى أريد أن أنام مبكراً.

قال: سأبعث إليك فى الصباح بسيارة تأتى بك. وسأكون قد أعددت كل شئ.

شكرته وانتظرت حتى سار بضع خطوات، فولجت الاستراحة.

كان حلمى جالساً فى الصالة وفى حجره بعض الأوراق. وبدا منهمكاً فيما يشبه الحسابات. جلست أمامه بعد أن قدمت إليه سيجارة، وأشعلت واحدة. جعلت أرقبه وهو يلصق طوابع دمغة على أوراقه.

قلت بعد لحظة: سأسافر فى الصباح.

قال: لا شك أنك مللت هذا المكان. ولك حق.

قلت: كان بودى أن أواصل السفر حتى حدود السودان، لأرى بقية المعابد. لكن الوقت لا يكفى.

أتى رفعت من الخارج فحيانا وجلس. سأله حلمى عن الاخبار، فقال إن السلطات أعادت اليوم وراء الحدود بعض اللاجئين الأفريقيين.

استفسرت عن الموضوع، فذكر لى حلمى أن اللاجئين القادمين من تشاد، يعبرون الحدود خلسة كل يوم، ويسلمون أنفسهم إلى أقرب نقطة شرطة، فترحلهم إلى أسوان.

سألت: ولماذا إذن أعادوهم اليوم؟

هز كتفيه وقال: لا أعلم. ربما كانوا خطرين.

قال رفعت: لا أفهم لماذا يهجرون بلادهم أصلاً.

نهضتُ واقفاً وأنا أتمطى. وقال حلمى لرفعت إنى راحل فى الصباح.

قال رفعت: لكنك لم تجر معنا أية أحاديث.

قلت: لقد كتبت كل شئ، ولا تنقصنى سوى صوركما.

أخرج رفعت من محفظة نقوده صورة فوتغرافية له، وناولها لى. وقام حلمى إلى الداخل، فأحضر صورة له.

تبادلنا تحية المساء، وأويت الى غرفتى. أعددت حقيبتى، ثم أشعلت سيجارة، واستلقيت علىٰ الفراش.

تناولت رواية "كيرواك"، وبدأت أقرأ لكنى وضعتها جانباً بعد فترة. واسترجعت مغامرة خليل مع اليونانية. كانت حكايته جذابة رغم شكى فى صحتها. ومضيت أتذكر حكايات مماثلة سمعتها أو قرأتها.

تحسست ساقى بيدى، ثم أشعلت سيجارة أخرى بعد أن أطفأت النور. ودخنت فى الظلام حتى انتهت السيجارة فوضعتها فى المطفأة.

نمت على وجهى حتى الصباح. وحلمت أنى وذهنى محاصران فى مكان ما ونريد أن نتسلل منه. وأسير أنا فى المقدمة، ولكنى أفاجأ باثنين من الزنوج يرتديان جلبابين أبيضين يحرسان المكان. وأقف أمامهما في الظلام واضحاً وأنا فى رعب من أن يريانى، وهما يريانى أخيراً، ويجريان ورائى، فأستسلم لهما شاعراً بعجزى عن

المقاومة. لكنى أبذل محاولة يائسة، فأمسك برقبة أحدهما. وأرى ذهنى ممسكاً برقبة الثانى. وإذا بالرقبة التى فى يدى تلين كانبوبة من المطاط وأفعصها، فتندفع منها الدماء، وتتحول إلى شئ كقربة من الجلد أفرغ ما بها. وأطوح بها بعيداً. ويتغير الليل فجأة الى نهار. وأجرى فى طريق حاشد بالمارة وأنا أنظر إلى يدى الملوثتين بالدماء، وأفكر بأن التخلص منها صعب، وأن أمرى لا بد سينكشف وأجرى نحو ذهنى الذى دلى يديه فى مكان ما وغسلهما. وننطلق معاً جرياً ونحن واثقين من أننا قد أفلتنا، ونهنئ أنفسنا بالنجاة. وإذا بالسيارات تحاصرنا ويقبضون علينا. وأقول لذهنى إنها غلطته، فقد استنجد بالشرطة فى الصباح لأمر ما وأعطاهم أسماءنا وأوصافنا، فأتاح لهم فرصة اصطيادنا.

أيقظنى فهمى فى الصباح قائلاً إن هناك سيارة تنتظرنى. اغتسلت بسرعة، بينما حمل حقيبتى إلى السيارة. أردت أن أمضى بغير إفطار، لكنه أصر أن أتناول كوباً من الشاى وقطعة من الجبن. وأخيراً صافحته مودعاً، وودعت كلاً من حلمى ورفعت. وأخذت مكانى إلى جوار السائق.

أدار السائق المحرك، وسار بضع خطوات إلى الامام. ثم قام بنصف دورة إلى اليسار وضعته في الاتجاه المعاكس على الجانب الآخر من الطريق. وضغط مفتاح السرعة، فانطلقت السيارة بأقصى سرعتها.

أخذ الجبل الصخرى يتراجع من ورائنا. وأحاطت بنا الصخور والرمال المستوية من كل جانب. وما لبث النهر أن تجلى لأعيننا. وامتد الشاطئ الرملى الضيق تحت أقدامنا، وفى أقصاه ناحية اليسار كانت الباخرة تستعد للإقلاع.



موسكو

24 يناير كانون الثانى 1973

كتبت هذه الرواية على فترات متقطعة بين أكتوبر/تشرين الأول 1966 ويناير/ كانون الثانى 1973 فى الأماكن التالية على التوالى: القاهرة، برلين، شاطئ البحر الاسود، موسكو. وأهم هذه الفترات وأكثرها اتصالا هى الفترة الاخيرة التى امتدت من يوليو/تموز 1972 حتى يناير/كانون الثانى 1973.

وتستند الرواية إلى رحلة قام بها المؤلف إلى كل من موقع العمل فى السد وأبى سنبل فى صيف عام 1965 ووضع عنها كتاباً بالاشتراك مع كمال القلش ورؤوف مسعد صدر فى القاهرة عام 1967 بعنوان "إنسان السد العالى". والمفروض أن أحداث الرواية تجرى بعد عام من تحويل مجرى النيل الذى تم فى مايو/آيار 1964. وفى ذلك الحين كانت واجهتا معبدى أبى سنبل مغطاتين بالرمال وقد بدأ تقطيع الأجزاء العليا منهما. وقد تجاوز المؤلف عن ذلك لاعتبارات فنية.

وقد استعان المؤلف بالمطبوعات والنشرات المختلفة الصادرة عن هيئة السد العالى وشركة المقاولين العرب ووزارة الثقافة ومركز تسجيل الآثار المصرى. ورجع إلى عدة مراجع فى التاريخ الفرعونى يذكر على رأسها "الحياة المصرية فى عهد الرعامسة" تأليف بيير مونتيه ترجمة عزيز منصور، (الدار المصرية للتأليف والترجمة 1965) و"العمارة فى مصر القديمة" للدكتور أنور شكرى (الهيئة العامة للتأليف والنشر القاهرة 1970). كما استفاد فائدة كبيرة من المقال الممتاز الذى نشر بمجلة المجلة القاهرية فى سبتمبر 1965 بعنوان "عبادة رمسيس الثانى وعبادته فى معابد النوبة" لأحمد عبد الحميد يوسف. وقد ضمن الرواية إحدى الفقرات الكاملة من هذا المقال وهى الخاصة بمعبد الدر. واستفاد المؤلف أيضاً من الكتاب الممتاز The agony and The ecstasy تأليف Irving stone الذى يدين له بأغلب الأفكار الواردة فى المقتطفات الخاصة بميكل انجلو، كما رجع الى رسائل ميكل انجلو وأشعاره التى ترجمها الى الانجليزية Charles Speroni ونشرها مؤلف الكتاب السابق بعنوان I, Michel angelo عن دار Doubleday, New York 1962. وشاهد المؤلف

بنفسه نسخة من تمثالى "داود" و"الشفقة" في متحف بوشكين للفنون التشكيلية بموسكو. أما بالنسبة لأعمال ميكل انجلو الأخرى فقد اقتصر على مراجعة الألبومات المصورة المختلفة. ورجع المؤلف أيضاً إلى "الكتاب المقدس" وكتاب المصور البريطانى "وليم ماكينى" عن أبى سنبل و"النيل فى الأدب العربى" للدكتورة نعمات أحمد فؤاد و"النيل" لأميل لودفيج ومذكرات مدرسية عن علم طبقات الأرض.

ويسجل المؤلف أن انجاز هذا العمل كان مستحيلاً تماماً لولا المساعدات المختلفة التى تلقاها من كثيرين في مراحل مختلفة منه وفى مقدمتهم الصحفى السوفييتى "قسطنطين فيشنيفسكى" مراسل الازفستيا السابق فى مصر الذى انتهت حياته المأساوية القصيرة قبل شهرين من انتهاء العمل فى هذا الكتاب.



"نجمة أغسطس" هى إحدى العلامات البارزة في مسيرة صنع الله إبراهيم الإبداعية، تلك التى امتدت من الستينات حتى وقتنا الراهن، مشتمله على العديد من الأعمال التى أثرت فى الثقافة المصرية والعربية، وامتد تأثيرها إلى الأفق العالمي عبر ترجمتها إلى العديد من اللغات الأوربية، من بين هذه الأعمال رواياته "اللجنة"، "ذات"، "بيروت" وغيرها.

والهيئة العامة لقصور الثقافة اذ تنشر هذه الرواية فأنها تحتفي بكاتب كبير اختارته الأمانة العامة لمؤتمر أدباء مصر كى يكون رئيسا لمؤتمر أدباء مصر فى دورته الحالية، وذلك انطلاقا من كونه أحد الرموز الكبرى فى جيل الستينيات المصري.



www.gocp.gov.eg
www.qatrelnada.com.eg
www.althaqafahalgadidah.com.eg
www.odabaaelaqaleem.com

الثمن: ثلاثة جنيهات